

السلاطين

في المشرق العربي

معالم دورهم السياسي والحضاري

المماليك

(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ - ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

د. عصام محمد شبارو

mohamed khatab



السلطان...

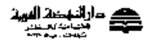
الملك الظاهر...

بيبرس البندقداري...؟!



المماليك
(٦٤٨ - ٩٢٢ هـ = ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

د. عصام محمد شبارو

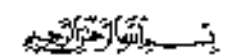


دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

■ الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية كريدية، تلفون: 816271 ، 818704 ، 818709
برقياً: دانهضة، ص.ب 749 ـ 11
تلكس: 312 ـ 4761 ـ 312 ـ DL1

■ المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني رقم ٣، غربي الجامعة العربية، تلفون: 316202 ، 818703

■ المستودع: بئر حسن، تلفون: 833180



مقدمة

بعد سقوط الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠، انحصر الدور السياسي والحضاري في مصر وبلاد الشام، بسلاطين المماليك وحدهم، فقد قدر لبعض هؤلاء السلاطين غير العرب أن يحملوا راية العروبة لمتابعة حركة الجهاد ضد الصليبيين التي بدأها عماد الدين زنكي باسترداد الرها سنة ٥٣٩/ ١١٤٤، وصلاح الدين الأيوبي باسترداد بيت المقدس سنة ٥٨٣/ ١١٨٧. فتمكن ثلاثة من سلاطين المماليك من إنجاز المرحلة الأخيرة من الصراع مع الصليبيين، فاسترد الظاهر بيبرس إمارة انطاكية سنة ٦٦٦/ ١٢٦٨، وحرر المنصور قلاوون كونتية طرابلس سنة ٦٨٨/ ١٢٨٩، مما مهد للأشرف خليل لتحرير عكا وبيروت، وتحقيق الجلاء الصليبي التام سنة ٦٩٠/ ١٢٩١.

كما قدر لهؤلاء السلاطين المماليك الثلاثة أن يوجهوا أشد الضربات بخطر المغول الذين اجتاحوا بغداد سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ وبلاد الشام سنة ٦٥٧/ ١٢٥٩، وقد مهد لتلك الضربات السلطان المظفر قطز الذي يعود له الفضل في إنزال الضربة الأولى بالمغول في عين جالوت سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠، ومع ذلك لم ينكفىء المغول إلا بعد فشل حملة غازان على بلاد الشام سنة ٧٠٣/ ١٣٠٣.

لذلك ارتأيت الحديث عن هذا الدور السياسي لهؤلاء السلاطين المماليك، في ستة فصول على أن يتضمن الأول، دور المماليك في إجلاء الصليبيين (٦٤٨ ـ ٦٩٠/ ١٢٥٠ ـ ١٢٩١). والثاني، غزو المغول وسقوط المدن العربية الثلاث بغداد، حلب ودمشق (٦٤٩ ـ ٦٥٨/ ١٢٥٦ ـ ١٢٦٠). والثالث، القضاء على أسطورة المغول (٦٥٨ ـ ٧٠٣/ ١٢٦٠ ـ ١٣٠٣).

والرابع، ملف الخطر الصليبي (٧٠٣ ـ ٧٨٤/١٣٠٣ ـ ١٣٨٢). والخامس، نشأة دولة المماليك الثانية ومواجهة خطر تيمورلنك (٧٨٤ ـ ٨٠٨/١٣٨٢ ـ ١٤٠٥). والسادس، المماليك وتحرير قبرص وغزو رودس (٨٢٧ ـ ٨٤٧/١٤٢٤ ـ ١٤٤٤).

كما ارتأيت وضع فصل سابع يبرز الدور السياسي لأول من حمل لقب سلطان من العثمانيين وهو السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية سنة ٨٥٧/٢٩ أيار ١٤٥٣، وفصل ثامن تدور أحداثه حول الحروب العثمانية ـ المملوكية (٨٩١ ـ ٩٢٣/١٤٨٦ ـ ١٥١٧)، وذلك بمرحلتيها الأولى والثانية، التي أدت إلى نهاية الدور الجهادي للسلاطين غير العرب، وذلك مع سقوط دولة المماليك الثانية سنة ٩٢٣/١٥١٧.

وكان لا بد من الحديث عن بعض ملامح النظم الحضارية زمن المماليك، لتوضيح الدور الحضاري الذي قاموا به طيلة ٢٦٧ سنة، لذلك أفردت الفصل التاسع لهذه الغاية.

وتسهيلاً للقارئ، تضمن الكتاب ثمانية ملاحق تتعلق ببعض الرسائل والكتب والمعاهدات التي عقدت في تلك الحقبة التاريخية، إضافة إلى ثلاثة ملاحق تحوي أسماء سلاطين المماليك، وسلاطين الخوارزمية وخانات المغول، فضلاً عن فهارس المصادر والمراجع والأعلام والأماكن والمعارك والمعاهد.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما سعيت إليه.

بيروت عين المريسة
كانون الثاني ١٩٩٥م.
محمد سهيل طقوش

دولة المماليك الأولى وإجلاء الصليبيين
(٦٤٨ ـ ٦٩٠/ ١٢٥٠ ـ ١٢٩١)

بمقتل توران شاه على يد المماليك سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠، انتهت دولة الأيوبيين فعلياً في مصر، وقامت دولة المماليك الأولى (٦٤٨ ـ ٧٨٤/ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢) التي استطاعت أن توحد مصر والشام كما في أيام صلاح الدين الأيوبي، وتنهي العمل الذي بدأه بإجلاء الصليبيين نهائياً من المشرق العربي الإسلامي سنة ٦٩٠/ ١٢٩١.

١ ـ أصل المماليك:

يعود أصل المماليك إلى الرقيق الآسيوي الأبيض من الأتراك والجراكسة، وموطنه الأصلي بلاد القفجاق في حوض نهر الفولغا شمال البحر الأسود وفي القوقاز، حيث تعيش قبائل مختلفة من الأتراك والجراكسة والروس والمغول واللان. وكان تجار الرقيق يحصلون على هؤلاء المماليك عن طريق الأسر في الحروب، أو تخطف من أهلهم الذين قد يضطرون أحياناً لبيع أبنائهم بسبب الفقر والجوع مقابل المال أو الطعام.

وقد أكثر سلاطين الدولة الأيوبية - ثم دولة المماليك الأولى - من جلب المماليك الأتراك ثم الجراكسة لتعليمهم اللغة العربية بعد تنشئتهم على الإسلام وتربيتهم على الفروسية والطاعة، حتى أصبح هؤلاء المماليك هم الأداة الحربية الوحيدة في دولتي المماليك الأولى والثانية في مصر والشام.

وكان الصالح أيوب (٦٣٨ ـ ٦٤٧/ ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩) قد أكثر بدوره من شراء المماليك الأتراك، فأصبح معظم الجيش يتألف منهم، مما أحدث خللاً

في التوازن الكردي ـ التركي، فتفرقت قوة المماليك الأتراك بعد أن كان الأكراد يشكلون أساس القوة الحربية في الدولة الأيوبية. وقد ضج أهالي القاهرة من عبث واعتداءات هؤلاء المماليك الجدد، فبنى الصالح قلعة في جزيرة الروضة وأسكنهم فيها كما اتخذها مقراً له. وقد عرفوا باسم المماليك الصالحية نسبة إليه بعد أن عمل على تثقيفهم وتدريبهم على الولاء والإخلاص له، كما عرفوا بالمماليك البحرية، فقيل إن سبب هذه التسمية يعود إلى كونهم سكنوا جزيرة الروضة التي يحيط بها بحر (نهر) النيل[1]، والأرجح أن هذه التسمية تعود إلى الوسيلة التي كان يتبعها تجار الرقيق في جلبهم عبر البحار من القوقاز وآسيا الوسطى، حيث يعبرون البحر الأسود، بحر القرم، ثم البحر المتوسط لينزلوا في الإسكندرية أو دمياط[2]. كما أن لفظ «البحرية» أطلق على المسلمين والمسيحيين قبل زمن الصالح أيوب[3]. وقد تمكن هؤلاء المماليك البحرية من تأسيس دولة المماليك الأولى (٦٤٨ ـ ٧٨٤/ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢).

وما لبث سلاطين دولة المماليك الأولى أن اعتمدوا بدورهم على المماليك الذين كانوا يجلبون من بلاد القبجاق. فكان السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) يرسل سفينتين كل عام لجلب المماليك وخاصة الأتراك من بلاد القبجاق.

وفي عهد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩/ ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠)، كثر جلب المماليك الجراكسة وقد بلغ عددهم حوالى ثلاثة آلاف وسبعمائة في أواخر عهده. وقد أنزلهم قلاوون في أبراج القلعة، لذلك عرفوا بالمماليك البرجية، وتحولوا مع الزمن إلى قوة نافست المماليك الأتراك وحلت محلهم في كرسي السلطنة فتأسست دولة المماليك الثانية (٧٨٤ ـ ٩٢٣/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧).

وهكذا أقام المماليك الأتراك ثم الجراكسة سلطنة خاصة بهم امتد حكمها

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ٣٢٠، ٣٣٠-٣٣٠، ٣٢٠. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ص ٣٣٩.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٦٦.
(٣) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٨٠ ـ ٨١، ٨٣، ١٠١.

تحوالي قرنين وثلاثة أرباع القرن (٦٤٨ - ٩٢٣/ ١٢٥٠ - ١٥١٧). حتى انتهت على يد العثمانيين سنة ٩٢٣/ ١٥١٧.

٢ ـ شجر الدر (١٠ صفر ـ ربيع الثاني ٦٤٨/ أيار ـ تموز ١٢٥٠):

يعتبر المقريزي أن شجر الدر أولى سلاطين دولة المماليك الأولى في مصر[1]، بينما يعتبرها ابن إياس آخر سلاطين الدولة الأيوبية[2] والحقيقة أن شجر الدر كانت زوج الصالح أيوب والد توران شاه، وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه[3] وقد اعتبرها بعض المؤرخين من المماليك البحرية لأنها اشتركت معهم في المؤامرة ضد توران شاه. والأرجح أن شجر الدر قريبة من المماليك من حيث النشأة، فهي تركية الأصل رقيقة مملوكية تماماً. وكان المماليك البحرية الصالحية يأتمرون بأمرها لأنها من حريم الصالح أيوب الذي اشتراهم وأسكنهم قلعة الروضة، وقد اختاروها للسلطنة حتى يقطعوا الطريق على الأمراء الأيوبيين المطالبين بالسلطنة، ولا يظهروا أنهم هم الذين قضوا فعلياً على الدولة الأيوبية في مصر. وتمت البيعة لشجر الدر في ١٠ صفر ٦٤٨/ أيار ١٢٥٠، فقبضت على زمام الأمور بقوة وشهامة زائدة وحرمة وافرة[4]. فكانت تلك أول امرأة تسلمت الحكم في الإسلام[5]، وأول امرأة تسلمت الحكم في مصر بعد الفتح العربي الإسلامي. وعرفت بـ «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين»[6]

---

(١) راجع الملحق رقم ١٩ وفيه أسماء جميع سلاطين دولة المماليك الأولى.

(٢) ابن إياس. بدائع الزهور، جـ ١، ص ٨٩.

(٣) أبو شامة. الذيل على الروضتين، ص ١٩٦.

(٤) ابن إياس. بدائع الزهور، جـ ١، ص ٨٩.

(٥) تعتبر رضية الدين سلطانة دلهي في الهند أول امرأة تولت الحكم في الإسلام، وقد استمر حكمها أربع سنوات (٦٣٤ - ٦٣٨/ ١٢٣٦ - ١٢٤٠) وقد عاصرت شجر الدر وهي ابنة السلطان التتمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك في دلهي. وقد تولت بعده رعاية السلطنة بعد وفاته، وتشابه ظروف توليها الحكم مع شجر الدر، لكنه مصيرهما القتل.
المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٣٦٨.

(٦) المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٣٦٢.
ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة، جـ ٦، ص ٣٧٤

كان أول عمل قامت به، إنهاء المفاوضات التي بدأت مع الصليبيين قبل مقتل توران شاه، والإشراف على رحيل الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع، ثم أخذت تتقرب من المماليك البحرية. ومع ذلك لم يتقبل المصريون وجود امرأة على رأس الحكم[1]، كما عارضها الأمراء الأيوبيون في الشام، ولم يعترف بها الخليفة العباسي المستعصم[2]. فكان من الطبيعي أن لا تستمر شجر الدر طويلاً في السلطنة، في مجتمع عربي إسلامي لم يألف فيه المسلمون أن تتولى أمرهم امرأة، حيث الرجال قوامون على النساء.

لذلك أشار المماليك البحرية على شجر الدر بالزواج من الأمير أيبك التركماني والتنازل له عن السلطنة[3]. فتمت ذلك سنة ٦٤٨هـ/تموز ١٢٥٠م. وهكذا يمكن اعتبار الفترة التي تولت فيها شجر الدر السلطنة بمثابة مرحلة انتقالية استمرت ثمانين يوماً فقط، مهدت لقيام دولة المماليك الأولى التي استمرت مائة واثنان وثلاثون سنة (٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م).

٣ ـ المعز أيبك (٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧م):

يعتبر عز الدين أيبك التركماني أول سلاطين دولة المماليك الأولى في مصر، ولم يكن التفرد بالسلطة المملوكية سهلاً، فواجه أيبك ثلاثة أخطار، أولها خارجي تمثل بالخطر الأيوبي في بلاد الشام، وثانيهما داخلي وهو خطر المماليك البحرية بزعامة فارس الدين أقطاي، والثورة الشعبية. وقد استطاع أيبك أن يتغلب على هذين الخطرين، في حين فشل أمام الخطر الثالث المتمثل بزوجته شجر الدر وسقط قتيلاً أمام كيدها العظيم

أ ـ الصراع مع الأمراء الأيوبيين في الشام.

تحرك الأمراء الأيوبيون بزعامة الناصر صلاح الدين يوسف حفيد صلاح الدين الأيوبي وصاحب حلب، الذي استولى على دمشق واستعد للزحف نحو مصر لإعادة الدولة الأيوبية. لكن أيبك تحرك بسرعة عمد إلى اختيار الأشرف

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص ٢١.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٣) ابن إياس: تاريخ الكروب، جـ ٦، ص ٣٣٦.

موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل الأيوبي وكان عمره ست سنوات ليكون سلطاناً شريكاً لأيبك، وصار يخطب باسمهما[1]. لكن الأمراء الأيوبيين غضبوا لهذه الحيلة[2]، فأعلن أيبك أن مصر تحت سلطة الخلافة العباسية وهو يحكم بصفته نائب الخليفة المستعصم[3] ومع ذلك تابع الناصر يوسف استعداده لغزو مصر.

أخذ الناصر يوسف يعمل على إقامة تحالف أيوبي - صليبي ضد المماليك، فعرض على الملك لويس التاسع الذي كان لا يزال مقيماً في عكا، تسليمه بيت المقدس وكان تحت إمرة الأيوبيين، مقابل المساعدة العسكرية، لكن لويس التاسع وقف على الحياد بعد أن وعده أيبك بفك أسرى الصليبيين. ومما يجدر ذكره أن أيبك حاول من جهته استمالة لويس التاسع مقابل التنازل له عن نصف الغنيمة المقررة، وقد نجح في ذلك بعد أن وعده أيضاً بتسليمه بيت المقدس بعد استيلائه عليه من الناصر يوسف.

والحقيقة أن لويس التاسع وقف إلى جانب أيبك بعد انتصار هذا الأخير على التحالف الأيوبي بزعامة الناصر يوسف في العباسة سنة ٦٤٩/ ٢شباط ١٢٥١. وتراجع الأيوبيون إلى الشام[4]، في حين قام التحالف الصليبي - المملوكي بحملة مشتركة لطرد الأيوبيين، على أن يتولى لويس التاسع على يافا بينما يحتل أيبك غزة، وبعد اتصال الجيشين يتم الزحف داخل الشام. وهنا أظهر الناصر يوسف بطولة رائعة عندما ترك لويس التاسع يدخل يافا دون مقاومة، بينما سبق المماليك في دخول غزة ليدخلها قبلهم ومنع بذلك اتصال الجيشين الصليبي والمملوكي. وأصبحت المواجهة بين المماليك في الصالحية والأيوبيين في غزة محتمة إلى أن تم الصلح بينهما سنة ٦٥١/ نيسان ١٢٥٣،

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٣٧. ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، ص ٩٠.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٦
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٣٦٩.
(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١، ص ٢٧٠
(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٣٧٣ - ٣٧٨. ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٦، ص ٢٨١-٢٨٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٨.

حسمي من الخليفة المستعصم العباسي الذي كان يعمل على توحيد الجهود الإسلامية أمام خطر المغول الذي بدأ يهدد المشرق العربي الإسلامي. وتم الاتفاق على أن تكون مصر وجنوب فلسطين بما فيها غزة وبيت المقدس للمماليك ويبقى الأمراء الأيوبيون في بلاد الشام[1].

وبذلك أمن السلطان أيبك جانب الأيوبيين في الشام، بينما فشل لويس التاسع في الحصول على بيت المقدس، وعاد إلى بلاده سنة ٦٥٢/ ١٢٥٤.

ب - ثورة العرب ضد المماليك (٦٥١/ ١٢٥٣):

الحقيقة أن العرب الذين يعتبرون أساس الشعب المصري منذ الفتح العربي الإسلامي، لم يرضوا عن حكم المماليك الذين استبدوا وظلموا ونشروا الفساد وأمعنوا في زيادة الضرائب[1]. فتحرك بعض هؤلاء العرب خاصة في الصعيد والشرقية، وتزعم الثورة الشريف حصن الدين بن ثعلب الذي اعتبر أن السلطنة في مصر من حق العرب وليس المماليك الأرقاء[2]. واستطاع أن يقيم دولة عربية إسلامية مستقلة في مصر الوسطى وفي بلبيس. لذلك أرسل أيبك حملة عسكرية بقيادة أقطاي ومعه خمسة آلاف فارس فتغلبوا على العرب رغم كثرة عددهم في بلبيس سنة ٦٥١/ ١٢٥٣، وبقي حصن الدين يحكم مصر الوسطى حتى قبض عليه الظاهر بيبرس عندما تولى السلطنة. ومع ذلك فإن الثورات العربية لم تهدأ طوال فترة حكم المماليك الذين استخدموا أشنع الوسائل في القضاء عليها، مما أدى إلى نزوح الكثيرين من المزارعين العرب إلى المدن الكبرى وتحولوا إلى حرافيش أي زعر العامة[4].

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ١٠.
(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٣٨٠.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ٩.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤، ص ٦٩.
المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، ص ٣٩، ٤٢.
(٤) ابن الخطيب: نافذة العرب في ملاحة الأعراب، ص ٣٠.

جـ ـ القضاء على أقطاي زعيم المماليك البحرية:

أدرك أيبك منذ البداية مدى خطر المماليك البحرية بزعامة فارس الدين أقطاي الذي ارتفعت مكانته بعد إخماده ثورة العرب في بلبيس. لذلك أنشأ فرقة المماليك «المعزية» نسبة إلى لقبه «المعز» وحتى مملوكه قطز ملكاً له، ثم أسرع للتخلص من أقطاي قبل أن يستولي على السلطنة، فاستدرجه إلى قلعة القاهرة حيث انقض عليه المماليك المعزية بقيادة قطز وقطعوا رأسه ورموا به من فوق السور. لكن المماليك البحرية هرعوا لنجدة زعيمهم بقيادة الأميرين بيبرس وقلاوون، فلما شاهدوا رأس أقطاي رغم خارج القلعة[1]، اعتراهم الخوف ولاذوا بالفرار إلى بلاد الشام، حيث دخل بعضهم في خدمة الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، كما دخل البعض الآخر في خدمة علاء الدين كيقباد سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى[2].

لذلك اضطر أيبك سنة ٦٥١/١٢٥٣، إلى تجديد معاهدة الصلح مع الناصر يوسف الذي قام بطرد المماليك البحرية، فانضموا إلى المغيث عمر صاحب الكرك[3].

د ـ مقتل أيبك وشجر الدر (٦٥٥/ ١٢٥٧):

كانت شجر الدر مقربة من المماليك البحرية، مماليك زوجها الأول الصالح أيوب، فهالها ما حل بهم، وما كانت تخشاه أيام توران شاه تحقق على يد زوجها الثاني أيبك الذي تزوجها طمعاً في السلطنة. وساءت الأمور بينهما عندما علمت برغبته في الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. ولعل أيبك كان يريد التقرب من صاحب الموصل لمعرفة تحركات المغول، لكن شجر الدر كانت له بالمرصاد، ورغم حذر أيبك منها وإقامته بمناظر اللوق خارج القلعة، فانه وقع سريعاً في فخ الزوجة التي استدعته لعقف

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٣٩٠.
ابن آياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٩٠.
(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٣٩٣.
(3) المصدر نفسه، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨.

وزفة للحضور إليها في القصر السلطاني بالقلعة حيث كمن له خمسة من الغلمان الخصيان، وقتلوه في الحمام في ٢٣ ربيع الأول ٦٥٥/ نيسان ١٢٥٧[1].

بعد مقتل أيبك، بويع ابنه نور الدين علي وعمره خمس عشرة سنة[2]، فقبض على شجر الدر وعهد بها إلى نساء بيته فأماتوها ضرباً بالقباقيب على رأسها، وطرحوا جثتها للكلاب في خندق القلعة بعد أن رموها من فوق السور[3].

٤ ـ المظفر قطز (٦٥٥ ـ ٦٥٨/ ١٢٥٧ ـ ١٢٦٠):

تولى المنصور نور الدين علي السلطنة مدة ثلاث سنوات (٦٥٥ ـ ٦٥٧/ ١٢٥٧ ـ ١٢٥٩)، وكانت السلطة الفعلية بيد الأمير سيف الدين قطز نائب السلطان، قبل أن يتولى السلطنة بنفسه سنة ٦٥٧/ ١٢٥٩، ليواجه المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠.

بدأت سيطرة قطز، عند وفاة أيبك سنة ٦٥٥/ ١٢٥٧، حيث تمكن من فرض نفوذه على المنصور نور الدين علي. وكان قطز يعتمد في قوته على المماليك المعزية، في حين هربت الفرق المملوكية الأخرى إلى بلاد الشام وأخذت تحرض المغيث عمر صاحب الكرك على الزحف نحو مصر. وقد فشل المغيث عمر مع حلفائه المماليك مرتين في تحقيق هدفهما بعد أن تصدى له الأمير قطز عند الصالحية سنة ٦٥٥/ ١٢٥٧، ثم سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨.

ومن سخرية تاريخ المشرق العربي الإسلامي، أن الصراع بين الأمراء الأيوبيين والأمراء المماليك، مجتمعين أو كل منهما على حدة، لم يتوقف رغم الخطر المغولي الذي ما لبث أن قضى على الخلافة العباسية في بغداد في صفر ٦٥٦/ شباط ١٢٥٨. وبدلاً من توحيد كلمة الأيوبيين والمماليك ضد المغول

---

(١) المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ ١، ص ٤٠٣. ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة، جـ ٦، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٦، ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٩١ ـ ٩٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٦، ص ٣٧٦.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤٠٤.

قبل أن يواصلوا زحفهم نحو الشام ومصر، خضع معظم الأمراء الأيوبيين للمغول.

وقد استغل الأمير قطز هذه الظروف وعزل السلطان المنصور علي وسجنه مع أخيه وأمه في برج القلعة وتولى سلطنة مصر تحت اسم الملك المظفر قطز في سنة ٦٥٧/ نيسان ١٢٥٩.

بينما كانت دولة المماليك الناشئة في مصر، تمهد لتوطيد سلطتها، كان المغول بقيادة هولاكو، يجتاحون بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ثم يقضون على النفوذ الأيوبي في بلاد الشام، حتى أصبحوا على أبواب مصر. وانتهز قطز فرصة عودة هولاكو ومعه القسم الأكبر من جيشه إلى فارس، ليواجه المغول بقيادة كتبغا في عين جالوت سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠، حيث أنزل بهم أول هزيمة حاسمة، فتحت الطريق أمام المماليك للقضاء على المغول والصليبيين معاً، بعد أن تحققت على أيديهم وحدة مصر وبلاد الشام.

وبعد انتصاره في عين جالوت، تجدد الخلاف بين قطز ومماليكه المعزية وبين المماليك البحرية الصالحية، خاصة وأن بيبرس كان ينتظر الفرصة للانتقام لمقتل أقطاي الذي شارك قطز في قتله، وقد شاهد رأسه يلقى من سور القلعة. ولم ينس بيبرس تشرده مع غيره من المماليك في بلاد الشام، وكان رفض السلطان قطز إعطائه نيابة حلب، السبب الظاهر والدافع المباشر لأن يقدم بيبرس على قتل قطز في الصالحية يوم ١٥ ذي القعدة ٦٥٨/ ٢٢ تشرين الأول ١٢٦٠[1]. وبذلك لم يقطف قطز ثمرة انتصاره ولم يدخل القاهرة ظافراً، وكان قدره أن ينتقم فقط من المغول الذين قضوا على الإمبراطورية الخوارزمية سنة ٦٢٩/ ١٢٣١ وشردوا أمراءها الذين ينتمي إليهم، فقد قيل إن اسمه الحقيقي محمود بن ممدود وهو ابن أخت جلال الدين خوارزمشاه آخر سلاطين الخوارزمية، وقد تم أسره وبيع مع الرقيق في دمشق، فاشتراه المعز أيبك،

---

(١) ابن شاكر الكتبي. فوات الوفيات، جـ٢، ص ١٣٣ . المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٤٣٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٨٦ ـ ٨٧.

لينتقل معه إلى القاهرة مما مهد له السبيل لتولي السلطنة.

على هذا الأساس يعتبر السلطان قطز أول من أرسى دعائم حكم دولة المماليك الأولى في مصر بعد تأمين الحماية لها من الخطر الخارجي المتمثل بالمغول. وبعد نجاح المماليك في رد خطر المغول عن بلاد الشام، كان عليهم مواجهة الخطر الصليبي لتحرير ساحل بلاد الشام، وتحقيق الوحدة بين مصر وبلاد الشام.

٥ ـ الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧):

يعتبر الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الأولى، وقد تولى السلطنة في ١٩ ذي القعدة ٦٥٨/ ٢٦ تشرين الأول ١٢٦٠[1] والظاهر لقبه، ولقب أيضاً بالبندقداري نسبة إلى سيده علاء الدين البندقدار. وأول عمل قام به كان إعادة جميع المماليك البحرية المشردين خارج مصر[2]

وقد أقام الظاهر بيبرس الخلافة العباسية في القاهرة في سنة ٦٥٩/ ١٢٦١، وتمكن من توحيد مصر والشام ثم أنزل ضربة قاصمة بالصليبيين مهد بها لجلائهم التام عن المشرق العربي الإسلامي بعد وفاته بأربع عشرة سنة.

أ ـ التخلص من المناوئين للحكم (٦٥٩ ـ ٦٩١/ ١٢٦١ ـ ١٢٩٣)

ما إن تولى بيبرس حكم مصر حتى تمرد عليه الأمير علم الدين سنجر نائب دمشق الذي أعلن نفسه سلطاناً على دمشق وتلقب بالملك المجاهد في ذي الحجة ٦٥٨/ تشرين الثاني ١٢٦٠، فأرسل بيبرس سيده علاء الدين البندقدار على رأس حملة، فهزم الأمير علم الدين سنجر واعتقله وعاد به إلى القاهرة يوم ١٦ صفر ٦٥٩/ كانون الثاني ١٢٦١[3].

كان المغيث عمر العادل بن الكامل صاحب الكرك، يسعى لإعادة الدولة

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٣٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ٣، ص ٢١٠.

المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

الأيوبي نحو زعامته، كما كان بيبرس على اطلاع تام بما يطمح إليه المغيث، خصوصاً وأن المماليك البحرية ومنهم بيبرس كانوا قد لجأوا إليه فراراً من أيبك ثم قطز، لذلك استدرج المغيث إلى معسكره في بيسان وأمر باعتقاله في جمادى الأولى ٦٦١/آذار ١٢٦٣. وأحسن بيبرس في طريقة التخلص من آخر الورثة الشرعيين للعرش الأيوبي حتى لا يثير الشكوى ضده، فاتهم المغيث عمر بتهمة الاتصال بالمغول لمساعدته في إعادة الدولة الأيوبية إلى الشام ومصر[1]، وأمر بقتله في القاهرة في جمادى الثانية ٦٦١/نيسان ١٢٦٣[2]. وبذلك سيطر بيبرس على الكرك وعين عليها والياً من قبله.

ب ـ تدعيم القوة الحربية (٦٥٨ ـ ٦٦٣/ ١٢٦٠ ـ ١٢٦٥):

قضى بيبرس السنوات الخمس الأولى من حكمه يعمل على توطيد دعائم دولته في مصر والشام، وذلك قبل مواجهة الخطرين اللذين يهددان المشرق العربي الإسلامي وهما: الخطر الصليبي، والخطر المغولي.

أدرك بيبرس مدى اختلاف الأسلوب العسكري في مواجهة الصليبيين، عما كان عليه مع المغول الذين واجههم المماليك وجهاً لوجه في سهول عين جالوت، بينما يتحصن الصليبيون داخل القلاع والحصون المنيعة، وكان يتوجب على المماليك النيل من هذه الحصون والقلاع ودكها بآلات الحصار، قبل الوصول إلى أسوار المدن ودخولها

بعد إقامة الخلافة العباسية في القاهرة، وإخضاع جميع المنافسين له من المماليك والأيوبيين، أخذ بيبرس يعمل على تحصين دولته وتأمين حدودها ضد أي غزو خارجي محتمل، لذلك اهتم بإعادة بناء القلاع في مصر والشام[3]، وأقام سلسلة من المنائر وأبراج الحمام تربط أطراف الدولة بالقاهرة لمراقبة

---

(١) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٥٠٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص ٤٤٤؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤٨٢، ٤٩١ ـ ٤٩٦.

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٢٦.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٥٢٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ١١٦.

تحركات العدو، ويشاهد على سرعة نقل الأخبار[١]. وأمر بردم مصب النيل عند دمياط بواسطة الصخور الكبيرة لمنع الصليبيين من العبور إذا ما فكروا بإرسال حملة جديدة إلى مصر. ووضع للبريد نظاماً خاصاً لربط قلعة القاهرة بسائر أنحاء الدولة عن طريق البر بواسطة الخيل، أو عن طريق الجو بواسطة الحمام الزاجل[٢]. حتى صارت الرسائل تنقل من دمشق إلى القاهرة ذهاباً وإياباً في مدة لا تزيد عن ثلاثة أيام.

لتدعيم قوته العسكرية، أخذ الظاهر بيبرس يعمل على تكوين جيش من المماليك، وأكثر من استخدام أعداد كبيرة منهم. وفي سنة ٦٦٠/ ١٢٦٢، عقد محالفة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن[٣]، كما تحالف مع بركة خان زعيم مغول القبجاق[٤]، وعز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى[٥]. ثم شرع في عملية جلب المماليك، فكان يرسل سفينتين كل عام، يسهل الامبراطور البيزنطي مرورهما عبر البوسفور نحو البحر الأسود، حيث تنقل المماليك المشترين من القبجاق لتعود بهم إلى الاسكندرية ودمياط في البحر المتوسط[٦].

وبسبب الحروب في القبجاق، هاجر أيضاً جماعة من المغول. ففي سنة ٦٦٠/ ١٢٦٢، استقبل بيبرس جماعة من مائتي فارس من مغول القبجاق وافدت مستأمنة إلى مصر، ثم لحق بهم ألف وثلاثمائة فارس مع عائلاتهم سنة ٦٦١/ ١٢٦٣، ثم وفدت جماعات أخرى سنة ٦٦٢/ ١٢٦٤، فسمي هؤلاء

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٩٢؛ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٠٠ ـ ٢٠١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٩٦.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٨٩ ـ ٣٩٤.
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٦، ص٤٠١ ـ ٤٠٢.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٤٦١.
(٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٩ ـ ١٤٠.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٤٦٨.
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٦، ص٤٠١؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص٤٦٩.
(٦) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٠٢، ٢٠٣.

بالوافدية أو «التتر المستأمنة»[1]. وقد أنزلهم بيبرس في دور بناها لهم قرب اللوق[2]. لكنهم لم يصلوا إلى المراتب العليا في الجيش المملوكي[3].

وهكذا بلغ عدد أفراد الجيش المملوكي حوالي أربعين ألفاً[4]، ووصل عدد قطع الأسطول البحري إلى خمسين سفينة[5].

جـ ـ الحرب الشاملة ضد الصليبيين (٦٦٣ ـ ٦٦٨/ ١٢٦٥ ـ ١٢٦٩).

تمادى الصليبيون في تعاونهم مع المغول ضد دولة المماليك حتى أنهم سمحوا لبعض الحاميات المغولية بالنزول في حصونهم العسكرية، فأدرك بيبرس ضرورة القضاء على هذا التحالف عن طريق محاربة الصليبيين ثم المغول.

وقبل أن يشن بيبرس حربه الشاملة ضد الصليبيين، مهد للوصول إلى أهدافه وذلك بعقد محالفات مع ملوك أوروبا، فأرسل وفداً برئاسة ابن واصل (صاحب كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) إلى مونفرد هوهنشتاوفن ملك صقلية ونابولي، وكذلك إلى ألفونسو العاشر ملك قشتالة سنة ٦٥٩/ ١٢٦١، فضلاً عن الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن سنة ٦٦٠/ ١٢٦٢.

في سنة ٦٦٣/ ١٢٦٥، بدأت الحرب الشاملة ضد الصليبيين في سواحل الشام، وقد دخل بيبرس على أثرها قيسارية في ١٥ جمادى الأولى ٦٦٣/ ١٢٦٥، وذلك بعد حصار ستة أيام، ثم استولى على أرسوف في جمادى الثانية من نفس السنة.

● سقوط قلعة صفد (١٩ شعبان ٦٦٤/ ١٢٦٦):

تعتبر قلعة صفد من أخطر القلاع الصليبية باعتبارها قاعدة فرسان الداوية،

---

(1) ابن واصل. مفرج الكروب، جـ ٦، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٥٠٠ ـ ٥٠١.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٥٠٠ ـ ٥٠٦.

(3) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٥١٢، ٦١٦.

(4) ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ١٩٢.

(5) المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤٤٦

وقد استولى عليها بيبرس في ١٩ شعبان ٦٦٤/ ١٢٦٦ بعد حصار استمر أحد عشر يوماً، وقتل جميع أفراد الحامية من فرسان الداوية وهم الفرسان الأشداء ليكونوا عبرة لغيرهم من الصليبيين.

ومهما قيل أن بيبرس أعطى الأمان لحامية صفد ثم نكث بالوعد، فإن خطته في مواجهة الصليبيين سارت في طريق النجاح، وجعلت الرعب يملأ قلوبهم.

● سقوط إمارة أنطاكية (٤ رمضان ٦٦٦/ أيار ١٢٦٨)

بدأت الهزائم تحل بالصليبيين منذ سنة ٦٦٤/ ١٢٦٦، عندما أرسل بيبرس جيشاً بقيادة الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي، ثم جيشاً بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، للإغارة على مواقع الصليبيين، فاستولوا على قلاع حلبا، والقليعات، وعرقا[1]. وسنة ٦٦٦/ ١٢٦٨، سقطت يافا، بعدها اتجه بيبرس نحو الشمال، وأغار على طرابلس، ثم رحل عنها إلى حصن الأكراد، حيث حصل على مائة ألف دينار، مقابل الابتعاد عن الحصن[2]. وتابع سيره نحو أنطاكية مروراً بحمص، وحماة، وأفامية، ثم حاصر أنطاكية براً وبحراً، حتى لا تصل إليها الإمدادات، ودخلها في ٤ رمضان ٦٦٦/ ١٨ أيار ١٢٦٨، بعد أن قتل فيها أكثر من أربعين ألفاً. وكانت الغنائم كثيرة من الأسرى والمال[3].

وبعد تسعة أيام، استولى بيبرس على حصن بغراس بالأمان في ١٣ رمضان، وجعله حصناً للمسلمين.

● عقد الهدنة مع إيزابيلا صاحبة بيروت (٦ رمضان ٦٦٧/ ١٢٦٩)

كان بيبرس يلجأ عند الضرورة إلى توقيع المعاهدات، وعقد الهدنات مع

---

(١) أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر، جـ ٤ ص ٣.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٥٤٠.
(٢) الذهبي: العبر في خبر من غبر جـ ٥ ص ٢٨٣. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٥٦٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ١٤١.
(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٠٧. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٥٦٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ١٤٣.

الصليبيين، وهذا لا يمنعه من خرق هذه المعاهدات والهدنات، قبل انقضاء أجلها[1]. وكانت مدة هذه المعاهدات، كما جرى التقليد عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات.

كان سقوط قلعة صفد ثم إمارة أنطاكية، ضربة قاصمة أصابت الصليبيين، فسارع البعض إلى عقد هدنة مع بيبرس يتنازل بموجبها عن نصف أو جزء من مداخيل البلاد[2]. وكانت أشهرها، الهدنة التي عقدها بيبرس مع إزابيلا صاحبة بيروت في ٦ رمضان ٦٦٧/١٢٦٩[3]. وإزابيلا هي ابنة جان الثاني دو إبلان الذي خلفه في حكم بيروت والجبال المحيطة بها سنة ٦٦٢/١٢٦٤، وقد عرفت باسم «اللامونة» وهو تحريف لاسم عائلتها «دو إبلان». ويتبين من نص الهدنة، أن حدود بيروت ونواحيها كانت تمتد من جبيل شمالاً إلى صيدا جنوباً، كما تظهر بعض أسماء مدن وأماكن لا تزال باقية إلى يومنا هذا مثل: حوبية، العصفورية، سن الفيل، أنطلياس، الصليمة، بيوشرية، الدكوانة: غلغة، الناعمة.

وبعد ثلاث سنوات من عقد الهدنة تزوجت إزابيلا من هامو لاترانج سنة ٦٧٠/١٢٧٢، الذي أوصى قبل وفاته بوضع زوجته وبيروت تحت حماية السلطان الظاهر بيبرس، وذلك خشية مطامع هيو الثالث ملك قبرص. لذلك أقدم هيو الثالث على خطف إزابيلا بعد وفاة زوجها سنة ٦٧١/١٢٧٣، كي يزوجها من يشاء وليستعملها ذريعة لعرش قبرص في تنفيذ مشاريعه الصليبية في المشرق العربي الإسلامي، على أساس أن إزابيلا تزوجت وهي صغيرة السن من ملك قبرص هيو الثاني الذي مات قبل أن يعقد عليها. وأمام تهديد الظاهر بيبرس بضرورة تنفيذ وصية هامو، اضطر هيو الثالث لإعادة إزابيلا إلى بيروت، حيث اتخذت لنفسها حرساً من المماليك، وأصبحت كلما أرادت السفر إلى

---

(1) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٣٣٢، ٣٣١.
(2) ابن الفرات: معرفة تراجم الخلفاء والملوك، ج ٧، ص ٢٥. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤٢ - ٥١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥٠.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٩ - ٤٢. راجع نص المعاهدة في الملحق رقم ٢.

جزيرة قبرص، تذهب بعضها إلى الظاهر بيبرس وتترك بيروت وديعة بين يديه ريثما تعود من سفرها. وهذا الأمر يشير إلى مدى المكانة التي وصل إليها بيبرس، وخاصة في بيروت التي استمرت تحت حكم إيزابيلا لحين وفاتها سنة ٦٨٠/ ١٢٨٢.

عاد بيبرس إلى مصر، بعد أداء فريضة الحج ثم زيارة بيت المقدس، فدخل القاهرة في ١٣ صفر ٦٦٨/١٢٦٩. والحقيقة أن عودته ترتبط بقيام الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا.

ب- الحملة الصليبية الثامنة على تونس (٦٦٨ ـ ٦٦٩/ ١٢٦٩ ـ ١٢٧٠):

كان السلطان الظاهر بيبرس يتوقع قدوم حملة صليبية جديدة إلى مصر، ولم يكن ما فعله قبل توجهه إلى الشام، من رمي الصخور المقطعة في مصب النيل عند دمياط، وتشييد برج للمراقبة في رشيد وتدعيم أسوار الإسكندرية[١]، إلا دليلاً واضحاً على ذلك، ولمنع السفن الصليبية من دخول مصر.

كان لويس التاسع ملك فرنسا يريد التوجه إلى مصر انتقاماً لهزيمته أثناء الحملة السابعة التي رافقت قيام دولة المماليك الأولى، هذه الدولة التي أخذت في ظل بيبرس تكيل الضربات القوية للصليبيين. لكن أخاه شارل دو أنجو ملك جزيرة صقلية أقنعه بوجوب توجه الحملة نحو تونس نظراً لأهمية موقعها بالنسبة إلى صقلية.

بدأ حصار تونس في ذي القعدة ٦٦٨/ ١٢٦٩، وكان يحكمها الباي المستنصر بالله الحفصي. وتعرضت الحملة لوباء الحمى والدوزنطاريا فهلك نصف العسكر ومن بينهم الملك لويس التاسع وابنه تريستان الذي ولد بعد حصار دمياط ودخولها، وتوفي أثناء حصار تونس. وهكذا خلا الجو لشارل دو أنجو الذي استغل الحملة لصالحه وفاوض باي تونس حتى تقرر الصلح في ربيع الأول ٦٦٩/ ١٢٧٠، على أن يدفع المستنصر بالله الحفصي لشارل ملك

---

(١) ابن الفرات: سيرة ترتيب العلماء والملوك، جـ ٧، ص ٨١.
ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ١١١

مغلية، ويدفع له جزية سنوية ومصاريف الحملة التي بلغت ١٢٠ ألف وزنة من الذهب. وانسحبت الحملة الثامنة عن تونس بعد أن سخط الصليبيون على شارل دو أنجو لتسخيره الحملة من أجل مصالحه الشخصية، ومنهم الأمير أدوارد الذي تولى حكم انكلترا فيما بعد تحت اسم إدوارد الأول.

هـ - توقف القتال مع الصليبيين (٦٧٠ - ٦٧٦هـ/ ١٢٧١ - ١٢٧٧م):

كان رد بيبرس سريعاً على الحملة الصليبية الثامنة نحو تونس. ففي سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، أرسل حملة بحرية لغزو جزيرة قبرص التي كان يحكمها آنذاك الملك هيو الثالث، لكن الأسطول المصري تحطم عند شاطئ الجزيرة على أثر العواصف الشديدة.

ورغم ذلك عاد بيبرس إلى بلاد الشام لمتابعة انتصاراته على الصليبيين، بعد أن اطلع على سير ونتائج الحملة الصليبية الثامنة على تونس، وفشل حملته البحرية على قبرص التي زادته تصميماً على قتال الصليبيين. فاستولى بالأمان على حصن الأكراد في ٢٤ شعبان ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م بعد حصار استمر خمسة عشر يوماً، ثم استولى على حصن عكار في أواخر رمضان ٦٦٩هـ/ ١٩ نيسان ١٢٧٠م[1].

وفي شوال ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، توجه السلطان بيبرس إلى طرابلس لحصارها، فطلب أميرها بوهمند السادس الصلح، وكان الأمير إدوارد قد وصل إلى عكا على رأس حملة صغيرة من ألف محارب صليبي أواخر رمضان ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، واتجه يحرض مغول فارس بزعامة أبغا بن هولاكو على غزو مصر والشام. وهنا اضطر بيبرس لعقد الهدنة مع بوهمند السادس[2] صاحب

---

(1) أبو الفضائل: النهج السديد، ص ٥٢٧ - ٥٣٢؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٧٩ - ٣٨٠؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ص ٥٩١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ١٥١ - ١٥٢.

(2) ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص ٥٣٤، ٣٧٤؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر جـ ٥ ص ٢٩٠؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ص ٥٩٢، ٥٩٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ١٥٦.

طرابلس فما عقد الهدنة مع عكا في ٢٢ رمضان ٦٧٠/ ٢٢ نيسان ١٢٧١[1]، وذلك بعد فشل الأمير إدوارد في إقامة التحالف المغولي الصليبي، وعودته إلى بلاده، فكان آخر محارب صليبي جاء من الغرب الأوروبي إلى المشرق العربي الإسلامي.

وبعد وفاة بوهمند السادس، في رمضان ٦٧٣/ ١٠ آذار ١٢٧٥، قام ابنه بوهمند السابع، بتجديد الهدنة مع بيبرس في ٨ محرم ٦٧٤/ أواخر تموز ١٢٧٥[2].

وبعقد الهدنة مع معظم الإمارات الصليبية، توقف القتال بين المماليك والصليبيين حوالي أربع عشرة سنة منها ثماني بعد وفاة الظاهر بيبرس، حتى عاد القتال فتجدد في عهد المنصور قلاوون سنة ٦٨٤/ ١٢٨٥، ليتم جلاء الصليبيين نهائياً في عهد ابنه الأشرف خليل سنة ٦٩٠/ ١٢٩١.

و - تحول بيبرس إلى بطل شعبي (سيرة الظاهر بيبرس):

يعتبر الانتشار العربي تحت راية الإسلام، منذ القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد، بمثابة المحور الرئيسي الذي دارت حوله الأعمال الأدبية الشعبية العربية، كما يعتبر الدافع الأول في تصدي أبنائها من مواجهة أعدائه الذين استقروا في ساحل المشرق العربي الإسلامي تحت راية الصليب، فأعطاها عمقها الشعبي والخيالي والإنساني ليضاف إلى جوار قيمتها الوثائقية الاجتماعية التاريخية.

كانت الحروب بين العرب والدولة البيزنطية (الروم)، دافعاً لظهور أعمال شعبية ترصد التاريخ العربي الإسلامي مستفيدة من الماضي لدعم الحاضر والتمهيد للمستقبل. فوضعت ثلاث سير تغطي معاً فترة طويلة من هذا التاريخ تمتد من الجاهلية حتى نهاية الحروب الصليبية، وهي سيرة عنترة بن شداد وسيرة ذات الهمة وسيرة الظاهر بيبرس.

---

(١) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر ص ٣٣٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ١٥٧.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص ٤١٥ - ٤٢٧؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٧ ص ٤٠٣؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ص ٦١٩.

الأرجح أن سيرة عنترة بن شداد قد كتبت في عهد الخلافة الفاطمية في مصر. وتشتمل على مرحلة الفروسية حيث لم يخرج إلى الجزيرة العربية من أجل الدين، بل خرج فارساً ناصراً للحق ومدافعاً عن المظلومين فتحولت سيرته إلى رمز لوحدة الأمة العربية.

والأرجح أيضاً أن سيرة ذات الهمة[1]، قد كتبت بعد عهد المقتدي بالله العباسي، لتكون مكملة للسيرة الأولى. تحولت سيرة ذات الهمة رمز الانتشار العربي خارج شبه الجزيرة العربية تحت راية الإسلام في الوقت الذي كانت الخلافة العربية الإسلامية في الشام تتحول إلى امبراطورية إسلامية مترامية الأطراف. لذلك فإن أحداث هذه السيرة الطويلة تمتد من عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حتى عهد الخليفة العباسي الواثق بالله، وتركز حول الحروب بين العرب المسلمين والبيزنطيين الروم.

ثم جاءت سيرة الظاهر بيبرس لتكون امتداداً لسيرة ذات الهمة، تبدأ أحداثها من عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى العصرين الأيوبي والمملوكي، حيث تركز تركيزاً كاملاً على الحروب الصليبية.

تركز سيرة الظاهر بيبرس أساساً على شخصية هذا السلطان المملوكي الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الأولى التي أنزلت ضربات موجعة بالمغول وأجلت الصليبيين نهائياً عن المشرق العربي الإسلامي، كما يعتبر أول من أحيا الخلافة العباسية وجعل مركزها القاهرة بعد سقوط بغداد على يد المغول. وإذا كانت استثارة الروح العربية واضحة جلياً في سيرة ذات الهمة، حيث يتم الحديث عن الأصل العربي للأبطال، رغم الجهاد في سبيل الدين، فإن الواقع الاجتماعي والسياسي في المشرق العربي الإسلامي قد تبدل في ظل الحروب الصليبية التي ترويها سيرة الظاهر بيبرس، كما تعددت الانتماءات

---

(1) سيرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب والأمير أبي محمد البطال وعقبة شيخ الضلال ومنوعوس المحتال) وهي سيرة عربية ضخمة تتكون من سبعين جزءاً ويضم كل جزء منها حوالي خمسين صفحة. قامت مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي بالقاهرة، بطبع سيرة ذات الهمة في سبعة مجلدات، كل مجلد منها عشرة أجزاء.

المرقية، وأصبح العنصر العربي مغلوباً على أمره حيث الحكم الفعلي بيد السلاطين والأمراء غير العرب وفي مقدمهم الظاهر بيبرس الذي تحمل السيرة اسمه. لذلك أصبح التشبث بالأصل العربي مدعاة للتفرقة لا للوحدة، فبعض الأبطال من الأيوبيين الأكراد وبعضهم من الفرس، وصاحب السيرة من المماليك الأتراك. لذلك اتجه الراوي الشعبي في سيرة الظاهر، للمناداة بوجوب الالتفاف حول الهدف الإسلامي العام، لتأكيد الوحدة تحت راية الدين ومواجهة عدو الأرض والدين.

وما يهمنا أخيراً أن العرب المسلمين كانوا أوفياء للقادة المسلمين غير العرب، أمثال صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس، فأدخلوهما في أدبهم الشعبي، وتناصروا حباً بهم لإضفاء الهوية العربية عليهما.

٦ ـ المنصور قلاون (٦٧٨ ـ ٦٨٩/ ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠):

لم تسمح الظروف للظاهر بيبرس أو لأحد أبنائه ليشهد الجلاء الصليبي عن أرض المشرق العربي الإسلامي، فقد استطاع الأمير سيف الدين قلاون أن ينقل السلطنة إلى بيته، فيحقق جلاء الصليبيين بعد موته سنة واحدة، وعلى يد ابنه الأشرف خليل.

كان قلاون والد غازية خاتون زوجة السعيد محمد بركة خان الذي تولى السلطنة بعد وفاة أبيه الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦/ ١٢٧٧، وكان عمره وقتذاك تسع عشرة سنة. فسعى قلاون من وراء الستار، حتى أجبر السعيد بركة على خلع نفسه سنة ٦٧٨/ ١٢٧٩، ثم التوجه نحو الكرك. وبويع أخوه العادل بدر الدين سلامش بالسلطنة وعمره سبع سنين، فعيّن الأمير قلاون نائباً عليه. وأخذ قلاون يمهد للسلطنة، فعيّن أتباعه في النيابات المختلفة، ثم عزل العادل بدر الدين سلامش بعد ثلاثة أشهر من توليه السلطنة ونفاه إلى الكرك.

وهكذا استطاع قلاون الذي لقّب بالمنصور أن ينقل السلطنة المملوكية من البيت الظاهري إلى البيت القلاوني الذي استمر في الحكم أكثر من قرن: لينتهي مع نهاية دولة المماليك الأولى سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢.

أ ـ دخول دمشق (٦٧٩/ ١٢٨٠):

لم يعترف نائب دمشق الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بسلطة قلاون، وأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالكامل. فجهز المنصور قلاون جيشاً بقيادة علم الدين سنجر الحلبي، ثم أرسله إلى دمشق، حيث حلت الهزيمة بسنقر الأشقر في ١٩ صفر ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م[1]. ودخل جيش قلاون إلى دمشق.

ب ـ تأسيس جيش من المماليك الجراكسة «البرجية»

لتوطيد حكمه داخل وخارج مصر، أكثر السلطان المنصور قلاون من شراء المماليك الجراكسة، وهم عنصر قوقازي الأصل كان يعيش في قمم فوق المرتفعات الصوبية لبلاد القبجاق. وقد تميز هؤلاء الجراكسة بانخفاض ثمنهم دون غيرهم من المماليك الأتراك، حتى أصبح عددهم اثنا عشر ألفاً في أواخر عهد قلاون. وكان قد أنزلهم في أبراج قلعة القاهرة، لذلك عرفوا بالمماليك البرجية، وقد عرفت دولة المماليك الأولى نهايتها على أيدي هؤلاء المماليك الذين أسسوا دولة المماليك الثانية سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢.

جـ ـ عقد المعاهدات والتحالفات:

تابع قلاون السياسة الخارجية التي طبقها بيبرس، والتي تقضي بحرب التحالف الصليبي ـ المغولي من جهة، والصليبي ـ الجنوي من جهة ثانية، حتى يتمكن من القضاء على المغول والصليبيين كل على حدا.

لذلك عقد معاهدة تجارية مع جنوى، ومنح الجنويين امتيازات تجارية مقابل التزام الحياد. ثم أقام حلفاً دفاعياً مع الملكين الإيطاليين الفونس دو كاستيل وجاك دو سيسيل، ومع الامبراطور رودلف دو هابسبورغ. كما جدد الهدنة مع فرسان الاسبتارية في عكا في ٢٢ محرم ٦٨٠/ ٣ أيار ١٢٨١[2]، ومع الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن في محرم ـ رمضان ٦٨٠/ ١٢٨١[3]، ومع

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٣٦٣ ـ ٣١٤.

ابن الفرات: تاريخ الملوك والخلفاء والملوك جـ ٧ ص ١٠٠

(٢) نص المعاهدة في الملحق رقم ٦ والملحق رقم ٧

بوصفه السابع أمير طرابلس في ١٢ ربيع الأول ٦٨٠/ ١٥ تموز ١٢٨١[1].
وهذا كله سهل له التفرغ لقتال المغول، وإنزال الهزيمة بهم في موقعة حمص يوم ١٤ رجب ٦٨٠/ ١٢٨١.

د ـ الانتصار على الصليبيين (٦٨٤ ـ ٦٨٩/ ١٢٨٥ ـ ١٢٩٠)

بعد انتصاره على المغول عند حمص سنة ٦٨٠/١٢٨١، حرك قلاوون جبهة القتال مع الصليبيين التي استمرت هادئة حوالي أربع عشرة سنة منذ أن عقد بيبرس الهدنة معهم سنة ٦٧٠/ ١٢٧١.

● سقوط حصن المرقب (١٩ ربيع الأول ٦٨٤/ ١٢٨٥):

كان حصن المرقب قاعدة فرسان القديس يوحنا المعمدان، ولا يقل أهمية من قلعة حصن الأكراد قاعدة فرسان الداوية التي استولى عليها بيبرس، في حين امتنع عليه حصن المرقب معقل فرسان الاسبتارية. حاصر قلاوون «المرقب» فطلب أهله الأمان فتسلمه سلماً في ١٩ ربيع الأول ٦٨٤/ ١٢٨٥[2]، مما يعني نقض الهدنة مع الصليبيين بعد أربع سنوات من توقيعها.

● عقد الهدنة مع مرغريت أميرة صور (٦٨٤/ ١٢٨٥)

وقع المنصور قلاوون هدنة مع مرغريت أميرة صور في ١٤ جمادى الأولى ٦٨٤/ ١٨ تموز ١٢٨٥[3]، وهي هدنة مماثلة للتي وقعها بيبرس مع إيزابيلا صاحبة بيروت. ومدة الهدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام، تعهدت الأميرة مرغريت بموجبها بعدم بناء تحصينات جديدة في إمارتها، كما تعهدت بالوقوف على الحياد في الصراع القائم بين المنصور قلاوون والصليبيين، وذلك مقابل عدم تعرض المماليك لإمارة صور.

● سقوط طرابلس (٤ ربيع الثاني ٦٨٨/ ١٢٨٩)

تمكن نائب السلطنة حسام الدين طرنطاي، سنة ٦٨٦/ ١٢٨٧، من انتزاع

---

(١) نص الهدنة في الملحق رقم ٨.
(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٢٨؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٤ ص ٢٠.
(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٠٢ ـ ١١٠؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٧. نص المعاهدة في الملحق رقم ١١

قلعة صهيون من الأمير المتمرد شمس الدين سنقر الأشقر، لأنه لم يقدم المساعدة ضد حصار حصن المرقب. كما تمكن نائب السلطنة من تسلم برج اللاذقية بالأمان، وقام بهدمه[1].

أما طرابلس، فشهدت وفاة بوهمند السابع كونت وريث في رمضان ٦٨٦/ ١٩ تشرين الأول ١٢٨٧، وقيام الصراع حول الحكم بين أخته لوسي وأمه سيبل، مما أدى إلى اضطراب الوضع داخل المدينة وإفساح المجال لتدخل المدن التجارية. وبذلك أصبحت طرابلس تحت حماية الجنوية مقابل اعترافهم بحقوق الأميرة لوسي، مما أدى إلى معارضة البيازنة والبنادقة فضلاً عن فرسان الداوية والاسبتارية.

انتهز السلطان قلاوون فرصة اعتداء الصليبيين في طرابلس على التجار المسلمين، وقطع الطريق على المسافرين. وتوجه بنفسه إلى طرابلس على رأس جيش يتألف من أربعين ألف فارس ومئة ألف من المشاة، تصحبهم آلات الحصار. وحاصر المدينة في مستهل ربيع الأول ٦٨٨/ ٢٧ آذار ١٢٨٩[2] وبعد حصار استمر أربعة وثلاثين يوماً، استولى على طرابلس في ٤ ربيع الثاني ٦٨٨/ ٢٦ نيسان ١٢٨٩ وهرب الصليبيون نحو الجزيرة المواجهة لطرابلس، وفيها كنيسة سان توماس. فاقتحم جيش قلاوون هذه الجزيرة وقضى على الصليبيين قتلاً وأسراً[3].

وقيل إن قتلى الصليبيين في طرابلس بلغوا سبعة آلاف، بما فيهم الغرقى الذين حاولوا الهرب عن طريق البحر، كما بلغ عدد الأسرى ألفي ومائتي أسير[4]. وقد عمد قلاوون إلى هدم المدينة، بعد أن استمرت حوالي ١٨٤ سنة بيد الصليبيين، ثم أمر ببناء مدينة جديدة على أن تكون بعيدة عن الشاطئ، وفي

---

(١) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٩١، ٩٢.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ص ٧٣١.
(٢) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ج ٨ ص ٢٨٨.
(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢٣، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ص ٧٤٧، صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٠، ٢١.
(٤) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٨٠.

مأمن من تهديد الأساطيل الصليبية[1]. وبعد سقوط طرابلس، تمكن المماليك من فتح أنفه والبترون دون أية مقاومة.

ثم يلبث قلاوون أن توفي في ٦ ذي القعدة ٦٨٩/ ١٢٩٠، وهو يستعد لحصار عكا.

٧ ـ الأشرف خليل بن قلاوون وإجلاء الصليبيين (٦٩٠/ ١٢٩١):

تولى صلاح الدين خليل السلطنة بعد وفاة أبيه المنصور قلاوون، وتلقب بـ «الأشرف» في ٧ ذي القعدة ٦٨٩/ ١٢٩٠ وكان أول عمل قام به هو التخلص من نائب السلطنة حسام الدين طرنطاي، ثم تابع العمل الذي بدأه أبوه في الاستعداد لدخول عكا، تمهيداً لإجلاء الصليبيين عن المشرق العربي الإسلامي.



دولة المماليك الأولى بعد الجلاء الصليبي (٦٩٠هـ/١٢٩١م)

---

(١) المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٧١٨.

أ ـ تحرير عكا (الجمعة ١٧ جمادى الثانية ٦٩٠/ ١٨ أيار ١٢٩١):

أعد الأشرف خليل حملة كبيرة من عشرين ألفاً تصحبها آلات الحصار، حيث استخدم اثنين وتسعين منجنيقاً من بينها منجنيق عظيم يسير على مائة عجلة سمي «المنصوري». وكان قد تجمع في عكا ما بين ثلاثين إلى أربعين ألفاً من الصليبيين. بدأ الحصار في ٣ ربيع الثاني ٦٩٠/ ٥ نيسان ١٢٩١[1]، ليستمر شهراً ونصف الشهر. ثم دخل الأشرف خليل إلى عكا يوم الجمعة في ١٧ جمادى الثانية ٦٩٠/ ١٨ أيار ١٢٩١، بعد قتل وأسر الكثير من الصليبيين، في حين تمكن البعض من الفرار بحراً، وفي مقدمتهم ملك قبرص هنري لوزينان، وصاحب جبيل. ثم أمر الأشرف خليل بهدم عكا[2].

ومن المصادفات أيضاً أن يستعيد الأشرف خليل مدينة عكا بعد قرن كامل، وفي نفس اليوم والشهر على سقوطها بيد الصليبيين الذين استولوا عليها من صلاح الدين الأيوبي في يوم الجمعة ١٧ جمادى الثانية ٥٨٧/ ١١٩١.

كانت معركة عكا، آخر المعارك الفاصلة في الحروب الصليبية التي عرفها المشرق العربي الإسلامي طيلة قرنين من الزمان.

ب ـ تحرير بيروت (٢٢ رجب ٦٩٠/ ٢٣ تموز ١٢٩١):

بعد تحرير عكا دب الخوف والرعب في قلوب الصليبيين، وفي خلال مدة أربعين يوماً، تسلّم الأشرف خليل ونائبه في الشام الأمير سنجر الشجاعي جميع المدن الساحلية المتبقية بيد الصليبيين. فقد سيّر الأميرين علم الدين السلودي وشرف الدين الجاكي إلى جبيل[3]، كما سيّر الأمير علم الدين سنجر الماتسكي إلى صور فدخلها بعد أن لاذ سكانها بالفرار[4]. ثم دخل المماليك إلى صيدا.

---

(١) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٨ ص ٣٠٨ ـ ٣١٠. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ص ٧٦٣ ـ ٧٦٤. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٨ ص ٦ ـ ٥.

(٢) أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر، جـ ٤ ص ٢٤، ٢٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٨ ص ١٠، صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١

(٤) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٥.

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ص ٧٦٥، ٧٦٦.

دخل الأمير سنجر الشجاعي إلى بيروت دون مقاومة في ٢٦ رجب ٦٩٠/ ٢٣ تموز ١٢٩١[1]. ثم جمع سكانها من الصليبيين والنصارى وأغلبهم من طائفة الموارنة، وأرسلهم إلى دمشق ومنها إلى مصر. وفي مصر أمر الأشرف خليل بإطلاق سراحهم ومنعهم من العودة إلى بيروت وأمر التوجه إلى جزيرة قبرص، فتوجهوا جميعاً إلى قبرص. ولا نستغرب إن وجدنا في يومنا هذا أحفاد هؤلاء الموارنة في جزيرة قبرص، حيث لهم فيها أسقفاً ومقعداً نيابياً خاصاً بهم. وبذلك انتهى حكم أسرة إبلان الصليبية في بيروت.

ثم أخلى الصليبيون حيفا وعتليت، كما أخلوا الصرفند. وقد أمر الأشرف خليل بهدم أسوار وتحصينات هذه المدن جميعاً، حتى لا يعود الصليبيون الاستيلاء عليها والتحصن فيها من جديد بعد أن فروا إلى جزيرتي قبرص ورودس[2].

ومن سخرية التاريخ المملوكي، أن ينتهي الأشرف خليل بن قلاوون قتيلاً على يد أمرائه سنة ٦٩٣/ ١٢٩٣، وهو الذي أنجز المهمة التي بدأها صلاح الدين الأيوبي باسترداد القدس قبل قرن، والتي تابعها سلاطين المماليك، قطز وبيبرس وقلاوون، والقاضية بإجلاء الصليبيين نهائياً عن أرض المشرق العربي الإسلامي.

---

(1) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٥؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٣ ص ٧٦٩؛ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٠، ٦٨.

(2) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢١

غزو المغول وسقوط بغداد وحلب ودمشق
(٦٥٤ ـ ٦٥٨/١٢٥٦ ـ ١٢٦٠)

تعرض المشرق العربي الإسلامي لخطرين خارجيين عملا متحدين ومعاً على تقويض دعائم الحضارة العربية الإسلامية دون جدوى، وهما الصليبيون والمغول. وقد تصدى لهذين الخطرين السلاطين والأمراء من العرب، فتولى الأتابكة الأتراك ثم الأيوبيون الأكراد مواجهة الخطر الصليبي. وعندما ظهر الخطر المغولي بزعامة جنكيز خان وخلفائه في الفترة (٦٠٣ ـ ٦٤٨/١٢٠٦ ـ ١٢٥٠)، كان الأيوبيون هم في مرحلة الضعف عن مواجهته، فتولى المهمة المماليك الأتراك الذين أقاموا دولتهم في مصر سنة ٦٤٨/١٢٥٠، فواجهوا الخطرين الصليبي والمغولي معاً، فحطموا أسطورة المغول «القوة التي لا تقهر»، وأجبروا الصليبيين على الجلاء النهائي.

فمن هم هؤلاء المغول الذين ظهروا وكأنهم الصاعقة التي ابتلي بها المشرق العربي الإسلامي وحضارته العريقة. وما هي علاقاتهم بالمماليك الأتراك الذين ظهروا وكأنهم المدافع الوحيد عن هذا المشرق في وجه الغزاة؟

١ ـ أصل المغول

لا يمكن فصل تاريخ المغول عن الأتراك، وبالتالي عن المماليك، فحتى منتصف القرن الثاني عشر للميلاد، وفي شمال منشوريا ومنغوليا وتركستان، انتشرت قبائل شبه بدوية، تعيش على الرعي وتنتقل من مكان إلى آخر، وتنتمي إلى ثلاث مجموعات: تركية، ومغولية، وتونغوزية.

وإذا أمعنا النظر في الموطن الأصلي للأتراك والمغول، نجده مطوقاً

سلسلة ضخمة من جبال تيان شان وألتاي في الشمال الغربي، وجبال هملايا في الجنوب. وعلى الجبال هضبة تركستان ومنغوليا ومنشوريا فوق السهول الشاسعة التي يتراوح ارتفاعها بين خمسة آلاف وستة آلاف قدم، والتي تبعد كثيراً عن البحار مما جعلها ضمن المناخ القاري الشديد الحرارة صيفاً والقارس البرودة شتاء.

عاش الأتراك والمغول حياة البداوة بما فيها من رعي وغزو وقتال، وتاريخهم حافل بالغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر. فقد كانت بعض القبائل التركية أو المغولية تتحرك بقوة لفرض سلطانها على سائر القبائل وتأسيس ملك خاص بها. فتحركت أول الأمر في القرنين الرابع والخامس للميلاد نحو الصين حيث تزعمت على عرشها قبائل ليوتساغ وتوبا من الأتراك. كما تحركت نحو جنوب شرق أوروبا في إقليم السهول الروسية التي تعتبر امتداداً للسهول الآسيوية. حيث هددت قبائل هيونغ نو المعروفة بالهون، وهم من الترك المغول، إلى إنزال الخراب والدمار أينما حلّوا حتى وصلوا ترانسلفانيا (جزء من رومانيا) سنة ٣٧٦ م، وظهر فيهم أتيلا الذي سيطر على المنطقة الممتدة من نهر الراين إلى جبال الأورال، وخضعت له الأمبراطورية الرومانية الشرقية مدة تسع عشرة سنة (٤٣٥ _ ٤٥٤ م).

ثم توالت القبائل على الصين وأوروبا حتى ظهر المغول بقيادة جنكيز خان في مطلع القرنين السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، فدخلوا الصين ثم توجهوا نحو إيران وآسيا الصغرى، وكان نصيب المشرق العربي الإسلامي الدمار والخراب على أيديهم، فسقطت بغداد ومعها الخلافة العباسية سنة ٦٥٦/١٢٥٨. في حين خاضت الخلافة العربية الإسلامية تهالكاً على أيدي العثمانيين وهم من الأتراك، في مطلع القرنين العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد.

وعلى هذا الأساس نعتبر الأقاليم الشرقية والشمالية في قارة آسيا: مستودع الغزاة، منه خرجت غارات المتبربرين وخاصة من الأتراك والمغول

الذين لا يؤمنون بشريعة سماوية[1]، اتحد الأمبراطوريات المتمدنة في الصين والمشرق العربي الإسلامي وشرق أوروبا بالسلاجقة والملوك والخلفاء الذين تربعوا على عروش الصين، سمرقند، أصفهان، تبريز، قونية، والقسطنطينية. ويشبه ذلك ما حدث في أوروبا عندما سرحت غزوات الجرمان من اسكندينافيا.

عندما ظهر المغول في مطلع القرنين السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، عرفوا باسم التتار. والحقيقة أن قبائل التتار ظهروا في التاريخ منذ القرن السادس للميلاد، وعاشوا جنوب غرب بحيرة بايكال حتى نهر كيرولين، وانقسموا ثلاثة أقسام: التتار البيض الذين يعيشون خارج سور الصين فتأثروا بالحضارة الصينية، والتتار السود في شمال صحراء جوبي ويمارسون حياة البداوة والتنقل، وتتار الغابة على الروافد العليا لنهري أونون وكيرولين حيث يمارسون حياة الصيد.

أما المغول فقبيلة مستقلة عن التتار، وكانوا يعيشون مع التتار في الشطر الشرقي من آسيا الوسطى وفي الشمال الغربي من الصين على أنهار أولنا وكيرولين وأرغون وأونون. وحيث أن شهرة التتار سبقت شهرة المغول بأكثر من ستة قرون، فقد كان لهم من السلطان والقوة ما جعل المغول يحملون اسمهم لدى ظهورهم في القرن الثاني عشر للميلاد. مع الإشارة إلى أن لفظة «مغول» مشتقة من كلمة Mong الصينية وتعني باسل شجاع. وبذلك لا يعتبر المغول من سكان المراعي، بل هم شعب سكن الجبال المكسوة بالغابات التي سهلت لهم استعمال عربات اليد الخشبية[2].

يعتبر بودونتسار Bodontsar جدّ المغول الذي يزعم نسبه على الشاطئ الشرقي لبحيرة بايكال، ثم انضمت بعض القبائل لابنه قبلم الذي اتخذ لقب «خان». وكان لقبلم ثلاثة أبناء، يعتبر أكبرهم جدًّا لأسرة قيات Kiyat التي ينتمي إليها جنكيز خان. وتمكن المغول بقيادة «قابل» من محاربة الصين في

(١) الصيرفي: تاريخ ترابلة، ص ٤٦٢.

(٢) Grousset, L'Empire des Steppes, p 249.

الفترة (٥٣٠ ـ ٥٣٤هـ/ ١١٣٥ ـ ١١٣٩م)، نزلوا الهزيمة بالجيش الصيني، فكان هذا التاريخ بداية ظهور المغول.

٤ ـ جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية (٦٠٣ ـ ٦٢٤هـ/ ١٢٠٦ ـ ١٢٢٧م):

نشبت المعارك بين المغول والتتار حيث اشترك فيها يسوكاي فيصرع أحد زعماء التتار واسمه تيموجين في سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٥م؛ وتخليداً لهذا الانتصار أطلق يسوكاي على ابنه عند ولادته اسم "تيموجين"[1]، وهو الذي عرف فيما بعد باسم جنكيز خان.

أ ـ توحيد قبائل المغول وقانون الياسا (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م):

كان تيموجين في الثالثة عشرة من عمره عندما توفي والده يسوكاي، بذلك عاد التتار واستردوا نفوذهم بمساعدة أسرة كين التي تحكم مملكة الترنخوز في شمال الصين وعاصمتها بكين، فتداعت مملكة المغول الناشئة وأصبح التتار مصدر خطر على أسرة كين نفسها، فانقلبت عليهم. وبذلك سمحت الظروف لظهور تيموجين الذي نشط سريعاً ونجح في توحيد قبائل المغول والسيطرة عليها بمساعدة طغرل زعيم قبيلة الكرايت المسيحية، والذي ما لبث أن خضع أيضاً لتيموجين بعد هزيمته أمامه سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م. وبعد سيطرة تيموجين على القطر الشرقي من منغوليا، أنزل الهزيمة بقبائل النايمان في القطر الغربي سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، حيث اكتملت سيطرته على منغوليا بعد أن كانت السيطرة لأهم القبائل التركية من الكرايت شرقاً، والنايمان غرباً، فخضعت له جميع القبائل المغولية التركية.

تعتبر سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، بداية تكوين الإمبراطورية المغولية[2]، عندما أمر تيموجين بعقد مجلس الشورى الذي يعرف باسم قوريلتاي، وهتف به الجميع: جنكيز خان، أي إمبراطور العالم[3]، وأصبح يعرف بهذا الاسم

(١) خوندمير: حبيب السير، ج ٣ ص ١٦.
(٢) راجع الملحق رقم ٧ وفيه أسماء خانات المغول.
(٣) الجويني: تاريخ جهانكشاي، ج ١، ص ٦٧، ٦٨.

ولعل كلمة «جنكيز» تعريب للكلمة «تي» Tien الصينية ومعناها ابن السماء أو المحارب الكامل، أو لكلمة Cingiz المغولية ومعناها القوي والباسل. وقيل إن اللقب هذا حصل عليه من راهب شاماني وهي النبوءة التي عرضها القبائل المغولية قبل نفاذ المسيحية النسطورية إليها، مما يشير إلى أن أصل هذا اللقب يعود إلى المعتقدات الدينية عند المغول. وفي سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، دخل الأويغوريون تحت سيطرة جنكيز خان[1]، مما ساهم في استعمال المغول للكتابة الأويغورية.

الحقيقة أن المغول لم يكونوا مجرد شعب همجي مغير يرتكب الجرائم ويخالف النظام العسكري، فقد كانت لهم نظمهم وقوانينهم التي أسست قيام الإمبراطورية المغولية. وعلى أساس قانون الياسا استطاع جنكيز خان توحيد القبائل التركية والمغولية لبناء إمبراطورية في الفترة (٦٠٣ ـ ٦٢٥هـ/١٢٠٦ ـ ١٢٢٧م). وقد أصدر جنكيز خان عقب انتخابه خاناً أعظم للمغول سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، قانون الياسا (ياساق نامه بزرك)، وهي لفظة مغولية معناها الحكم أو السياسة أو القانون. ثم أمر أن تكتب الياسا بالخط الأويغوري وأن يحفظها صغار أهل بيته، وأن تحفظ في خزائنه تتوارث عند بني أعقابه[2]. ومن أبرز مواد هذا القانون[3]: ـ

- من وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده إلى صاحبه قتل.
- من أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل.
- من وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال، وكان وراءه شخص، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم يفعل قتل.
- لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل منه المناول أولاً، ولو كان المناول أميراً، ومن يناوله أسيراً.
- لا يختص أحد بأكل شيء وغيره يراه بل يشركه معه في أكله

---

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٩٦.

(٢) الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ١، ص ١٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٣١٠، ٣١١.

(٣) المقريزي: الخطط، جـ٣، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

- لا يتميز أحد بالشبع على أصحابه، وإن مر أحدهم بقوم وهم يأكلون، فله أن ينزل ويأكل معهم، وليس لأحد أن يمنعه.
- منع القول لشيء أنه نجس، لأن جميع الأشياء طاهرة، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى.
- منع تفخيم الألفاظ والألقاب، فلا يخاطب الشخص مهما علت مكانته إلا باسمه فقط.
- إلزام القائم بعده (النائب عنه) بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج للحرب، فمن وجده قد قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه.
- إلزام نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال.
- ترتيب أمراء الجيش: أمراء ألوف، وأمراء مئين، وأمراء عشراوات.
- خضوع أكبر الأمراء لما يصدر عليه من حكم، ولو قام بتنفيذ هذا الحكم أصغر من عنده
- إنزال عقوبة الإعدام بمن يرتكب السرقة والفحشاء
- النهي عن الإسراف في شرب الخمر.
- إنكار عصيان الولد لأوامر أبويه، ومخالفة الصغير للكبير.

ولم يغفل قانون الياسا الحديث عن تنظيم حلقات الصيد، في الأوقات التي يفرغ فيها المغول من القتال، لما لها من أهمية في التدريب على أساليب الحرب[1]. ففي هذه الحلقات تجتمع أنواع شتى من الحيوانات يقف أمامها المغول صفوفاً منتظمة وكأنهم في ميادين القتال، وقد تمتد هذه الحلقات من شهر إلى ثلاثة أشهر تحت إشراف كبار قادة المغول، وهذا الأمر يؤدي إلى الاستعداد الدائم للغزو.

ولا يجرؤ أحد حتى الخان الأعظم نفسه على مخالفة أحكام الياسا، ومن

---

(١) الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ١ ص ١٩ ـ ٢١

يفعل ذلك فخلفه واجب، ليتولى العرش غيره من أبناء جنكيزخان.(١)

وظل قانون الياسا حتى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر للميلاد، مرجعاً لوجهة نظر الغزاة البدو وسيطرتهم على الشعوب المتمدنة من أجل السيطرة على مواردهم وثرواتهم مقابل الحماية والدفاع عنهم. وهذا كله من أجل مصلحة جنكيزخان والأسرة الحاكمة، مما كفل له وحدة الإمبراطورية ومقرها منغوليا(٢) لمدة أربعين سنة بعد وفاته، وتحقيق السيادة لأسرته أجيالاً عديدة بعد انقسام الإمبراطورية.

وإلى جانب حرصه على المحافظة على كيان المغول، والإبقاء على تقاليدهم البدوية المصحوبة بحروب الإبادة التي تكفل لهم النصر، لم يغفل جنكيزخان الاستفادة من تجارب المتحضرين، فاتخذ مستشارين من الموالين له على اختلاف عناصرهم مثل محمود يلواج الخوارزمي من المسلمين، وقيو تشوتساي من الصينيين، وتاتاتونغا من الأويغوريين. وقد وصل الأول إلى حكم إقليم ما وراء النهر بعد سقوطه بيد المغول، وبذل جهداً كبيراً في إدارة هذا الإقليم وإعادة تعمير ما تخرب لتخفيف أثر الصدمة التي أحدثها المغول. وكان الثاني حاكماً على مدينة بكين قبل سقوطها بيد المغول سنة ٦١٢/ ١٢١٥، فقلّده جنكيزخان وظيفة عالية وصحبه في حملاته. ويصف لنا غزو جنكيزخان للدولة الخوارزمية(٣). أما الثالث فكان مستشاراً لآخر ملك نايماني قبل أن يتحول إلى مستشار لجنكيزخان ومعلم لأبنائه. وبفضل هؤلاء المستشارين ألمّ جنكيزخان وسط ما يجري من المذابح، أصول الإدارة المغولية.

كما أنشأ جنكيزخان قوات من «الحرس» بلغ عددها عشرة آلاف رجل، يؤلفون أهم طبقة في الجيش، وكل حارس يفوق في الرتبة قائد ألف رجل في الفرق الأخرى. ومن هؤلاء الحرس كوّن جنكيزخان كتيبة من ألف يطلق عليها

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ٣٧٢.

(٢) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ١٦٥.

(٣) Bretschneider: Mediaeval Researches T. I P. 9.

اسم «بهادر» أي الشجاع، وهي فرقة الحرس الخاص التي تلازمه دائماً أثناء السلم والحرب.

كان المتهم الذي يقبض عليه، يمر بستة أنواع من المحاكم للتحقيق معه وهي: ليشه، لويشه، جيبوك، نرنجيتون، روشتالي، ستويشه. ثم يعرض المتهم على محكمة الديوان الأعظم المسمى «شيلك» حيث يقضي له أو عليه وفقاً لقرار الخان. فإذا كان المذنب أميراً، فإنه يدخل على الخان، بعد أن يوضع على كاهله باب الخيمة مقلوباً إشعاراً له بالذلة والمهانة.

وكذلك عرف المغول نظام البصمات، حيث كانت تؤخذ بصمات الأشخاص الذين يحقق معهم، بوضع ورقة الإبهام تحت الإصبع، ويرسم خطاً عند موضع البصمة. وإذا ما أنكر المتهم في أي وقت، يواجه بعلامات أصابعه، ولأنها تكون صحيحة لا يستطيع الإنكار. وهذا الأمر يشير إلى معرفة المغول عن طريق التجربة، بأن بصمات أصابع الناس مختلفة عن بعضها[1].

لولا النظام والقانون لما استطاع جنكيزخان أن يحفظ وحدة المغول داخل منغوليا، ولولا قانون الياسا سنة ٦٠٣/١٢٠٦، والترتيبات التي وضعها، لما استطاع أن يوحد سائر القبائل التركية والمغولية الممتدة من صحراء جوبي حتى نهر الفولغا، وذلك تحت زعامته ليتمكن من إنشاء إمبراطوريته الكبرى في الفترة (٦٠٣ ـ ٦٢٥/١٢٠٦ ـ ١٢٢٧)، والتي امتدت بعد وفاته إلى حدود مصر قبل أن تلقى أول هزيمة كبرى على يد المماليك في عين جالوت سنة ٦٥٨/١٢٦٠.

ب ـ دخول الصين (٦٠٨ ـ ٦١٢/١٢١١ ـ ١٢١٥):

أخذت إمبراطورية جنكيزخان تمتد خارج منغوليا، فوصل المغول إلى داخل سور الصين العظيم سنة ٦٠٨/١٢١١، بعد أن حلّت الهزائم بملوك أسرة كين، ثم سقطت بكين سنة ٦١٢/١٢١٥، واعترفت كوريا بالتبعية لجنكيزخان سنة ٦١٦/١٢١٩.

جـ ـ إنزال الهزيمة بالسلطنة الخوارزمية (٦١٧ ـ ٦٢٢/١٢٢٠ ـ ١٢٢٥):

عندما زحف جنكيزخان نحو المشرق الإسلامي، كان لا بدّ من مواجهة

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان)، ص ٢٤٧

السلطنة الخوارزمية في آسيا الوسطى. ويعود تاريخ خوارزم إلى سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م، حيث كانت عبارة عن إقليم خوي، واستطاع السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه[١] أن يجعلها سلطنة تمتد من فرغانة إلى بحيرة أرال وتدخل ضمنها الضفة اليمنى لنهر سيحون، واتخذ حاضرة في سمرقند (عاصمة أوزبكستان اليوم) سنة ٦٠٩/١٢١٢، ثم شملت سلطنة خراسان ومعظم أفغانستان سنة ٦١٢/١٢١٥م، ثم فارس سنة ٦١٤/١٢١٧م، وبرزت العصبية له في صدارة.

لم ترتكز السلطنة الخوارزمية على دعائم وعناصر قوية، فالمغول عرفوا البلاد سنة ٦٠٣/١٢٠٦ كما عرفوا النظام الحربي، والسلاجقة استندوا إلى عشيرة تركية واحدة اعتنقت الإسلام. أما السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه فكان من أسرة تركية مسلمة عملت في خدمة السلاجقة وليس وراءها عشيرة تساندها، بل إن خوارزم نفسها كانت صغيرة المساحة، والجيش الخوارزمي عبارة عن جيش من المرتزقة، هذا فضلاً عن الانقسامات والنزاعات داخل أسرة محمد خوارزمشاه نفسها

ثم زاد في ضعف السلطنة الخوارزمية، ما عزم عليه السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه من عزل الخليفة العباسي الناصر لدين الله، لاعتباره أن الخلفاء العباسيين قد تقاعسوا عن الجهاد في سبيل الله، وأن الخليفة بمثابة خطر يتهدد الدولة الخوارزمية. لذلك لجأ السلطان إلى سياسة التقرب من الشيعة الذين يشكلون أغلبية سكان العراق العربي وخوزستان، فأصدر أمره بعزل الخليفة العباسي ونادى بعلاء الملك، وهو رجل علوي من مدينة ترمذ: خليفة على المسلمين. ولتنفيذ هذا الأمر، جهز جيشاً كبيراً سار به إلى بغداد سنة ٦١٤/١٢١٧. ويزداد الأمر غرابة، عندما استعان الخليفة العباسي بإمبراطور المغول جنكيزخان لإنقاذه من خطر الخوارزميين[٢]. ومع ذلك استمر زحف علاء الدين محمد خوارزمشاه، وعلى مقربة من همدان، التقى برسول الخليفة

(١) ينظر الملحق رقم (١) ولب أسماء جميع سلاطين الخوارزمية
(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١٢ ص ٣٦١

العباسي ويدعى شهاب الدين السهروردي الذي عرض عليه الصلح لكنه لم يتمكن من ثنيه عن المسير إلى بغداد[1]. تابع الجيش سيره من همذان إلى بغداد، وعندما وصل إلى أسد آباد تعرض لعواصف ثلجية شديدة أدت إلى تشتت شمل الجيش الخوارزمي، وهلاك الكثير من الجند والعتاد، ولم يرجع منه إلى خوارزم إلا العدد القليل. وكانت هذه الهزيمة على يد الطبيعة، دافعاً إلى ذيوع الاعتقاد لدى أنصار العباسيين، أن ما حدث هو غضب من الله انجرّ للسلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه على الخلافة العباسية، ومحاولته إزالة بيت بني العباس المؤيد من السماء[2]. ومما لا يرد أن الصراع بين القوتين الإسلاميتين الخوارزمية والعباسية، سهل الأمر أمام المغول للقضاء عليهما وإزالتهما من الوجود الأولى ثم الثانية. ورغم قوة المغول، فإن جنكيزخان استغل تأييد الخليفة العباسي له في مواجهة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، كما عمد إلى الحصول على ذريعة تمكنه من الزحف على الدولة الخوارزمية. وقد سنحت له الفرصة عندما أرسل وفداً مغولياً يرافقه أربعمائة وخمسين من تجار المسلمين أتباع المغول، في خمسمائة من الإبل تحمل أصنافاً كثيرة من مختلف أنواع التجارة. وعندما وصلت القافلة إلى مدينة أترار على الساحل الغربي لنهر سيحون، وكان يحكمها إينال خان، الملقب بغايرخان الذي اتصل بابن عمه السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، ثم عمد إلى قتل جميع أفراد القافلة ومصادرة أموالهم وأمتعتهم. ولم ينج سوى شخص واحد حمل نبأ المذبحة إلى جنكيزخان الذي أوفد إلى السلطان الخوارزمي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م، سفارة مؤلفة من ثلاثة رجال من المسلمين، مطالباً بتسليم ينال خان[3] فرفض السلطان هذا الطلب، وأمر بقتل رجال الوفد أو على الأقل واحد منهم، مما يعني إعلان الحرب.

وفي ظل هذه الظروف دخل جنكيزخان تركستان الشرقية، وجهز جيشاً

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤١٩.

(3) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٨٦-٨٧. الجويني، تاريخ جهانكشاي، جـ ١، ص ٦١.

ضخمة تتراوح بين ١٥٠ ـ ٢٠٠ ألف رجل تواجهه السلطنة الخوارزمية التي حشدت ٤٠٠ ألف رجل. وبرغم تفوق قوات السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه في العدد إلا أنه لم يعرف الإفادة من هذه القوة البشرية التي حشدت له، بسبب العوامل التي أشرنا إليها وخاصة العلاقات المتأزمة بين قادة جيشه، وتوزيع هذا الجيش الكبير على مختلف أرجاء السلطنة، حيث حشد عشرين ألفاً في بخارى وخمسين ألفاً في سمرقند. وهكذا لم يجد المغول صعوبة في غزو مدينة أترار، والانتقام من حاكمها اينال بطريقة وحشية، ثم في الاستيلاء على بخارى سنة ٦١٧/ ١٠ شباط ١٢٢٠، واستباحة المدينة وقتل الأسرى وإساءة معاملة السكان.[1] وفي شهر آذار غزا المغول مدينة سمرقند ونكلوا بأهلها[2] وفي الشهر التالي (نيسان) استولوا على جند ثم ترمذ. وفي شوال من هذه السنة توفي السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه فخلفه ابنه جلال الدين منكبرتي[3].

تابع المغول زحفهم فسقطت جرجانية عاصمة خوارزم بعد حصار أربعة أشهر[4]. ثم سقطت مرو عاصمة خراسان وكانت مقراً لسلاطين السلاجقة، كما سقطت نيسابور سنة ٦١٨/ نيسان ١١٢١، وكان جلال الدين قد التجأ إليها فغادرها إلى غزنة بعد أن أفلت من مطاردة المغول الذين ما لبثوا أن دخلوا غزنة فتراجع إلى نهر السند فعبره مع أربعة آلاف من رجاله. ومع ذلك أظهر جلال الدين من البطولة والإقدام وهو يتراجع ما أعجب جنكيزخان نفسه. وسقطت مراغة وأردبيل وتبريز سنة ٦١٩/ ١٢٢٢، ونهب المغول الري وساوه وقم وقاشان وهمذان سنة ٦٢١/ ١٢٢٤. ثم عاد جنكيزخان إلى منغوليا سنة ٦٢٢/ ١٢٢٥، بعد أن أخضع خوارزم وما وراء النهر دون أن يجد ما يغريه بعبور نهر السند ومتابعة مطاردة جلال الدين خوارزمشاه.

توفي جنكيزخان في نواحي تنكفوت، في سنة ٦٢٤/ ١٢٢٧، في الوقت

---

(١) الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ١ ص ٨٠، ٨١. ابن عربشاه، فاكهة الخلفاء، ص ٣٦
(٢) الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ١ ص ٩٤، ٩٦.
(٣) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١٢٠.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٢١

الذي كان قد توجه إليه من هناك إلى ولاية تنكيا. وقد أحضر نعشه إلى «كلوران» موطنه الأصلي وقد ظل عرش المغول خالياً قرابة سنتين بعد وفاته[1]. ذلك أنه حسب تقاليد المغول ورسومهم، يقوم الابن الأصغر مقام أبيه ويتعهد مقامه ودياره، وكان تولوي خلال أصغر هؤلاء وقد لقب في عهد أبيه بلقب «الغ نويان» أي الأمير الأول[2] ولكن الأمراء خشوا إذا طال الحكم دون وجود الخان الأعظم، أن تحدث فتنة، فاتجهوا نحو الموطن الأصلي حيث المعسكر الكبير، واجتمع مجلس الشورى المغولي «قوريلتاي»، ونفذوا وصية جنكيزخان المخالفة للعرف والقاضية بإسناد العرش إلى ابنه الثالث أوكتاي[3] وقد تردد أوكتاي في القبول أول الأمر، ثم امتثل لوصية والده، وأعلن قبوله العرش، متعهداً بأن يعمل بمشورة أعمامه وإخوته.

٣ ـ أوكتاي والقضاء على السلطنة الخوارزمية (٦٢٧ ـ ٦٣٩/١٢٢٩ ـ ١٢٤١).

تابع المغول زحفهم في عهد أوكتاي خليفة جنكيزخان، وكان السلطان جلال الدين منكبرني خوارزمشاه قد تمكن من استعادة الجانب الغربي من سلطنته بعد أن سيطر على عرب إيران وكرمان وفارس والعراق العجمي، كما استعاد آذربيجان مع عاصمته تبريز، ثم جورجيا وعاصمتها تفليس سنة ٦٢٣/١٢٢٦ لكن جلال الدين، رغم فروسيته وشجاعته كان يفتقر إلى الروح السياسية والنظام المتين لتدعيم سلطنته، ولم يعرف الاستفادة من القوى الموجودة في الشرق الإسلامي لتوحيدها ضد المغول. بل بالعكس فقد شعرت هذه القوى وخاصة بغداد مقر الخلافة العباسية بتهديده لها فتخلى الأمراء المسلمون عن مساعدته، وأقاموا حلفاً ضده ليشمل أمراء الموصل وبلاد ما بين النهرين، ثم انضم إليهم علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، فأوقعوا

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان)، ص ١٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٦ و ٢٠.

الهزيمة به. ورغم قيام الصلح بينهم[1] إلا أن هؤلاء لم يقفوا صفاً واحداً تجاه الخطر المغولي الذي يهددهم جميعاً، لذلك حلّت الهزائم بجلال الدين على يد المغول الذين أزالوا السلطنة الخوارزمية، وقتل السلطان على يد بعض الأكراد سنة ٦٢٩/١٢٣١، وذلك عندما احتمى بجبال كردستان[2].

والحقيقة أن انقسام الأمراء المسلمين، سهل الطريق أمام المغول للانفراد بالسلطان جلال الدين منكبرتي، كما أن هذا السلطان كان يسيطر وحده على سلطنة واسعة بعد أن مهد له الأمر والده السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي قضى على جميع الملوك والأمراء داخل هذه السلطنة[3]. فلما قتل السلطان جلال الدين منكبرتي سنة ٦٢٩/١٢٣١، دخل جماعة على الأشرف موسى الأيوبي يهنئونه بقتل عدوه الخوارزمي، فقال عبارته الشهيرة: «تهنئوني به وتفرحون؟ سوف ترون غبّه، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج»[4].

وقد تحققت نبوءة الأشرف موسى، مع تحرك حملة هولاكو سنة ٦٥٤/١٢٥٦ للقضاء على الإسماعيلية ودخول بغداد والمشرق العربي الإسلامي.

وفي عهد أوكتاي أيضاً، تمكن المغول بقيادة باتو بن جوجي يعاونه سوبوتاي من غزو روسيا وإحراق مدينة موسكو، كما غزوا نوفجورود ودمروا عاصمتها كييف سنة ٦٣٨/١٢٤٠ ثم زحفوا نحو بولندا وألمانيا، ووصلوا حتى مدينة برلين ناشرين الرعب والخراب والدمار[5]. كما دخلوا بست عاصمة المجر وتقدموا نحو فينا. ولو تُرك الغرب الأوروبي ومعه العالم المسيحي لا

---

(1) النسوي، سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٢٢١.
(2) المصدر نفسه، ص ٣٨٦، ٣٨٣.
(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٩ ص ٣٣.
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٦ ص ٢٦٧.
(5) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٤١٨.

يتم فريسة الغزو المغولي، لولا وفاة أوكتاي في ٥ جمادي الثانية ٦٣٩/ ١٢٤١، واستدعاء باتو وسرداي لحضور القوريلتاي من أجل انتخاب الخان الجديد.

٤ ـ إغارة المغول على نواحي بغداد (٦٣٩ ـ ٦٤٢/ ١٢٤١ ـ ١٢٤٤):

بعد وفاة أوكتاي، قامت زوجته الكبرى «توراكنه خاتون»[1] بمباشرة مهام الحكم إلى أن يتم انتخاب الخان الجديد طبقاً لرسوم المغول وعاداتهم. وقد استمرت هذه الفترة حوالى أربع سنوات (٦٣٩ ـ ٦٤٣/ ١٢٤١ ـ ١٢٤٥). فاستعانت توراكنه بالحاجبة فاطمة التي أحضرها المغول من مشهد طوس عندما استولوا على خراسان[2]. وأهم ما يميز هذه الفترة، هو إغارة المغول على نواحي بغداد. وقد حاصروا أربيل، واستولوا عليها عنوة، فتحصن أهل المدينة بالقلعة، حيث هلك الكثيرون وأحرقت الجثث لتعذر دفنها. وهكذا خرب المغول المدينة، ثم ولوا هاربين عندما تحرك الخليفة العباسي المستنصر بالله، وأرسل ثلاثة آلاف فارس تحت امرة شمس الدين أرسلان تكين. كما أمر الخليفة بعدم الذهاب إلى الحج في تلك السنة، بعد أن استفتى الفقهاء حول خطر المغول قائلاً: «أيهما أفضل الحج أم الجهاد؟»، فأفتى الجميع أن الجهاد أفضل في هذه الظروف.

وهكذا بدأ الاستعداد داخل بغداد لمواجهة المغول، فأمر الخليفة بتعمير خندق بغداد وسورها، ووضع المجانيق على الأبراج. كما أخذ العلماء والفقهاء وعامة الناس يتدربون على استعمال السلاح ورمي السهام. وعندما عاود المغول الهجوم على أربيل وحاصروها، زحفوا على منطقة دقوق وأعمال بغداد، وأعملوا فيها القتل والنهب وأخذوا السبايا. فعزم الخليفة العباسي على المسير بنفسه لمحاربتهم، بينما حث الأمراء والقادة على الجهاد، فخرجوا لمحاربة المغول حيث استردوا منهم أسرى أربيل ودقوق.

---

(1) رشيد الدين، جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان)، ص ١٧٢.
(2) المصدر نفسه، ص ١٧٦.

وما لبث الخليفة المستنصر بالله أن توفي في ١٠ جمادى الثانية ٦٤٠/١٢٤٢، فخلفه ابنه المستعصم بالله[1]. وفي سنة ٦٤٢/١٢٤٤، استولى المغول على حران، الرها، ماردين[2].

٥ ـ كيوك خان (٦٤٣ ـ ٦٤٧/١٢٤٥ ـ ١٢٤٩):

يمكن اعتبار فترة الأربع سنوات التي سيطرت فيها توراكينا خاتون بمثابة فترة انتقالية، مهدت بها لأن يتولى ابنها كيوك عرش المغول. ففي ربيع الثاني ٦٤٣/١٢٤٥، انعقد مجلس الشورى «قوريلتاي» ونصب كيوك، بعد أن اشترط لقبوله المنصب أن تبقى الخانية في ذريته من بعده[3].

وقد استقبل كيوك رسول الخليفة العباسي، وعامله معاملة حسنة، ولكنه سلمه رسالة فيها التهديد والوعيد. كما استقبل وفد الإسماعيلية ورد على رئيس الوفد رداً جافاً ثم صرفه ذليلاً مهاناً.

وفي عهد كيوك، ارتفع شأن المسيحيين، وذلك بتأثير من أمه ومن وزيريه قداق وجينقاي اللذين يدينون جميعاً بالمسيحية.

توفي كيوك في ٩ ربيع الثاني ٦٤٧/١٢٤٩ وهو في طريقه إلى سمرقند، وكانت أمه قد توفيت قبله بعدة أشهر[4].

٦ ـ هولاكو والمشرق العربي الإسلامي (٦٥٢ ـ ٦٥٨/١٢٥٤ ـ ١٢٦٠):

بعد وفاة كيوك، تطرق الخلل مرة أخرى إلى شؤون المملكة، حاولت زوجته الكبرى أوغول غيمش أن تدير مصالح البلاد مع أركان الدولة، وحصر عرش المغول بسلالة كيوك تنفيذاً للعهد الذي قطعه الأمراء على أنفسهم عند توليه. لكن أغلب الأمراء ومنهم سرقويتي بيكي زوجة تولوي اتفقوا على تعيين

---

(1) رشيد الدين. جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان)، ص ١٩١، ١٩٢.
(2) المصدر نفسه، ص ١٩٣.
(3) المصدر نفسه، ص ١٨٢.
(4) الجويني: تاريخ جهانكشاي جـ١ ص ٢١٣. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥٢

إمبراطورية المغول من الصين شرقاً إلى المشرق العربي الإسلامي وشرق أوروبا غرباً.

ابنها مونكو بن تولوي. وقد أثبتت سرقويتي بيكي من كفاءة وكياسة في التمهيد لتولي ابنها عرش المغول. وقد تم له ذلك في القوريلتاي الذي عقد في منطقة قراقورم في ذي الحجة ٦٤٨/نيسان ١٢٥٠[1]، وأول سنة ٦٤٩/١٢٥١[2]، وهي السنة التي توفيت فيها أمه سرقويتي[3]. واستمر مونكو في الحكم حتى وفاته في محرم ٦٥٥/١٢٥٧[4].

وبذلك انتقل عرش المغول من أسرة أوكتاي وكيوك إلى أسرة تولوي، لينولاه ثلاثة من أبنائه هم مونكو (٦٤٨ ـ ٦٥٥/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧)، أريق بوكا (٦٥٥ ـ ٦٦٢/ ١٢٥٧ ـ ١٢٦٣)، قوبيلاي (٦٦٢ ـ ٦٩٣/ ١٢٦٣ ـ ١٢٩٤). وفي عهد هؤلاء الثلاثة عرف المشرق العربي الإسلامي أحداثاً خطيرة لم يشهد مثيلاً لها من قبل. فقد عين مونكو أخاه الأصغر هولاكو[5] نائباً عنه في حكم فارس، ووضع له خطة مثلثة تهدف للقضاء على الإسماعيلية في فارس، والخلافة العباسية في بغداد، وإخضاع دولة المماليك في مصر والشام. ثم أوصاه بالعودة إلى مقره الأصلي قراقورم بعد إنجاز مهمته. لكن ما حدث بعد الاستيلاء على إيران هو تأسيس إيلخانية فارس ليحكمها هولاكو وأولاده من بعده. فأوشكت هذه الإيلخانية على التحول إلى إمبراطورية بعد القضاء على الإسماعيلية، ودخول بغداد، ثم دمشق، ولولا تصدي المماليك لها في عين جالوت لانفتحت أمامها أبواب مصر والمغرب العربي الإسلامي

أ ـ القضاء على الإسماعيلية في بلاد فارس
(٦٥٤ ـ ٦٥٥/١٢٥٦ ـ ١٢٥٧):

بعد انهيار السلطنة الخوارزمية، تحول حكام إيران إلى أتباع للمغول[6].

---

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ أبناء جنكيز خان)، ص ٢٠١.
(2) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٦١.
(3) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان)، ص ٢٩٨.
(4) المصدر نفسه، ص ٢٦٥
(5) المزيد من المعلومات حول هولاكو: رشيد الدين: جامع التواريخ تاريخ المغول م ٢ جـ ١ (تاريخ هولاكو خان).
(6) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول ـ هولاكو) م ٢ جـ ١ ص ٢٤٠

وأدرك هولاكو: ضرورة القضاء على طائفة الإسماعيلية قضاء مبرماً، وتأمين الظهير الخلفي لجيشه، قبل التوجه نحو بغداد والسيطرة على العالم العربي الإسلامي. وكانت طائفة الإسماعيلية موزعة على حوالي خمسين قلعة حصينة في جبال قوهس وقهستان وخراسان وروذبار آلموت التي يفصلها ستة فراسخ عن بحر قزوين، واتخذت قلعة ألموت عاصمة لها. وكانت هذه القلعة الحصينة تقع على قمة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المجانيق عليها ولا النشاب يبلغها[1]. وكان ركن الدين خورشاه قد تولى زعامة الإسماعيلية بعد مقتل أبيه علاء الدين محمد في شوال ٦٥٣/ ١٢٥٥.

وفي غرة ذي الحجة ٦٥٣/ ٢ كانون الثاني ١٢٥٦، عبر هولاكو بجيشه نهر جيحون، وبدأت الحرب المغولية ضد قلاع الإسماعيلية التي أخذت تسقط الواحدة بعد الأخرى، في حين امتنعت قلعتا ألموت وميمون دز، فطال حصار المغول لهاتين القلعتين. لكن ركن الدين خورشاه، ما لبث أن نزل من قلعة ميمون دز التي كان يقيم فيها، واستسلم لهولاكو في غرة ذي القعدة ٦٥٤/ ١٢٥٦، في حين استمرت قلعة ألموت في المقاومة حتى سقطت بدورها في محرم ٦٥٥/ ١٢٥٧[2]. وتعرضت للتخريب والتدمير. وبذلك تم قتل الآلاف من الإسماعيلية، ومعهم آخر زعمائهم ركن الدين خورشاه رغم عهد الأمان الذي أعطاه إياه هولاكو، فقد تعرض للقتل مع جميع أفراد أسرته وأقاربه حتى النساء والأطفال. ولم ينج من الإسماعيلية إلا قلة منهم اعتصمت بجبال فارس.

وهكذا تم القضاء على طائفة الإسماعيلية في بلاد فارس، بعد أن ألقت الرعب في نفوس الخلفاء والسلاطين عن طريق فرقة الفداوية[3] (الحشاشين)، بينما استمرت هذه الطائفة في جبال البهرة شمال بلاد الشام، حتى قضى عليها المماليك سنة ٦٧١/ ١٢٧٣.

---

(1) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٠٠.

(2) D'ohsson: Histoire des Mongols T3 p 192. Grousset: L'Empire des Steppe p 421.

(3) الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ ٣ ص ٢٧٨.

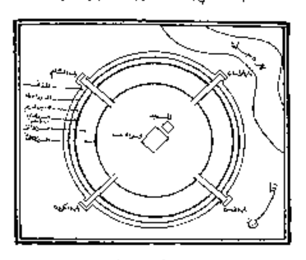
ب ـ سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية (الأربعاء ٧ صفر ٦٥٦هـ/ ١٣ شباط ١٢٥٨م):

تابع هولاكو زحفه لدخول بغداد، تحقيقاً لهدفه الثاني الرامي إلى القضاء على الخلافة العباسية التي كان يتولاها المستعصم بالله (٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م). وفي هذه الأثناء ظهر بوضوح مدى الضعف والتفسخ الذي آلت إليه هذه الخلافة التي لا يتجاوز نفوذها الفعلي إقليم العراق وخوزستان إذ لم يكن للعاصمة بغداد وحدها. كما ظهرت نتيجة عدم اعتماد العباسيين على العنصر العربي في بناء القوة العسكرية الكفيلة بحماية الخلافة.

كان المستعصم بالله ضعيفاً، قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، رغم تدينه وتمسكه بمذهب أهل السنة والجماعة[1]، وكان يعتقد أن مصير المغول هو الزوال على غرار السلاجقة والخوارزميين قبلهم، وأن الخلافة العباسية مستمرة إلى يوم القيامة[2]. بينما كان يتوجب عليه الخروج للقاء المغول عند تخوم خراسان، قبل أن يغزوه في عقر داره. لكنه اعتمد ولهياً على القوة المعنوية التي تتمتع بها الخلافة العباسية داخل بغداد، لذلك كان يقول: «أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون علي وأنا بها، وهي بيتي ودار مقامي»[3] وغاب عن باله الضيقة أن بغداد تعيش أيامها الأخيرة. فقد تعرضت لسيل عظيم أغرقها بالماء في صيف ٦٥٤هـ/١٢٥٦م[4]، كما استمرت الفتن المذهبية التي عرفتها بين السنة والشيعة على مجاري عاداتهم، وكان آخرها سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، حيث تعرض الكرخ ومشهد الإمام موسى الكاظم، للتخريب والنهب على يد أبي بكر ابن الخليفة المستعصم، فازداد كره سكان الكرخ والمحلة، وهم من الشيعة، للخليفة السني، مما دفع بعضهم وفي مقدمتهم الوزير الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي للاتصال سراً بالمغول، والتعاون مع هولاكو للدخول بغداد والقضاء على

(١) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، جـ١ ص ٤٦٦.
(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول ـ هولاكو) م ٢ جـ١ ص ٢٧٥.
(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥٤.
(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول ـ هولاكو)، م ٢، جـ١ ص ٢٦٢.

الخلافة العباسية، طمعاً في إقامة خلافة شيعية تحت سيطرة المغول.



خارطة بغداد داخل الأسوار الثلاثة والأبواب الأربعة

وفي رمضان ٦٥٥/ ١٢٥٧، بعث هولاكو رسولاً يحمل رسالة إلى الخليفة المستعصم، يطالب فيها بالسلطة الزمنية التي سبق ومنحها الخلفاء العباسيون للملوك البويهيين ثم السلاطين السلاجقة، مقابل الإبقاء على ولايته وجيشه ورعيته. ومما جاء في الرسالة[1]:

«لا بد أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيز خان، وعلمت أية مذلة لحقت بأمر

---

[1] نص رسالة هولاكو في الملحق رقم ١ نقلاً عن رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول - هولاكو) م ٢ ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد في وجه أية طائفة، من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة. فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان... فإذا أطعت أمرنا، فلا حقد ولا ضغينة، ويبقى لك ولايتك وجيشك ورعيتك... واعلم أنني إذا غضبت عليك، وقدت الجيش إلى بغداد، فسوف لا تنجو مني، ولو صعدت إلى السماء، أو اختفيت في باطن الأرض...».

أيقن الخليفة العباسي المستعصم، ولو متأخراً، أن هدف هولاكو لم يكن الحصول على السلطة الزمنية في ظل السلطة الروحية للخلافة العباسية، لأن المغول الوثنيين لا يؤمنون أصلاً بالخلافة، والهدف الحقيقي هو القضاء على هذه الخلافة. لذلك لجأ الخليفة بدوره إلى التهديد والوعيد، أملاً في ثنيه عن دخول بغداد، رغم أن الجيش العباسي كان لا يتعدى العشرين ألفاً، لكنه اعتقد أن جميع الأمراء وخاصة الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر، سيقفون إلى جانبه مما يوفر له حشد جيش من مائة وعشرين ألفاً. وهذا ما جعله يرد على رسالة هولاكو التي تحمل التهديد والوعيد برسالة مماثلة إن لم تفوقها تهديداً ووعيداً، ومما جاء فيها[1]:

«أيها الشاب الحدث! الذي لم يخبر الأيام بعد... فخيل نفسه مسيطراً على العالم، وحسب أن أمره قضاء مبرم، وأمر محكم. لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي؟ ـ ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتنقون الأديان، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي؟... إنني عندما أشير بجمع الشتات، سأبدأ بحسم إيران، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه... غير أني لا أود الحقد والخصام... فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان. وإن كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر، لأن لي ألوفاً مؤلفة من

---

(١) نص رسالة الخليفة المستعصم في الملحق رقم ٦، نقلاً عن رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول ـ هولاكو) م ٢ جـ ١ ص ٢٩٠

الفرسان والرجال هم على أهبة الاستعداد للقتال.

على أثر الموقف العباسي اضطر هولاكو إلى بعث الإنذار النهائي مع رسل الخليفة العباسي[1]، ثم أمر الجيش المغولي بالتحرك من عدة أماكن، لتتوجه نحو بغداد. فاتجه هولاكو من همذان إلى دجلة عن طريق كرمنشاه وحلوان، واتجه أشهر قواده كتبغا عن طريق لورستان وخوزستان.

لم يكتف هولاكو بحشد جيش كبير يتألف من مائتي ألف واتخاذ معسكره في ظاهر بغداد لجهة الشرق، بل تمكن من استمالة بعض الأمراء الأيوبيين وفي مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، كما أفاد من الانقسام المذهبي داخل بغداد، وخاصة داخل مقر الخلافة، حيث اشتد الصراع بين الدوادار الصغير مجاهد الدين أيبك «السني» يؤيده سليمان شاه بن برجم الأيواني الذي ارتأى مواجهة المغول وقتالهم، وبين الوزير مؤيد الدين بن العلقمي «الشيعي» الذي اتصل سراً بالمغول وكان يحث على الاستسلام[2] وفتح أبواب بغداد، على غرار ما حدث مع الأيوبيين والسلاجقة.

والحقيقة أن هدف المغول كان مغايراً تماماً لهدف الأيوبيين والسلاجقة، وما تذرع به هولاكو في رسالته إلى الخليفة العباسي من طلب السلطة والنفوذ على غرار هؤلاء الذين سبقوه، ما هو إلا من باب الخداع والحيلة، لأن هدف المغول هو القضاء على الخلافة العباسية التي لا تمثل شيئاً بالنسبة لدينهم وعاداتهم وتقاليدهم.

كانت المواجهة بين المغول والعباسيين غير متكافئة، لذلك حلت الهزيمة بجيش بغداد، ولقي اثنا عشر ألفاً مصرعهم في ساحة القتال، بينما لاذ الباقون بالفرار وفي مقدمتهم مجاهد الدين أيبك وسليمان شاه. وفي يوم الثلاثاء ٢٢ محرم ٦٥٦/١٢٥٨ أحكم هولاكو الحصار حول بغداد، مطالباً بخروج مجاهد الدين أيبك وسليمان شاه مع أتباعهما بحجة نفيهم إلى مصر والشام، فاضطر

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول- هولاكو) م ٢ جـ ١ ص ٢٨٦.
(٢) الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ ٣ ص ٤٦١.

بالاثنين للإذعان لأمر الخليفة الذي وجد نفسه مضطراً لتنفيذ طلب هولاكو. ولما خرجا سار وراءهما سبعمائة شخص من الأقارب والأتباع، وقد تم قتلهم جميعاً في ٤ صفر ٦٥٦/ ٨ شباط ١٢٥٨. وأرسلت رؤوس سليمان شاه والدواتدار الصغير وتاج الدين بن الدوادار الكبير إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليعلقها على أسوار مدينته[1]. وتمكن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي، من إقناع الخليفة العباسي بالخروج من بغداد للقاء هولاكو الذي وعد بالأمان.

وفي يوم الأحد ٤ صفر ٦٥٦/ ١٠ شباط ١٢٥٨، خرج الخليفة المستعصم من بغداد ومعه ألف وثلاثمائة شخص من علماء ووجهاء العاصمة، فلما وصلوا إلى معسكر هولاكو، ألقي القبض عليهم، ثم قتلوا عن آخرهم[2]، باستثناء الخليفة. وقيل إن الخليفة خرج من بغداد ومعه أبناؤه الثلاثة، فلاطفه هولاكو[3] وطلب إليه أن ينادي أهل بغداد بإلقاء السلاح والخروج لإحصائهم، وكان القتل من نصيب الذين خرجوا، بينما استبقى الخليفة وأولاده.

ويوم الأربعاء ٧ صفر ٦٥٦/ ١٣ شباط ١٢٥٨، اقتحم المغول مدينة بغداد من الشرق والغرب، واستبيحت أربعين يوماً، حيث خربت المساجد للحصول على قبابها الذهبية، ومنها مشهد الإمام موسى الكاظم، وقبور الخلفاء في الرصافة، كما هدمت القصور. وارتكبت المذابح الجماعية حتى بلغ عدد الضحايا ثمانين ألفاً[4]، ولم ينج إلا من اختفى في بئر أو قناة أو مغارة ومع ذلك تعرض هؤلاء للوباء الشديد بعد خروجهم، فمات معظمهم[5].

وتختلف الروايات حول مقتل الخليفة المستعصم، فقيل أن هولاكو أمر بخنقه، وقيل غرق في نهر دجلة، كما قيل وهو الأرجح أنه أمر بوضعه في

---

(١) رشيد الدين (تاريخ المغول - هولاكو) م ٢ جـ ١ ص ٢٩٠.
(٢) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص ١٢٣، ٤٩٨.
(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ... جـ ١ ص ١٩٦. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٦.
(٤) الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ١٦٢.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٢٠٢.

جوالق (عدل أو غرارة) ليداس بأرجل الخيل، حيث تم دفنه في مكان مجهول، وذلك جرياً على عادة المغول[1]. ولكن مما لا شك فيه أن الخليفة المستعصم لقي مصرعه يوم الأربعاء ١٤ صفر ٦٥٦/ ٢٠ شباط ١٢٥٨[2]، بعد أن دلّ هولاكو على ما اجتمع من كنوز العباسيين طيلة أكثر من خمسة قرون[3] (١٣٢ ـ ٦٥٦/ ٧٥٠ ـ ١٢٥٨)، وقد تكدست في شكل تلال حول خيمة الخان ومعظمها من سبائك الذهب، وكل منها تزن مئة مثقال، فضلاً عن الجواهر والمعادن الثمينة.

على هذا الأساس لا يمكن نكران مسؤولية الخليفة العباسي، وتحديداً المستعصم، في الحفاظ على الخلافة العباسية في بغداد. فقد كان يتوجب عليه إخراج الكنوز وتوزيعها على جنوده بعد جمع شمل الأمراء المسلمين، والإسراع إلى شاطئ نهر جيحون ليحول دون عبور هولاكو. كما لا يمكن نكران دور الوزير الشيعي ابن العلقمي الذي أعماه التعصب المذهبي، فخان الخليفة وهو من أهل دينه رغم الخلاف في المذهب، ووقف إلى جانب الوثني الكافر طمعاً في نصرة الشيعة، وإذا بالمسلمين سنة وشيعة على السواء يتعرضون على يد المغول، لأبشع صفحة مأساوية في تاريخهم[4]. كما أن الوزير ابن العلقمي نفسه لم يلق من المغول سوى الازدراء والذل والهوان على جري عادتهم في معاملتهم للخونة. ورغم اختياره لحكم بغداد تحت إشراف المغول[5]، إلا أن ابن العلقمي شعر بالندم الشديد، فمات مريضاً في جمادى الأولى ٦٥٦/ ١٢٥٨ وهي السنة التي سقطت فيها بغداد[6]. ويطالع

---

(1) الجوزجاني: طبقات ناصري، ص ١٨٠. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٣٢٧. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٣ ص ٢٠٢.
(2) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٦٩ ـ ٢٧٢. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٣ ص ١٩٣، ١٩١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ٤٩، ٥٠.
(3) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول ـ هولاكو) م ٢، جـ ١ ص ٢٩٢.
(4) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ١٩٦.
(5) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٤٢.
(6) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣.

المؤرخون الشيعة عن ابن العلقمي وإنه ظل وفياً للمستعصم[1].

ومع ذلك فإن حتمية التاريخ كانت تسير بالدولة العباسية نحو نهايتها المأسوية، ومهما كان موقف المستعصم أو وزيره فإنه لن يغير النهاية. لكن الموقف البطولي الذي لم يتخذه أحدهما، قد يؤخر هذه النهاية بعض الوقت: ولكان أشرف حتى لكل منهما حالة بين الاستشهاد وتقدير واحترام من الغزاة المغول، على غرار تقدير جنكيزخان ثم ابنه أوكتاي للسلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي الذي أبدى من ضروب البطولة والشجاعة، ما جعله يحظى بإعجاب المؤرخين أيضاً، رغم النهاية الحتمية للدولة الخوارزمية، هذه النهاية التي فرضها المغول أيضاً، وكانت نهايتها بعد سنتين فقط على سقوط بغداد، عندما حلت بهم الهزيمة على يد المماليك في عين جالوت ٦٥٨/ ١٢٦٠.

وبسقوط بغداد، اتضحت أيضاً الصورة المخزية لبعض الأمراء والسلاطين المسلمين الذين هرعوا إلى معسكر هولاكو وفي مقدمهم أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ الأيوبي، والسلطان السلجوقي عز الدين كيكاوس الثاني[2].

ابتهج المسيحيون في مختلف أنحاء أسيا، لهذه الكارثة المروعة معتبرين هولاكو وزوجته المسيحية طقزخاتون مثل أنهما قسطنطين وهيلانة[3]، في حين اهتز المسلمون في مختلف أنحاء العالم الاسلامي بصورة عامة، وفي المشرق العربي الإسلامي بصورة خاصة، حيث خيّل لهم أن الساعة آتية سريعاً بعد القضاء على الخلافة العباسية، التي بقيت رغم انهيارها وزوالها محتفظة بمركز السلطان الروحي[4]. كذلك أصيبت الوحدة السياسية للمسلمين بضربة قاصمة، وبدأ التنافس بين الزعامات الإسلامية حول مركز الخلافة الشاغر[5]، رغم أن الخلافة العباسية ومعها الخلافة العربية الإسلامية قد انتهت إلى الأبد مع سقوط

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول - هولاكو) م ٢ جـ ١ ص ٢٩٢، ٢٩٣.
ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٩٥.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول، هولاكو) م ٢، جـ ١ ص ٣٠١.

(٣) Grousset: L'Empire des Steppes p. 430, 431.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٣٠٩.

(٥) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٥٢٩، ٥٣٢.

ببغداد سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨. وما حدث بعد ذلك هو إقامة دول يحكمها سلاطين غير عرب من المماليك ثم العثمانيين.

وبسقوط بغداد، تأسست الإيلخانية فارس ليحكمها هولاكو وأبناؤه من بعده، بعد أن اختار مدينة مراغة في أذربيجان عاصمة له، ووضع الأموال والكنوز التي حصل عليها من بغداد وقلاع الإسماعيلية في قصر حصين داخل جزائر بحيرة أورمية. وأصبحت بغداد تابعة لهذه الإيلخانية التي ساهمت في فصل منطقة شرق دجلة التي اتسمت فيها معالم الحضارة الفارسية، عن منطقة غرب دجلة حيث استمرت الدفة الباقية من الثقافة العربية. وتمسك الفرس بلغتهم، بينما اقتصرت اللغة العربية على البحوث الدينية والفلسفية، حتى ندرت الكتب العربية الموضوعة في إيران في نهاية القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد. فتكرست بذلك الفرقة بين اللغتين الفارسية والعربية، وحافظت إيران على قوميتها تحت راية الإسلام دون أن تذوب في العروبة لغة القرآن الكريم.

تعرضت الثقافة العربية لخسارة فادحة مع سقوط بغداد، واحتراق ألوف الكتب والمخطوطات أو إغراقها في دجلة، إضافة إلى قتل العلماء والأدباء والصناع، وهاجر من نجا منهم إلى القاهرة التي تحولت إلى مركز جديد للعروبة والإسلام[١]، وتمكنت تحت قيادة المماليك من قهر المغول وإنقاذ المشرق العربي الإسلامي.

جـ - غزو الشام وسقوط ميافارقين وحلب(٦٥٧/ ١٢٥٩):

كان على المغول، أن يسلكوا الطريق الطبيعي، الذي مر به العرب تحت راية الإسلام. ذلك إن بلاد الشام تعتبر الطريق المؤدي إلى مصر، ومنها إلى ساحل شمال إفريقيا حتى المحيط الأطلسي. وكان يتوجب على الغزاة أن يحكموا قبضتهم على بلاد الشام بأسرها سواء في الداخل أو على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، حتى يسهل عليهم السيطرة على مصر. ومن يسيطر على بلاد الشام ومصر معاً دان له المشرق العربي الإسلامي بأسره، وانفتحت

---

(١) المقريزي: الخطط، جـ١ ص ٣٦١، ٣٦٥.

يمامه أبواب المغرب العربي، فالأندلس التي تعتبر بوابة غرب أوروبا.

كانت بلاد الشام منقسمة بين الأمراء الأيوبيين في الداخل والصليبيين في الساحل. فحكم الأيوبيون ميافارقين، حصن كيفا، الكرك، حلب، دمشق، حماة، حمص، وكان أبرزهم الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، والكامل محمد صاحب ميافارقين. وقد حاول الناصر يوسف أن يأمن جانب المغول، فأرسل ابنه العزيز محمد إلى هولاكو على أثر سقوط بغداد سنة ٦٥٦/١٢٥٨ يطلب مساعدته لاسترداد مصر من المماليك[1]. لكن هولاكو طلب منه الخضوع له دون قيد أو شرط، مما جعله يتعرض لسخط الأمراء الآخرين بسبب تقربه من المغول. لذلك عاد الناصر ورد على طلب هولاكو برسالة كلها تهديد وسباب: مما يعني فشله في التعاون مع المغول لاسترداد مصر[2].

أما الصليبيون فتوزعوا في الساحل، حيث حكم بوهمند السادس إمارة انطاكية ـ طرابلس في الشمال. وكانت مملكة بيت المقدس في الجنوب، تضم صور وعكا دون أن تدخل فيها مدينة القدس. كما كان بوهمند السادس حليفاً وصهراً لهيثوم الأول ملك قيليقية (أرمينية الصغرى)، الذي تحالف مع هولاكو، وتقررت عملية غزو المغول لبلاد الشام في اجتماع عقد بينهما سنة ٦٥٧/١٢٥٩ مما أعطى الغزو صفة حملة مغولية ـ أرمنية. وحيث إن هيثوم الأول كان يتحدث أيضاً باسم صهره الصليبي بوهمند السادس، لذلك اتخذ الغزو أيضاً صفة حملة مغولية ـ أرمنية ـ صليبية. وكان الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، قد استمر إلى جانب المغول.

وفي رمضان ٦٥٧/أيلول ١٢٥٩، تحرك الجيش المغولي من أذربيجان قاصداً بلاد الشام. وكان القائد كتبغا يتولى مقدمة الجيش. وبايجو وسنقر يقودان الجناح الأيمن، بينما تولى سونجاق الجناح الأيسر. أما هولاكو فكان يقود القلب.

أبلى الملك الكامل محمد الأيوبي، صاحب ميافارقين، ضروباً من

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤١٠ ـ ٤١١.
(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٦ ـ ٤١٧.

ببطولة واستبسال في مواجهة الحصار، فخاطب أهل ميافارقين قائلاً: إنني لي أمنع الفضة والذهب والغلات التي توجد في المخازن، بل سأوثر بها المحتاجين. فلما مات محمد الذي مثل المستعصم حباً للدينار والدرهم، فإنه قد أسلم رأسه وماله بغداد إلى الهلاك، بسبب بخله وشحه[1]. وبذلك ظهر التلاحم بين الأمير وأهل ميافارقين، في وجه المغول والأرمن. مما أدى إلى إطالة حصار ميافارقين مدة عامين، تمكن المغول خلالها من الاستيلاء على نصيبين، حران، الرها، حتى بلغوا البيرة. ثم عبروا الفرات واستولوا على سروج[1]، واستباحوا منبج.

ولما طال أمد حصار ميافارقين، انتشر الوباء، ونفدت المؤونة والزاد، وهلك معظم السكان، فاضطر الملك الكامل محمد للاستسلام[2]. فقتله المغول وقطعوا رأسه وحملوه على رمح، وطافوا به في بلاد الشام حتى علق في شبكة على سور باب الفراديس بدمشق. وقيل أن الرأس بقي على هذه الحالة إلى أن عادت دمشق للمسلمين، فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس[4].

ثم تقدم هولاكو نحو حلب المعروفة بمناعتها وصمودها أمام البيزنطيين والصليبيين. فهرب الناصر يوسف، نحو دمشق تاركاً والي حلب الملك المعظم توران شاه يتولى وحده أمر الدفاع عن المدينة. وكان المؤرخ ابن العبري وهو رئيس أساقفة حلب، قد سارع إلى المغول وقدم طاعته لهولاكو.

شارك المغول والأرمن والصليبيون في حصار حلب، ونصبوا حولها عشرين منجنيقاً، إلى أن اضطرت للتسليم مع قلعتها في صفر ٦٥٨/ ٢٥ كانون الثاني ١٢٦٠. واستبيحت حلب سبعة أيام تعرضت خلالها للمذابح التي لم توفر

---

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول - هولاكو) م ٢ جـ ١ ص ٣١٩، ٣٢٠.
(2) أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٩٦؛
ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. جـ ٧ ص ٤٧.
(3) أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر، جـ ٣ ص ١٩٣، ١٩٤.
(4) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، جـ ٢ ص ٢٠٥، ٢٠٦.

جماعة من الأرثوذكس، لما حولت الكنيسة اليعقوبية ينصا بقية المسيحيين[1] وعمد هيثوم الأول ملك قيليقية إلى إحراق الجامع الكبير.

أما قلعة حارم قرب انطاكية، فرفضت الاستسلام إلا بوجود والي قلعة حلب ويدعى فخر الدين المعروف بالساقي، فطالب هولاكو بالقبول، واستدعى فخر الدين، وعندما سلمت أمر بقتله مع جميع من كان في القلعة حتى النساء والأطفال منهم.

و ـ سقوط دمشق أمام التحالف المغولي ـ الصليبي ـ الأرمني
(ربيع الأول ٦٥٨/ آذار ١٢٦٠).

بعد سقوط حماة والمعرة وحمص، تقدم المغول نحو دمشق، فانسحب الناصر يوسف منها على غرار ما فعله في حلب، وتوجه نحو غزة، تاركاً أمر الدفاع عن دمشق لوزيره نور الدين الحافظي الذي عرف ما حل بمدينة حلب فسلم المدينة في ربيع الأول ٦٥٨/ آذار ١٢٦٠[2] ودخلها المغول دون إراقة الدماء.

كان المؤرخ المعروف بأبي شامة، موجوداً في دمشق أثناء الحملة المغولية ـ الأرمنية ـ الصليبية، وقد وصف هذا الغزو[3]، عندما دخل القائد المغولي كتبغا إلى دمشق، وبصحبته بوهمند السادس أمير انطاكية، وهيثوم الأول ملك قيليقية (أرمينيا الصغرى). فشهد سكان دمشق لأول مرة، منذ الانتشار العربي الإسلامي قبل ستة قرون، ثلاثة أمراء مسيحيين يشقون بموكبهم شوارع المدينة.

امتنعت قلعة دمشق لبضعة أسابيع، فحاصرها المغول، ثم بهروها بعد

---

(1) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٠٠، ٢٠١، رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣ ص ٤٧٢، Grousset: L'Empire des Steppes p 436.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٦ ص ٢٩٤، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ص ٤١٤، ٤٢٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ٧٥.

(3) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٤.

اضطرار حاميتها للاستسلام في ربيع الثاني ٦٥٨/ ٦ نيسان ١٢٦٠[1].

كان كتبغا من نيالة مغولية اعتنقت المسيحية، وهذا ما جعله يضطهد مسلمي دمشق، ويشجع النصارى على الاستطالة عليهم، حتى حولوا أحد المساجد إلى كنيسة[2]، وتظاهروا بالخمر في رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات، كما صبوه على أبواب المساجد[3].

ثم استولى المغول على بعلبك وبانياس، وتابعوا زحفهم جنوباً حتى غزة. فاستسلمت حامية عجلون، وحررا حوران ونابلس وبذلك دخلت نهم مدن بلاد الشام التي انتزعت من الصليبيين أكثر من قرن ونصف القرن. وحتى مدينة صيدا، التي كانت تحت السيطرة الصليبية، فإنها لم تسلم من الدمار والتخريب وأسروا منها ثلاثمائة أسير. غير أن قوات المغول لم تصل إلى بيت المقدس بل اكتفت بالإحاطة بالصليبيين من جميع الجهات.

وبذلك تمكن المغول من القضاء على سيطرة الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام، ولم يبق من الوجود الأيوبي سوى الأشرف موسى الذي تآمر مع المغول، فكافأه هولاكو برد إمارة حمص التي أخذها منه الناصر يوسف سنة ٦٤٦/ ١٢٤٨[4]. وكان الناصر يوسف قد فر من غزة هائماً على وجهه إلى أن وقع في قبضة المغول عند بركة زيزاء من أعمال دمشق[5]، فحمل إلى هولاكو الذي عرف كيف يستغل الظروف عندما وجد في هذا الأمير الأيوبي الضعيف ضالته المنشودة، فوعده بإحياء السلطنة الأيوبية بعد أن يستولي على مصر[6]، شرط الاعتراف بسيادة المغول. وهذا الأمر يدل على مدى اطلاع هولاكو على سير الأحداث الجارية في بلاد الشام.

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٣ ص ٢٠٣
(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص ٤٢٥
(٣) الذهبي: دول الإسلام جـ٢ ص ١٦٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٨٠
(٤) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٩.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص ٤٢٣، ٤٢٩
(٥) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٤. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢ ص ٩٦٦
(٦) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول - هولاكو)، م ٢ جـ١ ص ٣٠٨

على هذا الأساس، تعرضت بلاد الشام لخطرين كبيرين، تقاسما النفوذ فيها، فسيطر الصليبيون على الساحل، بينما تمكن المغول من السيطرة على المناطق الداخلية. لذلك يعتبر سقوط المدن الكبرى الثلاث، بغداد وحلب ودمشق إلى جانب ساحل بلاد الشام، من الصدمات الكبرى التي هزت المشرق العربي الإسلامي.

القضاء على أسطورة المغول
(٦٥٨ ـ ٧٠٣/ ١٢٦٠ ـ ١٣٠٣)

مع سقوط السلطنة الخوارزمية ثم الخلافة العباسية في بغداد، تحول الغزو المغولي القائم على سياسة العنف والرعب إلى أسطورة سقطت سريعاً في عين جالوت.

١ ـ سياسة العنف والرعب (أسطورة المغول).

وجه جنكيز خان عنايته الخاصة للجيش، لإدراكه أهمية هذه المؤسسة العسكرية في إقامة الإمبراطورية التي سعى إليها. ويعرف أمير الجيش باسم «طايفو». وقد قسم الجيش إلى فرق كبيرة تعرف كل منها باسم «التومان» حيث تضم عشرة الآف جندي تحت إمرة قائد يقال له «أرنكشي»[1]. كما تقسم كل فرقة كبيرة من التومان إلى فرق أصغر منها بالتدريج على أساس نسبة العشر، فأصبح هناك قادة لفرق من ألف، ومن مائة، ومن عشرة. وكان الجيش يضم كل مغولي تتراوح عمره بين الرابعة عشرة والستين[2]. ومعظمهم من الفقراء والمحتاجين الذين يقاتلون في المعارك طمعاً في النصر والحصول على المغانم[3].

وفي ميادين القتال، كانت خطة المغول تقضي بتقسيم الجيش إلى قلب تحيط به الميمنة والميسرة، وتسير في مقدمته الفرقة الأمامية التي يلبس أفرادها دروعاً كاملة ويحملون السيوف والحراب، تحرزاً للإصابة والدفاع، بينما يكتفي

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص ٢٦٥
(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣ ص ٤٧٦.
(٣) الجويني: تاريخ جهانكشاي، جـ١ ص ٢٩.

جنوده سائر الفرق بالأسلحة الخفيفة كالقوس والنشاب مما يوفر لهم سرعة الحركة.

وتبقى فرقة الحرس الخاص التي أنشأها جنكيز خان أقوى وأهم فرقة داخل الجيش. وقد تخرج معظم قواد جنكيز خان من هذه الفرقة التي تضم عشرة آلاف، كل جندي منهم يكون أعلى رتبة من قائد الألف في الفرق الأخرى. ومهمة هذه الفرقة الإهتمام بمعسكر الخان، وكان يختار منها ألف من نخبة المقاتلين، يطلق على كل منهم إسم «بهادر» أي الشجاع، لا يفارقون الخان الأعظم وخاصة في ميدان القتال.

تجدر الإشارة إلى نقطة هامة في حياة المغول تتعلق بالبداوة والهمجية والعنف والتعطش لسفك الدماء، حتى أصبحت كلمة «التتر» أو «التترى» (وهي اللفظة التي إستعملها المؤرخون المسلمون للدلالة على المغول) تشير حتى يومنا هذا إلى الهمجية والقسوة.

ورغم شهرة المغول بالبسالة والشجاعة، فإن جنكيز خان حقق مطامعه عن طريق الرعب والعنف، فجعل الرعب من خصائص نظام الحكم وأقام من المذابح الجماعية نظاماً ثابتاً مشروعاً يعتبر جانباً من سياسته الحربية. وبذلك أنزل المغول عقوبة الموت بالأهالي سواء أظهروا المقاومة أم الإذعان والإستسلام، فلم يحترموا وعودهم بالأمان، بل حققوا نصرهم بالغدر والخداع، ومن نجا من الموت أبقوا عليه للإستفادة من مهارته الفنية، أو لجعله في مقدمة الجيوش ليواجه إخوانه في الدين فكان المغول يقاتلون وراء المسلمين، ويكون القتل في الأسرى المسلمين، والمغول بنجوة منه[1]. ومن تكتب له النجاة من هؤلاء الأسرى، يجهز عليه المغول بعد تحقيق هدفهم. كما كانوا يجمعون رؤوس القتلى في أهرامات، بعد إنزال الخراب بالمدن والضياع حيث تتلف فيها الحرائق، والقيام بمذابح جماعية وإستباحة السكان من الشيوخ والنساء والأطفال. وبهذا الأسلوب القتالي إكتسحت جيوش المغول أوروبا بعد آسيا كأنها السيل المنهمر، بعد أن قاموا بغزو روسيا والمجر وبولونيا. وأصبح

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٩ ص ٣٣٧.

اسم المغول مصدراً للرعب والخوف عند الأوروبيين العاجزين عن مقاومتهم والتصدي لهم. إلا أن خطر المغول كان أشد في آسيا منه في أوروبا، فقد قضى المغول على أسرة كين في شمال الصين سنة ٦٣٢/١٢٣٤، وغزوا جنوب الصين وخوارزم وفارس وسائر الأقاليم المجاورة. وما تغلب على الصليبيين والسلاجقة والعباسيين والأيوبيين من تدمير قوة الإسماعيلية (الفداوية أو الحشيشية)، كان أمراً سهلاً لدى المغول الذين دمروا معاقلهم سنة ٦٥٤/١٢٥٦، ليدمروا بعدها بغداد على يد هولاكو الذي استباحها أربعين يوماً وأحرقها وقتل نحو ثمانين ألفاً من سكانها في مذبحة جماعية لم يسلم منها الخليفة العباسي ولا جميع أفراد أسرته. ففي ١٤ صفر ٦٥٦/ ٢٠ شباط ١٢٥٨، أمر هولاكو بقتل المستعصم، وهو آخر خليفة عباسي في بغداد. وجرت عملية القتل دون إراقة دمه جرياً على عادة المغول في قتل الأمراء والملوك والقادة العظام. لذلك وضع المستعصم في غرارة ثم رفس بأرجل الخيل إلى أن مات[1].

وبلغ من تعذيب المغول الكامل محمد بن شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين التي سقطت في أيديهم سنة ٦٥٨/١٢٦٠، أنهم قطعوا أجزاء من جسمه وأرغموه على تناولها حتى لقي حتفه. وتقطيع الأوصال تدريجياً، تمثل طريقة التعذيب الصينية التي تبدأ ببتر مفاصل الأصابع الصغرى، ثم تستمر بتقطيع الأطراف شريحة بعد أخرى. ثم رفع المغول رأس الكامل محمد الأيوبي على رمح طافوا به كل أرجاء بلاد الشام من حلب حتى دمشق، وكان يتقدم الموكب المغنون والطبالون، حتى علق الرأس في شبكة بسور باب الفراديس بدمشق[2]. وبعد استيلاء المغول على الموصل سنة ٦٦٠/١٢٦١، وضعوا الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ، في دهن ولباد. وألقوه في الشمس حتى تحول الدهن إلى ديدان، فشرعت هذه الديدان تأكل جسمه حتى مات بعد شهر

---

(١) الجوزجاني: طبقات ناصري ص ٤٣٠؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ٣٢٢
وصاف الحضرة: تاريخ وصاف، ص ٤٠.

(٢) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، جـ ٢ ص ٢٠٥، ٢٠٦

كما شنقوا إبنه نصير على ساحل نهر دجلة، وكان طفلاً في الثالثة[1].

وهكذا يمكن القول أن سياسة العنف والشدة، خطة مرسومة اتبعها المغول لتحقيق مطامعهم عن طريق سرعة التعبئة والمبادرة في الهجوم ومباغتة العدو بعد الاستعانة بالجواسيس، فلا يحد من بطشه صاحباً من الأذعان والاستسلام وسط القتل والنهب والتدمير والحرائق. وكان الهدف من هذه السياسة، إثارة الخوف والرعب مما يكفل للمغول الأمن والسلامة فيخضع لهم الناس. وهكذا تقرب منهم الأمراء المسلمون غير العرب، فدخل في طاعة هولاكو، بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي لم يتورع عن تعليق رأس صديقه سليمان شاه مع رأسي الدوادار الصغير مجاهد الدين أيبك وتاج الدين بن الدوادار الكبير، وذلك تنفيذاً لأمر هولاكو[2].

وبسقوط بغداد، أظهر السلطان السلجوقي عز الدين كيكاوس الثاني، الخضوع والذلة، فرسم صورته على نعل زوج من الأحذية وقدمها لهولاكو قائلاً «عبدك يأمل أن يتفضل الخان فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها»[3] وأثناء حصار حلب سارع ركني أستقتها المؤرخ ابن العبري وقدم طاعته لهولاكو.

وكان الناصر يوسف الأيوبي، صاحب دمشق وحلب، قد أعلن ولاءه للمغول، طالباً مساعدتهم في إحياء السلطنة الأيوبية في مصر والشام وذلك بعد القضاء على المماليك في مصر. وعندما فشلت خطته أخذ يفر أمام المغول من حلب إلى دمشق ثم غزة، حتى وقع في قبضة المغول، فعفا عنه هولاكو لحاجته إلى مثل هؤلاء الأمراء الضعاف في دعم حكم المغول. ولم يكتف بذلك بل وعده بتحقيق حلمه الرامي إلى إحياء السلطنة الأيوبية ولكن تحت سيطرة المغول[4]. ومن هؤلاء الأمراء أيضاً، الأشرف موسى الأيوبي، صاحب حمص

---

(1) رشيد الدين، جامع التواريخ (تاريخ المغول، هولاكو) م ٢ جـ ١ ص ٢٨٩.
(2) المصدر نفسه، م ٢ جـ ١ ص ٢٩٠.
(3) المصدر نفسه، م ٢ جـ ١ ص ٣٠١.
(4) المصدر نفسه م ٢ جـ ١ ص ٣٠٨.

الدين نجم أيوب، وكان يحكم نوبة تل باشر قرب حلب. وبعد سقوط حلب قامت قوات هولاكو بإعادة ملك حمص التي انتزعها منه الناصر يوسف سنة ٦٤٦/١٢٤٨.[1]

ومع ذلك كله، لم يكن المغول مجرد شعب همجي ومغير يرتكب المجازر الشنيعة، ويدمر المدن والقرى، بل هم أيضاً شعب له نظمه وتقاليده التي لعبت دورها في قيام الأمبراطورية المغولية. وما لبثت هذه الأمبراطورية أن تفاعلت مع حضارة الشعوب التي هزمت أمامها، لتنتصر هذه الشعوب في النهاية بعد أن اعتنق المغول ديناً غير دينهم، وحضارة غير حضارتهم البدائية الأولى.

رغم شهرة المغول بنهب المدن وحرقها أو إغراقها بالماء، سواء في عهد جنكيزخان أو خلفائه من بعده، مما قضى على كثير من مظاهر الحضارة في البلاد التي استولوا عليها، فإن مستشاري جنكيزخان وخاصة محمود يلواج الخوارزمي المسلم وبي لو تشو تساي الصيني قد ساهموا في بذل الجهود لإعادة تعمير ما خربه المغول. وفي عهد أوكتاي، ظهرت النزعة المدنية لديه بفضل تأثير المستشارين فمال إلى البناء والعمران، فأمر المهندسين الصينيين ببناء مدينة جديدة شمال منغوليا قرب جبال قراقورم، لذلك عرفت باسم قراقورم رغم أنه أطلق عليها اسم اوردو باليغ (مدينة البلاط)، ثم اتخذها عاصمة له. ثم أمر بتشييد قصره الكبير، وحوله الدور الفخمة التي تخص اخوته وأبناءه وسائر الأمراء الملازمين له. وفي عهد اوكتاي أيضاً، اكتمل نظام البريد الذي يرجع إنشاؤه إلى عهد جنكيز خان وذلك تسهيلاً لسير العمليات العسكرية ولربط الأمبراطورية بعدة محطات للبريد.

رغم تحول اسم هولاكو، رمزاً للعنف والقسوة، في غزوه المشرق العربي الإسلامي في الفترة (٦٥٤ - ٦٥٨/١٢٥٦ - ١٢٦٠) التي قضى فيها على الإسماعيلية ودمر بغداد ودخل دمشق، فإنه أيضاً كان شغوفاً بتشييد الأبنية وعلم الفلك. لذلك عهد إلى نصير الدين الطوسي ببناء مرصد في مدينة مراغة بأذربيجان في سنة ٦٥٧/١٢٥٩: مستعيناً بما استولى عليه المغول من آلات

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص ٣٢٣، ٤٢٥، ٣٣٣

- الرصد وكتب الفلك التي كانت موجودة في قلاع الإسماعيلية. والحق بهذا المرصد، مكتبة ضمت ما يزيد على أربعمائة ألف مجلد، معظمها من الكتب التي كانت موجودة في بغداد قبل حرق مكتبتها الشهيرة.

ورغم اعتناقه البوذية وإقامة المعابد الوثنية في مدينة خوى، فإن هولاكو وبتأثير زوجته طقز خاتون المسيحية النسطورية، غمر المسيحيين بعطفه. فأنشأ كنيسة عند مدخل دار زوجته، وأقامت الكنائس في مختلف مناطق ايلخانية فارس التي يحكمها، ونشأت مدارس يتردد إليها الأطفال[1] كما وجد هولاكو في التعاون مع المسيحيين خير طريق للقضاء على الإسلام، مما يدل على بعد نظر في السياسة العسكرية بعد أن أدرك هو وقائده كتبغا المسيحي أهمية قيام تحالف بين المغول والأرمن والصليبيين سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠

وشاءت الظروف التاريخية أن يواجه المماليك وحدهم هذا التحالف الثلاثي، فاتبعوا سياسة المغول أنفسهم في الاعتماد على العنف والرعب حتى تمكنوا من إنزال الضربة الأولى والموجعة التي زعزعت أسطورة المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠، وتابعوا انتصاراتهم المتواصلة حتى انكفأ المغول سنة ٧٠٣/ ١٣٠٣.[2]

٢ ـ هزيمة المغول في عين جالوت
(٢٦ رمضان ٦٥٨/ ٣ أيلول ١٢٦٠)

لم يبق أمام المغول، سوى الاستيلاء على مصر، التي تعتبر آخر معقل للإسلام في المشرق العربي الإسلامي، وبسقوطها تكتمل لهم السيطرة على هذا المشرق.

كان المماليك في مصر قد استفادوا من الاضطرابات التي شهدتها المملكات الأيوبية في بلاد الشام قبل قدوم المغول، فقضوا على الدولة الأيوبية

---

(1) أبو الفدا، المختصر في تاريخ البشر، جـ ٣ ص ٢٠٣
Grousset: L' Empire des Steppes p.434

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤١٤.

في مصر سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠، وأسسوا دولتهم المملوكية الأولى «البحرية». ومع قيام الخطر المغولي الذي تقاسم النفوذ مع الخطر الصليبي في بلاد الشام، أدرك المماليك ضرورة مواجهة المغول أولاً، لتوحيد جميع القوى داخل مصر تحت رايتهم، حتى يسهل التخلص من الصليبيين ثانياً، وتوحيد مصر والشام.

وسنة ٦٥٨/ ١٢٦٠، كان هولاكو يتأهب للزحف نحو مصر بحوالي أربعين ألفاً من العساكر للقضاء على دولة المماليك الناشئة[1]. لكن الصراع بين الأخوين أريق بوكا وقوبيلاي حول عرش المغول بعد وفاة أخيهما مونكو سنة ٦٥٥/١٢٥٧، جعلت هولاكو يفكر بالعودة إلى مقره في تبريز داخل المملكة فارس ليكون قريباً من الأحداث سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠، وهي السنة التي أعلن فيها قوبيلاي من «كي مينغ فو» وهي إحدى مدن الصين الشمالية، خلع أخيه أريق بوكا من عرش المغول الذي تولاه في قراقورم عقب وفاة مونكو، ثم نصب قوبيلاي نفسه خاناً أعظم[2].

وبذلك أصبح المغول منقسمين في الولاء بين أخوين يعتبر كل منهما نفسه خاناً أعظم للمغول. ورغم أن قوبيلاي حسم الوضع فيما بعد، حيث انتصر على أخيه أريق بوكا وأسره سنة ٦٦١/ ١٢٦٣. ثم زج به في السجن إلى أن مات سنة ٦٦٤/ ١٢٦٥، كما نقل العاصمة من قراقورم في منغوليا إلى خان باليغ (بكين الحالية) في الصين[3]. إلا أن أحداث سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠، انعكست على أخيهما هولاكو الذي يعتبر الابن الرابع لتولوي، ومن حقه منافسة أخويه على عرش المغول، لكنه آثر الاكتفاء بما حققه من إنشاء المملكة فارس التي تتبعها بغداد وبلاد الشام. لذلك اضطر للعودة إلى تبريز ومعه معظم القوى العسكرية المغولية. وتمكن إلحاح هيثوم الأول ملك أرمينيا بمساندة بوهمند السادس أمير انطاكية، حين قاتله كتبغا نائباً عنه في الشام ومعه قوة لا تزيد عن عشرة آلاف

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٨.
المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٤٦٢، ٤٣٥، ٤٣٦.
(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان)، ص ٢٩٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦١.

مقاتل[1] لإتمام الخطة الرامية إلى القضاء على دولة المماليك الناشئة في مصر.

كان السلطان قطز، يتولى حكم دولة المماليك، وهو من الخوارزمية الناقمين على المغول، فقيل أن اسمه الأصلي هو محمود بن ممدود وأنه ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزمشاه، وقد بيع مع الرقيق في دمشق. فاشتراه السلطان معز أيبك، لينتقل معه إلى القاهرة. ثم قام قطز بعزل سيده وتولى الحكم ليواجه المغول. وقبل رحيله إلى تبريز، بعث هولاكو إلى السلطان قطز، بسفارة مغولية سنة ٦٥٨هـ/ كانون الثاني ١٢٦٠، تحمل رسالة جاء فيها[2]: ـ

«من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القان الأعظم.

باسمك الله باسط الأرض ورافع السماء . . . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته في الديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه . . . وقد سمعتم أنا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب . . . فأبشروا بالمذلة والهوان . . . من طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا. وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر . . .» وجوهر الرسالة يعني الوعيد والتهديد وإعطاء المغول صورة قوتهم أمام السلطان المملوكي.

اجتمع السلطان قطز بأمراء المماليك وجميعهم من الترك، للتشاور في الأمر. وحسم الموقف بعزمه على الجهاد في شجاعة وصلابة، وتعبيراً عن هذا الموقف الشجاع أمر بقتل رسل الوفد المغولي، وعلّق رؤوسهم على باب زويلة[3]، ونودي في القاهرة وسائر مصر بالخروج إلى الجهاد. وأخذ السلطان قطز، يعد العدة لحشد الجيش، وجمع الأموال اللازمة للإنفاق عليه بفرض

---

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٨٠

Lamb, the Crusades the Flame of Islam p346

(٢) نص كتاب المغول في الملحق رقم ٣، نقلاً عن المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ج١، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩.

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول، هولاكو) م ٢ ج ١ ص ٣١٢.

مراكب جديدة[1]، كما أخذ يحث الأمراء المتقاعسين عن الجهاد قائلاً:

«يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»[1].

خرج قطز بالجيش المصري ومن انضم إليه من القوات الخوارزمية وعساكر الكرك الأيوبيين[2] في رمضان ٦٥٨/أغسطس ١٢٦٠، وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري على رأس فرقة في المقدمة لاستطلاع أخبار المغول، وليخفي عنهم تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز. وقد تمكن بيبرس من القضاء على الحامية المغولية بغزة المبادرة في غزة. وبذلك انفتح الطريق الساحلي أمام قطز. وكانت خطته تقضي بمواجهة المغول داخل فلسطين، وكان عليه أن يسير بمحاذاة الساحل نحو عكا، ثم يتوجه نحو الداخل. وقد عسكر بجيشه خارج عكا عدة أيام؛ بعد أن اتصل بالبارونات الصليبيين في عكا، والذين كانوا في حالة من الضعف لا تسمح لهم بالوقوف إلى جانب المغول أو المماليك. لكن حقدهم على المغول وعدم ثقتهم بهم، أدى إلى فرط التحالف المغولي - الصليبي. ذلك أن كتبغا، رغم ميله للمسيحية، أقدم على تدمير مدينة صيدا التابعة للصليبيين، رداً على إقدام جوليان Julien صاحب صيدا والشقيف بالإغارة على سهل البقاع وقتل ابن أخ كتبغا. وبذلك تحولت صيدا إلى كومة من تراب، وأسر المغول منها ثلاثمائة أسير، ولم يفلت إلا القلعة البحرية في صيدا، إلا السفن الجنوية التي قدمت من صور. كما تعرض صاحب بيروت جان إيبلان الثاني، لقسوة المغول وبطشهم رداً على إغارته مع فرسان الداوية وأمراء جبيل على الجليل[1]. وقد أدت أعمال المغول هذه، إلى قبول بارونات عكا بالاتفاق مع قطز، مما يعني وقوف الصليبيين على الحياد في الصراع بين المماليك

---

(1) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٩٦، ٩٨.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ص ٤٢٩.

(3) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣ ص ٤٣٣، ٤٣٤.

(4) Grousset: L'Empire des Steppes p. 437.

والمغول، ويسمحوا للجيش المصري باجتياز الأراضي الخاضعة لنفوذهم[1].

أما جيش المغول، فكان بقيادة كتبغا، وعدده عشرة آلاف، بعد رحيل هولاكو إلى فارس على رأس معظم الجيش المغولي الذي كان يرابط في الشام[2]، مما ساهم في تحقيق التفوق العددي لجيش قطز. وعبر كتبغا نهر الأردن، وتقدم إلى الجليل الشرقي. وعلى الفور تحرك قطز من جهات عكا، واجتاز الناصرة حتى التقى بالأمير بيبرس في عين جالوت (قرية بين بيسان ونابلس) في ٢٤ رمضان ٦٥٨/٣ أيلول ١٢٦٠.

عندما اقترب المغول من عين جالوت، كان قطز قد أخفى الجانب الأكبر من الجيش المصري في التلال المجاورة، ولم يظهر إلا مقدمة بقيادة بيبرس الذي أخذ يناوش المغول حتى اكتمل تطويق الجيش المغولي، عندها صرخ السلطان قطز: «وإسلاماه» وبدأت المعركة التي أسفرت عن هزيمة ساحقة للمغول، وتحطيم جيشهم التحطيم التام يوم الجمعة في ٢٦ رمضان ٦٥٨/٣ أيلول ١٢٦٠. وبذلك هزم المغول لأول مرة في تاريخهم على يد المماليك، وانتهت أسطورة «الجيش المغولي قوة لا تقهر»[3].

يذكر بعض المؤرخين أن قائد المغول كتبغا، خرّ صريعاً في ميدان المعركة[4]. في حين يذكر البعض الآخر أنه بقي وحده في ميدان المعركة، بعد أن انفض جنده من حوله، وظلّ يكافح ويقاوم إلى أن كبا جواده، فأسره المسلمون. ثم سيق إلى السلطان قطز، فأمر بقتله، وفصل رأسه عن جسده وطيف به في البلاد[5]. كما قيل أيضاً أن الأمير جمال شمس الدين آقوش

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٤٣٠.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ٧٨، ٧٩.

(3) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٨؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٣ ص ٢١٤؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١ ص ٤٣١؛ ابن أياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٩٢.

(4) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢٠٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧ ص ٩٠، ٩١.

(5) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول - هولاكو) م ٢ جـ ١ ص ٣١٤.

الحمصي قتل كتبغا أثناء المعركة وأن ابنه هو الذي قد أسر.

أرسل السلطان قطز إلى الملك المنصور نور الدين عمر في اليمن، يبشره بالنصر[1]. ثم شرع في مطاردة فلول المغول في بلاد الشام. كما مهد لسيطرة المماليك في تلك البلاد بتعيين علم الدين سنجر نائباً عنه في دمشق، وأقام علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ نائباً عنه في حلب ليطلعه على أخبار وتحركات المغول. لكن قطز أخطأ بأمرين، أولهما إعدامه بعض الأمراء الأيوبيين المتخاذلين أمام المغول رغم إعلان خضوعهم له، مثل المنصور صاحب حماه والأشرف موسى صاحب حمص، بينما قتل السعيد صاحب بانياس لأنه ناصبه العداء. وثانيهما عدم قتل الأمير بيبرس البندقداري رأس المماليك البحرية على غرار ما فعله مع أقطاي.

تعتبر معركة عين جالوت، من المعارك الفاصلة في تاريخ المشرق العربي الإسلامي، لقد كان هدف المغول القضاء على الخلافة العباسية في بغداد وانتزاع ما كان يخضع لسلطانها من الأقاليم في فارس والشام ومصر. ولو تحقق لهم تدمير بغداد سنة ١٢٥٨/٦٥٦، ودخول الشام سنة ١٢٦٠/٦٥٨، ولولا هزيمتهم في عين جالوت، لامتد سلطانهم إلى مصر وحكموا العالم العربي الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، ولو تحقق النصر لكتبغا المسيحي لارتاح عطف المغول على المسيحيين وتقاسموا مع الصليبيين بلاد الشام[2]. ولقد شاءت الظروف أن يسحب هولاكو معظم جيشه من بلاد الشام لمواجهة الأوضاع المضطربة في بلاده، كما شاءت أن يسقط التحالف الصليبي - المغولي، مما ساعد دولة المماليك الأولى في تحقيق النصر الحاسم.

ولا نبالغ إذا قلنا إن انتصار المماليك على المغول في عين جالوت أنقذ أوروبا من زحف المغول الذي كان متوقعاً بعد دخول مصر للاتجاه غرباً في الطريق الطبيعي الذي سلكه العرب تحت راية الإسلام، على ساحل شمال إفريقيا بعبور مضيق جبل طارق نحو جنوب أوروبا

---

(1) كتاب البشارة في الملحق رقم 1 نقلاً عن: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٧ ص ٢٦٠-٢٦٣.
(2) دسمان. تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٢٧-٤٢٨.

كان انتصار عين جالوت حافزاً لانقلاب أهل الشام على المغول وخاصة في دمشق حيث جرت مذبحة كبرى في المغول وأعوانهم من النصارى[1]، مما سهل دخول قطز إليها في ٢٧ رمضان ٦٥٨/آب ١٢٦٠. وتمكن من إعادة النظام والأمن في جميع المدن الشامية حيث أقيمت له الخطبة في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات[2].

رغم انتصار المماليك، فقد حاول المغول طيلة حكمهم في فارس، شن الغارات المرة تلو المرة على بلاد الشام طمعاً في احتلالها، لكن المماليك أنزلوا الهزائم بهم.

وعلى هذا الأساس استطاعت مصر تحت حكم المماليك انقاذ المشرق العربي الإسلامي من خطر المغول، وأصبحت القاهرة المقر الجديد للخلافة العباسية التي أحياها الظاهر بيبرس بشكل صوري لتكون مجرد سند ديني لسلاطين المماليك، وذلك بعد أن اغتال قطز في ١٥ ذي القعدة ٦٥٨/ ٢٦ تشرين الأول ١٢٦٠[3]، وتولى سلطنة المماليك.

٣ - إقامة الخلافة العباسية في القاهرة (رجب ٦٥٩/ حزيران ١٢٦١):

وجد الظاهر بيبرس في إقامة الخلافة العباسية في القاهرة ما يقوي دعائم دولته ويزيد من نفوذه، ليظهر أمام العالم العربي الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة العباسية. ولكن من هو صاحب الحق من الأمراء العباسيين في الحصول على الخلافة؟ فالمغول قضوا على المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وقتلوا معه أفراد أسرته وأكابر دولته. وكان الأمير أبو العباس أحمد حفيد الخليفة المسترشد بن المستظهر العباسي يحاول استعادة الخلافة الضائعة[4]، فعمل مع أتباعه على استعادة بعض المدن عند حدود

---

(١) أبو شامة. الذيل على الروضتين، ص ٢٠٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ٨٠؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤٣٢.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤٣١، ٤٣٢.

(٣) المصدر نفسه، جـ ١ ص ٤٣٤.

(٤) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، جـ ١، ص ١٣٥؛ أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر، جـ .

الفرات مثل عانة والحديثة والأنبار. ومع ذلك استقبل الظاهر بيبرس في القاهرة أميراً أسود اللون مع جماعة من العرب زعموا أنه عم المستعصم العباسي وأن اسمه الأمير أبو القاسم أحمد بن الظاهر بن الناصر، فبايعه الظاهر بيبرس بالخلافة، كما بايعه الأمراء والقضاة والفقهاء ورجال الدولة في احتفال كبير في رجب ٦٥٩/حزيران ١٢٦١ وتلقب بالمستنصر بالله، وقد ساور الشك معظم المؤرخين حول صحة نسبه[١]

ثم خرج بيبرس مع الخليفة الجديد في جيش كبير إلى دمشق، استعداداً لقتال المغول واسترجاع بغداد وذلك في سنة ٦٥٩/١٢٦١، لكن خشية بيبرس من عودة الخلافة العباسية إلى بغداد وحلمه أن تكون القاهرة هي المقر الجديد لهذه الخلافة، جعله يترك الخليفة المستنصر يذهب وحده على رأس ثلاثمائة فارس إلى العراق وكأنه أراد التخلص منه. ووجد المستنصر قرنه مع أبي العباس أحمد[٢] الذي بويع أيضاً بالخلافة تحت اسم الحاكم بأمر الله وذلك على يد أمير حلب شمس الدين أقوش البرلي الذي أمده بسبعمائة فارس، مما يدل على التنافس بين بيبرس وأقوش حول استغلال إحياء الخلافة العباسية لمصلحة كل منهما

لكن المغول أنزلوا هزيمة ساحقة بالجيش العباسي في مواجهة غير متكافئة عند الأنبار في ٣ محرم ٦٦٠/ ١٢٦١ انتهت بمقتل المستنصر أبو القاسم أحمد ومعظم جيشه، وتمكن الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد من النجاة مع خمسين فارساً.

كان الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد هادن المغول مدة قصيرة، ثم انقلب عليهم وحرر الموصل من نفوذهم. وأبدى الصالح بطولة وشجاعة نادرة عكس أبيه بدر الدين لؤلؤ، فقد تحالف مع الظاهر بيبرس

= جـ ٣، ص ٢١٩، ٢٢٠؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨.

(١) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، جـ ١، ص ١٠٢.

أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٤، ص ٨.

(٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ٢١٥

للوقوف في وجه المغول الذين تحركوا بقيادة «استداغو»، وأنزل الهزيمة بهم. ثم تآمر كل من بيبرس وهولاكو لإرسال قوة عسكرية لنجدة أتباعه. وشاءت الظروف أن يطلع المغول على سير القوة المشتركة، فنصبوا كميناً وقضوا عليها، ثم تزيوا بزي أفرادها وتوجهوا نحو الموصل. وانطلت الحيلة على أهل الموصل فخرجوا لاستقبالهم لكن المغول غدروا عليهم. ورغم ذلك قاومت قلعة الموصل ستة أشهر، حتى اضطر الملك الصالح للاستسلام سنة ٦٦٠/ ١٢٦١، فعمد المغول إلى قتله بأبشع صورة، كما قتلوا ابنه وكان طفلاً في الثالثة.

سنحت الظروف لبيبرس كي يدعم مركزه، فاستدعى أبا العباس أحمد إلى القاهرة وأقام له احتفالاً بالإيوان الكبير في قلعة الجبل وبايعه بالخلافة، ولقب بالحاكم بأمر الله في ٨ محرم ٦٦١/ ١٢٦٢[1]، ثم أنزله في البرج الكبير بقلعة الجبل ليكون مقره الدائم في القاهرة تحت إشراف سلاطين المماليك. فكان الحاكم بأمر الله ثاني الخلفاء العباسيين في القاهرة

وبذلك نجح الظاهر بيبرس في تحويل القاهرة إلى مركز للخلافة العباسية انتقل إليها مجد بغداد وشهرتها الدينية والعلمية، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء[2] والتجار[3]. وهرع أمراء المسلمين إلى القاهرة لتقديم الطاعة والخضوع للسلطان الظاهر بيبرس[4].

وبذلك يمكن القول أن سقوط بغداد وتدمير وحرق مكتبتها كما يبالغ المؤرخون المسلمون في وصفه، لا يعني نهاية الحضارة العربية الإسلامية، بل بالعكس فإن ما فعله المغول حرك هذه الحضارة بما أعقب هجومهم من حركة احياء كبيرة قام بها العلماء والأدباء الذين تفرقوا في أنحاء العالم العربي

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩.
(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ ٢، ص ٦٦.
(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩.
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩.

الإسلامي وخاصة نحو القاهرة التي هيأت للغرب أوروبا أن يحصل على ثقافة الشرق وعلومه.

٤ ـ الصراع بين هولاكو وبركة خان (٦٦٢ ـ ٦٦٤/ ١٢٦٣ ـ ١٢٦٥):

بعد وفاة منكو خان وسيطرة قوبيلاي على حكم المغول سنة ٦٦٢/ ١٢٦٢ ثم اتخاذه بكين مقراً له، قامت الحروب الداخلية بين الايلخانيات الكبرى التي تتألف منها امبراطورية المغول، وهي القبجاق وفارس والأويغور ويتمتع الخان الكبير من خلفاء جنكيز خان بالسلطة الاسمية على هذه الإيلخانيات، ويعتبر الأيلخانات نائباً للخان الكبير. كانت ايلخانية «القبجاق» تمتد من خوارزم إلى أقصى بلاد البلغار على نهر الفولغا، فضلاً عن كل الامارات الروسية، وقد عرفت بالقبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الغالب على خيام معسكراتها، وعاصمتها صراي على نهر الفولغا. أما ايلخانية «فارس» التي تفصلها عن الأولى جبال القوقاز، فهي وتشمل خراسان وايران والعراق وأذربيجان وآسيا الصغرى والجزيرة العربية، وكانت عاصمتهامراغة تحولت إلى تبريز ثم إلى سلطانية. وتمتد ايلخانية «الأويغور» من الأويغور شرقاً إلى ما وراء النهر من سمرقند وبخارى غرباً.

نشبت الحروب الداخلية بشكل خاص بين ايلخانية القبيلة الذهبية بزعامة بركة خان، وايلخانية فارس بزعامة هولاكو. وزاد من حدتها أن الأول كان يميل إلى نصرة المسلمين بعد اعتناقه الإسلام، في حين كان هولاكو رغم وثنيته يميل إلى المسيحيين. لذلك خشي السلطان المملوكي بيبرس من قيام حلف صليبي ـ مغولي، وتحالف مع مغول القبجاق «القبيلة الذهبية» وتزوج ابنة زعيمهم بركة خان. لكن هولاكو ما لبث أن توفي سنة ٦٦٤/ ١٢٦٥، فخلفه ابنه أبغا في حكم ايلخانية فارس.

بوفاة هولاكو، وهو في الثامنة والأربعين، ثم وفاة زوجته طقز خاتون، أدرك المسيحيون مدى الخسارة التي لحقت بهم في المشرق العربي الإسلامي: فاعتبروهما كوكبي الدين المسيحي وفي مكانة قسطنطين وهيلين. والواقع أن

المماليك آخذوا منذ هذا التاريخ يتزايد أقسى الضربات بالصليبين والمغول معاً.

٥ ـ أبغا بن هولاكو (٦٦٤ ـ ٦٨٠/ ١٢٦٥ ـ ١٢٨٢):

اتبع أبغا سياسة أبيه الرامية إلى القضاء على دولة المماليك في مصر، وأضاف إليها سياسة التحالف مع الصليبيين الذين يريدون بيت المقدس قبل يحصل هو على مصر والشام، لكنه تعرض للهزيمة على يد المماليك.

أ ـ هزيمة المغول أمام السلطان الظاهر بيبرس (٦٧١ ـ ٦٧٦/ ١٢٧٢ ـ ١٢٧٧):

رغم تحالفه مع مغول بركة خان، شرع السلطان الظاهر بيبرس بتحصين أطراف دولته المواجهة للإلخانية فارس. فأمر ببناء سلسلة من الحصون تمتد من شرق الأردن إلى نهر العاصي، وخاصة قلعة البيرة التي زودها بالذخيرة والمؤونة التي تكفي مدة عشر سنوات[1]. وأقام الأبراج لمراقبة تحركات المغول أو الصليبيين، وعرفت هذه الأبراج بالمنائر. فإذا كشف الحرامي أمراً أشعلوا النار ليلاً أو أثاروا الدخان نهاراً لتنتقل الإشارة من منارة إلى أخرى حتى تصل إلى العاصمة[2]. وكذلك أمر بيبرس بقطع الطرق المؤدية إلى بلاد الشام[3]، وذلك بإحراق المروج والأعشاب التي كان يعسكر فيها المغول عند زحفهم على الشام فلا يجدوا إذا ما فكروا بالزحف من جديد ما يحتاجون إليه من قوت أو عشب لدوابهم[4].

حاول أبغا أن يعرض الصلح على بيبرس مقابل خضوعه لسلطة المغول فرفض بيبرس هذا الأمر سنة ٦٦٧/ ١٢٦٨. لذلك أغار المغول على عينتاب

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٥٩٥.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٧٧؛ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص ٤٠٦.

سنة ٦٧٠/ ١٢٧١، ثم حاصروا قلعة البيرة فأسرع بيبرس لنجدتها، ثم أعد حملة لمواجهة المغول داخل إيلخانية فارس.

سار بيبرس سنة ٦٧١/ ١٢٧٢، وحمل معه عدة مراكب مقسمة الأجزاء على ظهور الجمال وأنزلها في الفرات وعبر بواسطتها مع جيشه، ليُنزل الهزيمة بالمغول. فأمّن بذلك الحدود الشرقية لدولة المماليك من الخطر المغولي. وفي سنة ٦٧٣/ ١٢٧٤ توجه بيبرس نحو قيليقية (أرمينيا الصغرى) حليفة المغول فهزم الجيش الأرمني وعاد إلى مصر. وحاول أبغا محاصرة البيرة واحتلالها سنة ٦٧٤/ ١٢٧٥ دون جدوى.

تحرك بيبرس سريعاً لتأمين الحدود الشمالية لدولته وهي تتاخم دولة سلاجقة الروم التي أعطت تبعيتها للمغول. ثم تقدم نحو آسيا الصغرى وهزم الجيش المغولي عند بلدة أبلستان شرق قيصرية سنة ٦٧٦/ ١٢٧٧، وخسر المغول في هذه المعركة حوالي سبعة آلاف جندي مع قائدهم تناون. ويقال أن أبغا أسرع إلى ميدان المعركة بعد معرفته نبأ الهزيمة وبكى عندما شاهد جثث القتلى. ثم انضم من أهالي البلاد ترحيبهم ببيبرس الذي دخل قيصرية عاصمة دولة سلاجقة الروم في احتفال عظيم قبل عودته إلى الشام[1]. لكن بيبرس ما لبث أن توفي في ٢٧ محرم ٦٧٦/ ١٢٧٧ [2] وتولى السلطان المنصور قلاوون الحكم، فتابع سياسة محاربة المغول والصليبيين معاً.

ب ـ هزيمة المغول أمام السلطان المنصور قلاوون (٦٨٠/ ١٢٨١):

في سنة ٦٨٠/ ١٢٨١، خرج المغول بقيادة أبغا نحو الرحبة، بينما سار أخوه منكو تيمور نحو حمص، لكن السلطان قلاوون أنزل به الهزيمة عند حمص في ١٤ رجب ٦٨٠/ ١٢٨١، وهرب المغول لمطاردهم قلاوون قتلاً وأسراً، فاضطر أبغا لفك حصاره عن الرحبة والعودة. وما لبث أبغا أن قتل على يد أخيه تيكودار الذي تسلم إيلخانية فارس.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١١، ص ١٣٩.

(٢) ابن الفرات: سيرة تراجم الخلفاء والملوك، جـ ٧ ص ٨٨ ـ ٨٢.

٦ ـ أحمد تكودار (٦٨٠ ـ ٦٨٢/ ١٢٨٢ ـ ١٢٨٤):

تقلّد تكودار الحكم وأعلن إسلامه وتسمّى بأحمد خان، ثم أرسل كتاباً[1] يطلب الصلح إلى السلطان المنصور قلاون الذي هنأه بالإسلام[2]. ولكن تكودار يسعى لحمل المغول على اعتناق الإسلام، فكثر الناقمون عليه وانفض عنه كبار قادته مما أدى إلى مصرعه سنة ٦٨٢/ ١٢٨٤، فتولى أرغون بن أبغا الحكم.

٧ ـ أرغون بن أبغا (٦٨٢ ـ ٦٩٥/ ١٢٨٤ ـ ١٢٩٥):

عاد أرغون لسياسة التحالف مع الصليبيين للقضاء على دولة المماليك. ففي سنة ٦٨٣/ ١٢٨٥ أرسل إلى البابا هونوريوس الرابع، فلم يرد عليه لعجزه عن تحقيق تحالف مغولي ـ صليبي. وفي سنة ٦٨٥/ ١٢٨٧ أرسل سفارة برئاسة رابان سوما إلى الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس الذي أبدى استعداده لمساعدة المغول، كما أرسل إلى فيليب الرابع ملك فرنسا الذي وعده بالقيام بحملة لاسترداد بيت المقدس. لكن أرغون لم يحصل على نتيجة إيجابية واتفاق معين لتنفيذ مشروعه، فأرسل سفارة ثانية سنة ٦٨٨/ ١٢٨٩، ثم سفارة ثالثة سنة ٦٩٠/ ١٢٩١، برئاسة بوسكاريل جيزولف إلى البابا وفرنسا وانكلترا. ثم توفي قبل أن يحقق نجاحاً من ثمن التحالف المغولي ـ الصليبي لم يعد مجدياً بعد سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية بيد السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ٦٩٠/ ١٢٩١.

٨ ـ غازان وتراجع المغول (٦٩٥ ـ ٧٠٣/ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٣):

اعتنق غازان الإسلام وشجع المغول على اعتناقه حتى انقطع ما كان يربط من علاقات بين إيلخانية فارس والوطن الأم «منغوليا»، وجعل غازان من الإسلام الدين الرسمي للبلاد، واعتبر نفسه خاناً مستقلاً بفضل الله وقوته. ورغم ذلك شن غازان حملتين على بلاد الشام.

---

(١) نص كتاب أحمد تكودار إلى السلطان المنصور قلاون في الملحق رقم ٩.
(٢) نص جواب السلطان المنصور قلاون إلى أحمد تكودار في الملحق رقم ١٠.

ومما يجدر ذكره أن مؤرخ تاريخ المغول، رشيد الدين المعروف بالطبيب، كان وزيراً لغازان، وظل بعد إسلامه يخفي عقيدته اليهودية. وقد ذاعت شهرته مع كتابه المعروف باسم جامع التواريخ الذي أنهاه سنة ٧١١/١٣١١.

أ ـ نجاح الحملة الأولى على بلاد الشام (٧٠١/١٣٠١):

ثم يتوقف المغول عن مساعدة حليفهم هيثوم الثاني الذي تولى حكم أرمينيا الصغرى سنة ٦٨٨/١٢٨٩، فأرسلوا حملة إلى الشام قبل تولي غازان الحكم. ولكنها منيت بالفشل سنة ٦٩٠/١٢٩١. ثم أن غازان المسلم شن على بلاد الشام سنة ٧٠١/١٣١١ حرباً تعتبر من أعنف غزوات المغول، وذلك زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون في فترة حكمه الثانية (٦٩٨ ـ ٧٠٨/١٢٩٨ ـ ١٣٠٨). وقد حلت الهزيمة بالمماليك في مجمع المروج بين حمص وحماه، وتمكن المغول من دخول دمشق ونهبها.

ب ـ فشل الحملة الثانية على بلاد الشام (٧٠٣/١٣٠٣):

وفي الحملة الثانية سنة ٧٠٣/١٣٠٣، حلت الهزيمة الساحقة بالمغول في مرج الصفر قرب دمشق. ودخل السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى القاهرة يجر وراءه ألف وستمائة أسير من المغول وهم مقيدي الأيدي، ورؤوس قتلى المغول معلقة في رقابهم، فضلاً عن ألف رأس معلقة على ألف رمح.

تراجع المغول اثر هذه الهزيمة إلى بلادهم، وأصبح الطريق مفتوحاً نحو أرمينيا الصغرى التي زادت متاعبها لما نشب فيها من الحروب الداخلية، حتى غلبها الأتراك في آسيا الصغرى مع المماليك ففقدت استقلالها سنة ٧٧٧/١٣٧٥.

٩ ـ المغول بين الوثنية والمسيحية والإسلام

تأسست امبراطورية المغول على يد جنكيز خان وهي تدين بالوثنية. ومع توسعها زمن خلفائه، أخذت تتجاذبها الديانتان المسيحية والإسلامية، حتى تم النصر في النهاية للإسلام.

كان المؤسس جنكيز خان (٦٠٣ ـ ٦٢٤/١٢٠٦ ـ ١٢٢٧)، يعتنق

الشامانية، دين أسلافه المغول. والشامانية نوع من الديانة الوثنية تقوم على عبادة أرواح الأجداد، وتؤمن بالسحر والتنجيم وتحضير الأرواح بحجة معرفة الغيب والمستقبل، والتقرب من الآلهة طمعاً في اكتساب عطفها ودفعاً لشرها، لذلك لجأ المغول إلى عبادة الشمس والقمر والنجوم والبرق والرعد، مما يعني خوفهم من قوة السماء الأبدية كما كانوا يسمونها. وكان جنكيز خان ينصعد بمفرده إلى قمة جبل مرتفع، ليضرع إلى قوة السماء الأبدية حتى تمده بالعون والقوة في سبيل تحقيق النصر[1].

ثم حلت البوذية مكان الشامانية نتيجة انتشار اللامية من هضبة التبت نحو الجزء الشرقي من آسيا. وارتفع شأن البوذية زمن قوبيلاي الذي اتخذ عاصمته خان باليغ (بكين) في الصين.

وتغلغلت المسيحية داخل صفوف المغول عن طريق النساء، فقد تزوج جنكيز خان من ابنة طغرل وهو زعيم قبيلة كرايت التي تدين المسيحية. وفي زمن كيوك (٦٤٣ ـ ٦٤٧هـ/١٢٤٥ ـ ١٢٤٩) وقبله أمه توراكينه خاتون (٦٣٩ ـ ٦٤٣هـ/١٢٤١ ـ ١٢٤٥)، ارتفع شأن المسيحيين[2]، فقد عهدت توراكينه خاتون إلى «قداق» المسيحي للإشراف على تربية ابنها كيوك منذ صغره، وعندما تولى عرش المغول اختار جينقاي وزيراً له، وهو من قبيلة كرايت المسيحية، كما لازمه بعض الأطباء المسيحيين. فلا غرو أن يتأثر كيوك بدوره بهذه الديانة، وعندما انتشر نبأ عطفه على المسيحيين، توجه إلى بلاطه القسس والرهبان من الأطراف وخاصة من بلاد الشام والروم والآس والأوروس.

حاول البابا أنوسنت الرابع استمالة كيوك لاعتناق المسيحية، فرد عليه طالباً الاعتراف بسيادته وأن يقدم إليه مع سائر أمراء غرب أوروبا ليطلعوا يمين التبعية. ومع ذلك ارتفع شأن المسيحيين في عهده، ولم يكن لأي مسلم الجرأة على أن يتحدث معهم بصوت مرتفع[3]. وكان من حسن حظ المسلمين، أن

---

(١) هارولد لام: جنكيزخان وجحافل المغول ص ١٢.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان)، ص ٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨١، ٢٨٥.

مدة حكم كيوك كانت أربع سنوات فقط، توفي بعدها في نواحي سمرقند[1].

وفي عهد منكو (٦٤٨ ـ ٦٥٥هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧م)، شعر المسلمون بالعطف، فقد كان شديد التأثر بأمه سرقوقتي بيكي التي تدين بالمسيحية، ومع ذلك كانت تغدق الصدقات والعطايا على أئمة المسلمين ومشايخهم، وتنفق الأموال على المساكين والفقراء من المسلمين، وساهمت في إقامة مدرسة في بخارى تحت إشراف شيخ الإسلام «سيف الدين الباخرزي»[2].

وقد سار مونكو على منوال أمه، فتمتع العلماء والأئمة المسلمين مع رجال الدين المسيحيين والبوذيين برعاية خاصة، وتم إعفاؤهم من الخراج. وقد خص المسلمين بالرعاية وميزهم عن أهل الأديان الأخرى، ففي عيد الفطر سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، حضر إلى المعسكر القاضي جلال الدين محمود الخجندي وطائفة من المسلمين، وخطب فيمن معه وأمهم للصلاة بعد أن تلا الخطبة باسم الخليفة العباسي، ودعا فيها لمنكو وأثنى عليه. لذلك أمر مونكو بمنحهم الهدايا وإعطائهم عربات محملة بأكياس من الذهب والفضة والملابس، كما أمر بإطلاق سراح جميع المعتقلين والمسجونين في سائر الممالك[3].

وبذلك تجرد مونكو من التعصب الديني، ورغم أنه كان يدين بعقيدة أسلافه الشامانية، إلا أنه كان يشهد الأعياد البوذية والمسيحية والإسلامية، لاعتقاده بوجود إله واحد يعبده كل إنسان بطريقته الخاصة[4].

عندما لمس الصليبيون، سياسة التسامح التي درج عليها المغول إزاء المسيحيين بصفة خاصة، حاولوا الإفادة من القوة المغولية، عن طريق التحالف معها للانتقام من المسلمين واستخلاص بيت المقدس وبلاد الشام.

ورغم نجاح مشروع التحالف المغولي ـ الصليبي ـ الأرمني، إلا أن مونكو كان يعتبر أصدقاءه أتباعا له، وعليه محاربة الأعداء حتى يتحولوا إلى أتباع. ولذ

---

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان)، ص ١٨٨.

(2) المصدر نفسه، ص ١٩٧، ١٩٨.

(3) المصدر نفسه، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

(4) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣ ص ٥٠٦.

ما تحقق النصر على المسلمين لأنه لن يسمح بقيام إمارات صليبية إلا في ظل التبعية الكاملة للمغول[1].

وهكذا انقلبت سياسة التسامح مع المسلمين رأساً على عقب مع تعيين مونكو لأخيه هولاكو نائباً عنه في إيلخانية فارس. ففي الفترة الأولى من حكم هولاكو (٦٥٢ ـ ٦٥٨/ ١٢٥٤ ـ ١٢٦٠)، تعرض المسلمون في المشرق العربي الإسلامي لأبشع صفحة سوداء في تاريخهم. فقد سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية في سنة ٦٥٦/١٢٥٨، وشهد أهل دمشق ثلاثة أمراء مسيحيين، كتبغا المغولي، وهيثوم الأول الأرمني، وبوهمند السادس الصليبي، وهم يتجولون بموكبهم شوارع المدينة سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠، وهي السنة التي استعاد فيها الإسلام مكانته، على أثر انتصار المماليك في عين جالوت.

وبفرط التحالف المغولي ـ الأرمني ـ الصليبي على يد المماليك، واعتناق زعيم القبيلة الذهبية بركة خان للإسلام، أقيم حلف إسلامي بين مغول القبيلة الذهبية والمماليك، فاستعاد الإسلام مكانته في إيلخانية فارس التي تحكمها أسرة هولاكو، وخاصة بعد تعلق تكودار ابن هولاكو بالإسلام ليحكم تحت اسم السلطان أحمد تكودار (٦٨١ ـ ٦٨٣/ ١٢٨٢ ـ ١٢٨٤).

ارتفع شأن الإسلام، مع غازان (٦٩٥ ـ ٧٠٤/ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤)، الذي لم يكتف باعتناق الإسلام بل جعله الدين الرسمي للبلاد. وبذلك قضى نهائياً على آمال المسيحيين في اجتذاب المغول إلى صفوفهم، وأقبل الموظفون ورجال الدين المغول على اعتناق الإسلام، وانقطع ما كان يربط من علاقات بين إيلخانية فارس والوطن الأم منغوليا. والواقع أن عهد غازان يعتبر الفترة التي تحولت فيها حياة المغول البدو إلى الاستقرار، فأخذوا يندمجون ويذوبون في البيئة الجديدة التي عاشوا فيها.

وجعل غازان الإسلام الدين الرسمي للبلاد، ونقش على النقد اسمه وألقابه باللغات العربية والمغولية والتبتية، لا على أنه نائب للخان الكبير في

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣ ص ٤٠٣.

بكين، بل على أنه حاكم مستقل بفضل الله وقوته. واشتهرت عاصمته تبريز، والأمر ... مدرستين وبيمارستانا ومكتبة ومرصداً. وأبطل عادة دفن الموتى في مكان مجهول؛ حيث كان المغول يعتبرون القبور من الأسرار المخفية، فبنى لنفسه مقبرة كبيرة، وكان أول خان مغولي يدفن في مقبرة ظاهرة[1].

رغم ذلك كله، لم يتمكن المغول ما جاء السلاجقة قبلهم من فصل إيران (فارس) وآسيا الصغرى (الأناضول) عن العالم العربي الإسلامي ليقيموا دولة وحكماً خاصاً بهم تحت ستار الإسلام. ففي جنوب روسيا وإيران زاد عدد التركمان عن عدد المغول، وكانوا من أشد الناس تعلقاً بالإسلام، ونظراً لما كان بينهم وبين المغول من تشابه في طرق الحياة، استطاعوا منذ زمن مبكر استيعاب غزاتهم. وفي يومنا هذا لم يعد في إيران أي أثر للمغول، والذين يعرفون بالتتر في روسيا، هم الذين يتحدثون باللغة التركية.

فإسلام المغول ليس إلا نتيجة تتريكهم، وعلى هذا الأساس شن غازان المسلم على بلاد الشام، حرباً تعتبر من أعنف غزوات المغول.

وهكذا انفصلت إيران عن العالم العربي الإسلامي، وأصبحت تمثل العالم المغولي ـ الإيراني، خاصة وأن «إيلخانية فارس» التي أقامها المغول لم تلبث أن زالت في منتصف القرنين الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. ورغم زوال إيلخانية فارس في إيران، فقد استمرت أحكام الياسا موضع عناية القبائل التركية، فقد سار عليها تيمورلنك والبع لعالهما، مما حدا بالشيخ حافظ الدين محمد البزازي والشيخ علاء الدين محمد البخاري إلى الافتاء بكفر تيمورلنك وكل من يقدم قانون جنكيز خان على الشريعة الإسلامية[2]. وشيئاً فشيئاً لم يعد للمغول أثر في إيران التي كانت في مطلع القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد تحت حكم الدولة الصفوية «الشيعية».

وكذلك انفصلت آسيا الصغرى (الأناضول) عن العالم العربي الإسلامي،

---

(١) السيوطي. تاريخ كريدة، ص ٦٠١.

(٢) ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، جـ ٢ ص ٨٠١ ـ ٨٠٢.

بعد أن تحولت لرن الأمر إلى منطقة تفرقة تابعة للمغول في فارس، ثم ذهب في غربها الإمارات التركمانية الجديدة دون أن يكون للمغول تأثير عليها، فأخذت تفرض الصبغة التركية في هذه الجهات حتى تحولت آسيا الصغرى بأكملها إلى العالم التركي العثماني في القرنين التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد.

وعلى هذا الأساس، تمكنت ثلاث قوى كبرى غير عربية في مصير العالم العربي الإسلامي في مطلع القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد: وتمثلت هذه القوى بالدولة الصفوية «الشيعية» في إيران، والدولة العثمانية «السنية» في آسيا الصغرى وجنوب شرق أوروبا، فضلاً عن الدولة المملوكية «السنية» في مصر والشام وسلطانها حامي «مكة والمدينة».

وكان لا بد من الصراع بين هذه القوى الثلاث التي يجمعها الإسلام وتفرقها جميعاً القومية التي تختلف أيضاً عن القومية العربية التي باتت مطوية على أمرها في ظل هذا الصراع الذي انتهى بانتصار الأتراك العثمانيين على الدولة الصفوية سنة ٩٢٠/١٥١٤، وعلى دولة المماليك سنة ٩٢٣/١٥١٧، ودخل العالم العربي الإسلامي تحت الحكم العثماني لمدة أربعة قرون متتالية (٩٢٣ - ١٣٣٧/١٥١٧ - ١٩١٨).

طيف الخطر الصليبي
(٧٠٣ ـ ٧٨٤/١٣٠٣ ـ ١٣٨٢)

كانت انتصارات المماليك بمثابة ضربة قاضية على الصليبيين، ومع ذلك توهم بعض هؤلاء سهولة إعادة عقارب التاريخ إلى الوراء عن طريق الإغارات التي شنها كل من أسطول جنوى الإيطالية على الساحل الشامي، وملك قبرص على الإسكندرية، والتي منيت بالخيبة والفشل أمام قوة المماليك من جهة، وبسبب عدم تجاوب الغرب الأوروبي مع مثل هذه الحروب التي اتخذت الصليب والدين ستاراً لتحقيق المطامع التوسعية. وهذا الأمر يعني تحول الخطر الصليبي إلى مجرد طيف طيلة القرنين الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، الذي شهد بدوره سقوط دولة المماليك الأولى سنة ٧٨٤/١٣٨٢.

١ ـ مجمع فيينا (٧١١/١٣١١):

مع مطلع القرنين الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، لم تعد الحروب الصليبية التي قامت تحت ستار الدين وبحجة تخليص قبر المسيح عليه السلام، تستهوي أوروبا التي اتجهت نحو العلمانية والدنيوية ودراسة القانون. ولم يعد ثمة تفكير في الحرب المقدسة والاستشهاد، في الوقت الذي سعى فيه إدوارد الأول لإقامة مملكة متحدة بريطانية، وروسخ بيت هابسبورغ أقدامه في النمسا، وأرسى فيليب الجميل الملكية الفرنسية على أساس استقلالي.

وذلك دون الدعوة لعقد مجمع فيينا سنة ٧١١/١٣١١، من أجل إنشاء أسطول أوروبي لفرض الحصار البحري على دولة المماليك في مصر، واتحاد الطائفتين الداوية والاسبتارية، لم يتحقق منها شيء في هذا المجمع.

٢ ـ إغارة أسطول جنوى الإيطالية (٧٣٤/ ١٣٣٣):

تمكن المماليك من إجلاء الصليبيين سنة ٦٩٠/ ١٢٩١، لكن الواقع إن هذه الحروب الصليبية التي رافقها خطر المغول أيضاً قد توقفت نهائياً سنة ٧٠٢/ ١٣٠٣ وذلك بعد فشل حملة غازان المغولي على بلاد الشام. وتحول الأمر إلى غارات وقرصنة بحرية قام بها أسطول جنوى الإيطالية الذي نزل في بيروت يوم عيد الأضحى سنة ٧٣٤/ ١٣٣٣. وكان يتولى بيروت، عز الدين البيسري[1] من قبل تنكز نائب الشام زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتمكن الأسطول من دخول الميناء وإنزال الهزيمة[2] بالمسلمين، مما دعا تنكز إلى تحصين المدينة، بعد استدعاء أمراء الغرب والتركمان كسروان إلى دمشق وإنزال العقاب بهم بسبب إهمالهم وتقاعسهم عن مواجهة الأسطول الجنوي[3].

٣ ـ حملة ملك قبرص على الإسكندرية (٧٦٧/ ١٣٦٥):

كان الموارنة الذين هاجروا إلى قبرص خوفاً من المماليك، يؤلبون الحكم هناك للانتقام. فأسس ملك قبرص بيار دو لوزينان (بطرس الأول) طائفة السيف لتخليص الأراضي المقدسة من سلطة المماليك. وبتحريض من مستشاره جو مزير Mezieres، ومن البابا أوربان الخامس، حاول أن يبعث الروح الصليبية القديمة في أنحاء غرب أوروبا. فأخذ يتنقل مدة ثلاث سنوات لتجهيز حملة صليبية ضخمة دون جدوى. ومع ذلك تمكن ملك قبرص بالتعاون مع جنوى والبندقية من إعداد حملة بحرية تضم مائة وخمس وستون سفينة،[4] فهاجم مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧/ ١٣٦٥، وأمعن في السلب والنهب والقتل[5]، مما ألقى الرعب في سائر المدن الساحلية من احتمال عودة الصليبيين. لكن الحروب الصليبية كانت قد توقفت وما يجري من طيف هذه الحروب، التي أظهرت

---

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٩٢
(٢) لسلطان الشدياق: تاريخ الأعيان، ص ٣٠٥.
(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٩٢.
(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٣ ص ١٠٥، ١٠٦.
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١١ ص ٢٩، ٢٠.
(٥) صالح بن يحيى تاريخ بيروت، ص ٩٢.

ضرورة تحصين سواحل بلاد الشام ومصر، وبناء أسطول بحري لغزو جزيرة قبرص التي تحولت إلى مركز لمهاجمة السواحل العربية الإسلامية.

تحرك نائب دمشق الأمير بيدمر الخوارزمي، لبناء هذا الأسطول في بيروت سنة ٧٦٧/ ١٣٦٥، لكن المحاولة باءت بالفشل سنة ٧٦٨/ ١٣٦٦[1] فاستعاض عنها المماليك زمن السلطان الأشرف شعبان الذي لم يتجاوز الثانية عشرة، بتجهيز حملة سنة ٧٦٩/ ١٣٦٧ للاقتصاص من موارنة جبل لبنان بتهمة انحيازهم إلى جانب ملك قبرص، فاجتاحت الحملة مقر البطريرك الماروني جبرائيل الحجولي الذي نفذ فيه حكم الإعدام، وهرب العديد من الأساقفة الموارنة إلى جزيرة قبرص[2]. ومع ذلك فقد اكتفى المماليك بالسيطرة على المدن الساحلية دون جبل لبنان، لانشغالهم بحماية الساحل من الغزوات والإغارات المتقطعة التي كان يقوم بها ملك قبرص أو الأسطول البحري بين الحين والآخر. وهذا ما يفسر بالتالي انحسار الوجود المسيحي في المدن الساحلية بعد أن وصل إلى ذروته زمن الصليبيين، فلاذ هؤلاء بالمرتفعات الشمالية العالية، وفي مقدمهم الموارنة ومعهم بعض الصليبيين الذين لم تسنح لهم الظروف بالرحيل وقت الجلاء الصليبي فاعتنقوا المارونية كما اعتنقها من قبل بعض العائلات العربية المسيحية المناهضة للحكم الإسلامي. فلا غرو أن نشاهد عائلات هاشم، الخازن، مركيس، الكيال، ملحمة، ... التي تنتمي بجذورها إلى القبائل العربية العريقة، إلى جانب عائلات فرنجية المأخوذة من لفظة إفرنج، وصليبي من الصليبيين، وصوايا من صافوا Savoa، والدويهي من دو دوي De Douai، حتى أصبحت المارونية خليطاً من الناقمين على الحكم المملوكي ثم الحكم العثماني بعده، عندما دخلتها عائلات عربية أخرى ارتدت عن الدين الإسلامي مثل شهاب وللمع... وبذلك تحولت الأقلية المارونية غير العربية إلى أكثرية مارونية عربية.

---

(1) صالح بن يحيى. تاريخ بيروت، ص ٣٠، ١٧٩. اسطفان الدويهي. تاريخ الأزمنة، ص ٢٦١، ٢٦٢.

(2) اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ١٣٦٩؛ يوسف داهر، بطاركة الموارنة، ص ٢٧، ٢٨.

وبوفاة ملك قبرص سنة ٧٧١/١٣٦٩، زالت آخر شخصية من شخصيات الحروب الصليبية التي تحركت على أساس كبير من التعصب الديني.

٤ ـ فشل أسطول جنوى في احتلال بيروت (٧٨٤/ ١٣٨٢):

طمع أسطول جنوى في احتلال بيروت، فعاد إليها ثانية سنة ٧٨٤/١٣٨٢، بعد أن دخل صيدا. لكن سرعة تحرك عساكر دمشق لنجدة بيروت، أفشل الهجوم. فعمد أسطول جنوى للحيلة والخداع، فتظاهر بالانسحاب نحو جزيرة قبرص فعادت العساكر إلى دمشق ولكنها احتاطت للأمر فتركت في بيروت، فرقة بقيادة جمال الدين الهملاني، وهو مقدم ألف. وعندما عادت السفن الجنوية وعددها اثنا عشر ودخلت ميناء بيروت بغية الاحتلال، جوبهت بمقاومة عنيفة، اضطرت معها للفرار نحو جزيرة قبرص[١].

وفي هذه السنة أيضاً ٧٨٤/١٣٨٢، سقطت دولة المماليك الأولى ليبدأ حكم دولة المماليك الثانية مع السلطان الظاهر برقوق.

---

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٢، ١٩٥.

نشأة دولة المماليك الثانية ومواجهة خطر تيمورلنك
(٧٨٤ ـ ٨٠٨/ ١٣٨٢ ـ ١٤٠٥)

ذاع صيت المماليك الجراكسة «البرجية» في قتال المغول والانتصار عليهم سنة ٧٠٢/ ١٣٠٣، حتى تراجع خطرهم مع العصر الصليبي خلال القرنين الثامن الهجري/ الرابع عشر للميلاد. ومنذ ذلك الوقت، وقوة الجراكسة تتعاظم في مصر وبلاد الشام حتى تمكنوا من تأسيس دولة المماليك الثانية سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢. وقد فوجئت هذه الدولة عند بداية نشأتها بالخطر المغولي، وكأنه يخرج من تحت الرماد بقيادة تيمورلنك الذي ما لبث أن توفي سنة ٨٠٨/ ١٤٠٥، ليتحول الخطر المغولي إلى مجرد ذكرى

١ ـ تأسيس دولة المماليك الثانية (٧٨٤/ ١٣٨٢):

لم يكن مفهوم وراثة السلطة راسخاً في أذهان المماليك عند تأسيس دولتهم الأولى سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠. ربما ما يفسر لجوء السلطان قلاوون سنة ٦٨٠/ ١٢٨١ إلى تأسيس فرقة مملوكية جميع أعضائها من الجراكسة الذين أسكنهم في أبراج القلعة ليعرفوا بالبرجية، وقد بلغ عدد أفراد هذه الفرقة حوالي ثلاث آلاف وسبعمائة مملوك في نهاية عهده[1]، مما ساعده في حصر السلطة في البيت القلاووني، وتولى ابنه الأشرف خليل سنة ٦٨٩/ ١٢٩٠، ليتابع خطة والده في الاعتماد على المماليك الجراكسة فاشترى حوالي الألفين منهم خلال الفترة القصيرة التي قضاها في السلطنة. وقد أدى ذلك الأمر إلى اغتياله سنة ٦٩٣/ ١٢٩٣ على يد أحد الأتراك المتعصبين للجراكسة ويدعى كتبغا الذي ما

(١) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٢١٤

ثم رأى عين نائباً للسلطنة[1] بعد تنصيب الناصر محمد، شقيق الأشرف خليل، وعمره تسع سنوات.

أقصى السلطان الناصر محمد العزيز بيد كتبغا الذي اضطهد الجراكسة بعد عزل الناصر وإعلان نفسه سلطاناً تحت اسم العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ ـ ٦٩٦/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦م). ثم تمكن حسام الدين لاجين من خلعه ليتولى السلطنة مكانه تحت اسم السلطان المنصور لاجين (٦٩٦ ـ ٦٩٨/١٢٩٦ ـ ١٢٩٨). انتهز الجراكسة الفرصة، فتمكن أحد قادتهم ويدعى كرجي من قتل السلطان لاجين وإعادة السلطنة إلى الناصر محمد بن قلاوون ليتولاها للمرة الثانية (٦٩٨ ـ ٧٠٨/ ١٢٩٨ ـ ١٣٠٨م). وذاع صيت الجراكسة في قتال المغول والانتصار عليهم سنة ٧٠٢/ ١٣٠٢م[2]. مما مهد السبيل لتنحي السلطان الناصر محمد[3] وتنصيب زعيم الجراكسة ركن الدين بيبرس الجاشنكير تحت اسم السلطان المظفر (٧٠٨ ـ ٧٠٩/ ١٣٠٨ ـ ١٣٠٩م). لكن المظفر بيبرس ما لبث وأن تخلى عن السلطنة أمام قوة الناصر محمد الذي استعاد السلطنة للمرة الثالثة. وفي هذه المرة التي استمرت حوالي ثلاث وثلاثين سنة (٧٠٩ ـ ٧٤١/ ١٣٠٩ ـ ١٣٤١م)، عمد الناصر إلى إضعاف الجراكسة بعد قتل بيبرس وإيقاع السجن خمسة عشر أميراً من أمرائهم[4] وإلغائه منصب نائب السلطنة؛ مستبداً وحده بالسلطنة[5] التي أعادها إلى البيت القلاووني بعد حصرها في أولاده وأحفاده حتى سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢ وتعتبر هذه السنة بداية دولة المماليك الثانية.

ذلك أن الجراكسة، رغم ما حل بهم استمروا يمثلون قوة عسكرية وخاصة في ظل التدهور الاقتصادي والإداري الذي عرفته السلطنة زمن أحفاد الناصر محمد في الفترة (٧٦٤ ـ ٧٨٤/ ١٣٦٢ ـ ١٣٨٢م)[6] رغم المنصور محمد

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٤٢.
(2) المصدر نفسه، جـ ٨ ص ١٦٠، ١٦١.
(3) المصدر نفسه، جـ ٨ ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠.
(4) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ١٥٤.
(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٩ ص ١٤١.
(6) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٣ ص ١٢، ١٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٤١٣.

والأشرف شعبان والمنصور علي والصالح حاجي، وقد ساهم هذا التدهور في ظهور برقوق الذي خطط لاعتلاء السلطنة بكل روية ودهاء، فتخلص من المنافسين بعد أن تقرب من الشعب الذي يئن تحت وطأة الضرائب والمكوس. ثم عمد إلى إضعاف نفوذ المماليك الأتراك «البحرية» وتدعيم أنصاره المماليك الجراكسة «البرجية» الذين آلت إليهم المناصب الكبرى في بلاد الشام سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م[١]. وما إن حلت سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م حتى أضحى الخليفة العباسي والأمراء والقضاة ألعوبة بيده، فتمكن من خلع السلطان حاجي بن شعبان ليتسلم السلطنة مكانه[٢]. وبذلك نجح السلطان الظاهر برقوق في القضاء نهائياً على فكرة حصر السلطنة وراثياً في بيت قلاوون وبدأت معه دولة المماليك الثانية[٣] التي يغلب عليها سيطرة الجراكسة «البرجية». والحقيقة أن السلطنة كادت تفلت من يد السلطان الظاهر برقوق عندما استعاد الصالح حاجي بن شعبان السلطنة للمرة الثانية سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، وهو آخر سلاطين البيت القلاووني، لكن دعم الجراكسة أعاد الظاهر برقوق للسلطنة للمرة الثانية (٧٩١ - ٨٠١هـ/١٣٨٩ - ١٣٩٨م)، ليخلفه ابنه الناصر فرج بن برقوق في فترة حكمه الأولى (٨٠١ - ٨٠٨هـ/١٣٩٨ - ١٤٠٥م). وفي عهديهما الذي تميز بحركة السلطنة والقضاء على نفوذ الأتراك «البحرية» تعرضت بلاد الشام لظهور الخطر المغولي مجدداً على يد تيمورلنك.

٢ - السلطان الظاهر برقوق يواجه تيمورلنك عند البيرة:

كان المغول في حالة من الضعف نتيجة الضربات المتلاحقة التي تعرضوا لها على يد سلاطين دولة المماليك الأولى، حتى خيل للمشرق العربي الإسلامي وكأنه تخلص من خطرهم سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٢م. لكن ظهور الزعامة الكاريزمية بينهم من فترة لأخرى، كانت تعيد امتداد إمبراطوريتهم عن طريق

= ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ص ١٩١، ٢٤٠ - ٢٤٩.

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٣ ص ٣٩٤. ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١ ص ٢٤٨.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٣ ص ٤٧٤.

(٣) راجع الملحق رقم (١) ويتضمن أسماء جميع سلاطين دولة المماليك الثانية.

العنف والرعب. ومع نشأة دولة المماليك الثانية، وفي عهد أول سلاطينها الظاهر برقوق (٧٨٤ ـ ٨٠١/ ١٣٨٢ ـ ١٣٩٨)، ظهر الخطر المغولي من جديد بزعامة تيمورلنك الذي كان يؤسس امبراطورية في وسط وغرب آسيا عاصمتها سمرقند. لذلك أرسل كتاباً إلى الظاهر برقوق يطلب فيه تسهيل الحركة التجارية وإقامة علاقة صداقة بين البلدين، لكن السلطان المملوكي استخف بالقائد المغولي ورد عليه بإعدام رسله.

زحف المغول بقيادة تيمورلنك، فاجتاحوا بغداد سنة ٧٩٥/ ١٣٩٣، واحتلوا العراق والرها، وتعرض الأهالي للقتل والسبي. وأرسل تيمورلنك كتاباً ثانياً إلى الظاهر برقوق، مملوءاً بالتهديد والوعيد، وينكر عليه قتل رسله[١]. فرد عليه الظاهر برقوق بكتاب مماثل، وأخذ يستعد لمواجهة الخطر المغولي، بتوفير المال اللازم للجيش[٢].

اتجه الظاهر برقوق بالجيش المملوكي نحو البيرة، حيث أحرز انتصاراً في معركة غير فاصلة مع تيمورلنك الذي اضطر للانسحاب إلى سمرقند بعد أن تعرضت لغزو طقتمش زعيم القبجاق.

٣ ـ السلطان الناصر فرج والقضاء على ثورة أمراء الشام:

رغم ما فعله الظاهر برقوق من مواجهة خطر تيمورلنك، وترسيخ دعائم دولة المماليك الثانية بتقديم الجراكسة «البرجية» على الأتراك «البحرية» حتى بلغ عددهم حوالي خمسة آلاف مملوك جركسي في نهاية عهده، فإن هؤلاء الجراكسة أصبحوا مصدر قلق وخوف للسلطان نفسه الذي أمضى حتى وفاته سنة ٨٠١/ ١٣٩٨[٣] وكأنه سجين القلعة لا يبارحها خشية تعرضه للاغتيال.

وحسب وصية الظاهر برقوق، خلفه ابنه الناصر فرج في فترة حكمه الأولى (٨٠١ ـ ٨٠٨/ ١٣٩٨ ـ ١٤٠٥) التي تميزت بالتنافس بين أمراء المماليك

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٣ ص ٧٨٦.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٣ ص ٨٦٢، ٨٦١، ٨٦٦.
ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٣٠٢، ٣٦٧.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٢.

في القاهرة لينعكس على أمراء الشام الذين أعلنوا الثورة تحت راية نائب دمشق ومعه الأمير أيتمش الخاصكي[1] وتمكن السلطان الناصر فرج من القضاء على الثورة حتى قيل إنه ذبح في ليلة واحدة أربعة وعشرين أميراً، وشنق أربعة أمراء منهم تنم وأيتمش[2]. ثم عاد إلى القاهرة.

٤ ـ اجتياح تيمورلنك لبغداد وبلاد الشام:

ما إن وطد الناصر فرج سلطته في بلاد الشام، حتى تحرك الخطر المغولي من جديد، فاجتاح تيمورلنك مدينة بغداد، ليفر حاكمها ابن أويس[3] ورافقه قرا يوسف صاحب دلغادر. واستعد تيمورلنك للزحف نحو بلاد الشام كما فعل هولاكو قبل أكثر من قرن وثلث القرن، مما شكل تهديداً فعلياً للحدود الشمالية في السلطنة المملوكية، وللدولة العثمانية الناشئة في آسيا الصغرى. أدرك العثمانيون مدى خطورة الزحف المغولي فأرسل بايزيد الأول (٧٩١ ـ ٨٠٤هـ/١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م) كتاباً للناصر فرج سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، يعرض فيه إقامة حلف عسكري لمواجهة تيمورلنك، فلم يلق آذاناً صاغية. وهذا الوضع ساعد في انتصار تيمورلنك على الاثنين معاً

زحف تيمورلنك نحو بلاد الشام، فاحتل عينتاب، وعندما وصل إلى حلب أرسل كتاباً للناصر فرج يطلب منه الإفراج عن أطلمش وهو أحد القادة المغول، فرد السلطان المملوكي بقتل الرسل، دون الاستعداد التام لملاقاة تيمورلنك، في الوقت الذي اشتد فيه صراع الأمراء المماليك حول السلطة والنفوذ، مما سهل زحف المغول نحو حلب التي استبيحت أربعة أيام قتلاً وانتهاباً ونهباً وتدميراً، مما أدى لمقتل حوالى العشرين ألفاً[4]. وتعرضت حماة للمصير نفسه. وهنا تحرك الناصر فرج بجيشه نحو بلاد الشام، فوصل غزة

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١٢ ص ١٨٠.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١٢ ص ١٩١.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٣٢٤.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١٢ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨.

ثم دمشق، فأرسل تيمورلنك يعرض الصلح مقابل تبادل إطلاق سراح الأسرى مع الأمراء المماليك الأسرى لديه، فرفض السلطان المملوكي. تابع تيمورلنك زحفه سنة ٨٠٤/ ١٤٠٠م، فاتجه نحو بعلبك وخرب قلعتها، فهرب سكان البقاع وخاصة الشهابيين في وادي التيم. وتوجهت فصائل مغولية نحو الساحل، ولم تعمد إلى تخريب مدنه، بل اكتفت بالحصول على أموال الفدية من بيروت وطرابلس وصيدا.

وما لبث السلطان الناصر فرج أن عاد إلى القاهرة لخوفه من مؤامرة بعض الأمراء الذين انسحبوا خلسة من الجيش واتجهوا نحو القاهرة ومعهم ألف مملوك[1]. وبعد أن قضى السلطان على المؤامرة في القاهرة، فرض تدابير مالية أرهقت كاهل الأهالي والتجار، تحت ستار تجهيز حملة عسكرية للعودة إلى دمشق والدفاع عنها ضد تيمورلنك. لكن الناصر فرج عدل عن خطته، وارتأى البقاء في القاهرة، فلم تخرج الحملة إلى حيّز التنفيذ.

وبذلك سنحت الفرصة أمام تيمورلنك ليتجه نحو دمشق سنة ٨٠٤/ كانون الأول ١٤٠٠م، وكان يتولى الدفاع عنها جيش مملوكي قليل العدد ودون قائد، يسانده الأهالي بانتظار وصول نجدة السلطان من القاهرة. حاول تيمورلنك استغلال هذا الوضع ومهاجمة دمشق، لكنه مني بالهزيمة أمام صمود الجيش والأهالي.[2] فعمد إلى الحيلة وأظهر رغبته في عقد الصلح، فاضطر الأهالي لإرسال وفد يضم القاضي إبراهيم بن مفلح وابن خلدون، والإذعان لشروط تيمورلنك مقابل الصلح[3]. فحلت دمشق تحت حماية تيمورلنك فأخذ يجبي الأموال الطائلة من الأهالي بالضرب وبالمصادرة، وعندما أيقن من عجزهم نكث عهده كالعادة، فقبض على القاضي إبراهيم بن مفلح[4] الذي لعب دوراً بارزاً في تسهيل دخوله إلى دمشق، وانتشر المغول في داخل المدينة.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١٢ ص ٢٣٥. ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٣٥.
(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٣ ص ١٠٤١.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٢٩.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٦٢٢، ٣٣٣.

استبيحت دمشق مدة تسعة عشر يوماً، فتعرض الأهالي لضروب من الوحشية والهمجية، حيث كانت تفض البكارات، ويلاط الرجال، وتلف الأنوف بقطعة قماش مملوءة تراباً. وبعد سبي النساء والأطفال، أضرم المغول النار في المدينة حتى أتت عليها[1] وبذلك تعرضت دمشق لأبشع كارثة في تاريخها، لا تزال حتى يومنا هذا مضرباً للأمثال. كما تعرضت بلاد الشام لأزمة اقتصادية لم تشهد مثيلاً لها، بعد إفراغ القرى من السكان وتدهور الزراعة وانقراض الماشية، وتوقف التجارة مع العراق وآسيا الصغرى التي تعرضت بدورها لاجتياح تيمورلنك بعد أن أنزل هزيمة ساحقة بالدولة العثمانية الناشئة، وتم أسر بايزيد الأول في أنقرة سنة ٨٠٥/١٤٠٢.

٥ ـ انتهاء خطر المغول بوفاة تيمورلنك (٨٠٨/١٤٠٥):

يمكن القول، أن ظهور تيمورلنك أعاد إلى أذهان المشرق العربي الإسلامي صورة الغزو المغولي زمن هولاكو. فلا عجب أن يدب الخوف والرعب داخل مصر التي لم يغزوها تيمورلنك، فبمجرد عودة السلطان الناصر فرج بن برقوق من دمشق نحو غزة في طريقه نحو القاهرة للقضاء على المؤامرة التي دبرت ضده، خيل لأهالي القاهرة أن الهزيمة قد حلت به على يد المغول، وأن هؤلاء الغزاة يحثون السير نحو القاهرة، لذلك استعدوا للهرب[2]

لا غرو بعد ذلك كله، أن يطلق على تيمورلنك اسم الفتاك الأعرج الدجال، لأنه سعى في الأرض وأفسد فيها شرقاً وغرباً وهو يمشي على ساق وعصا، فأهلك الحرث والنسل[3]، مما حمل السلطان المملوكي برضخ لشروطه حتى قبل أن يسك عملة في مصر تحمل اسم تيمورلنك. وهكذا اهتز المشرق العربي الإسلامي نتيجة الخطر المغولي وموقف السلطان الناصر فرج بن برقوق الذي أظهر التخاذل والضعف.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.
ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٣٣٩، ٣٣٥.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١٢ ص ١٤٦.

(٣) ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، جـ ٢ ص ٢.

كان تيمورلنك يحلم بضم مصر بعد الشام، لكن وفاته سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م بددت أحلامه وأعادت الهدوء والطمأنينة إلى بلاد الشام، وأنقذت مصر من اجتياح مغولي لو تم لا تجد سلطاناً يتصدى له، كما حصل في عين جالوت قبل قرن ونصف القرن. كما أنقذت المشرق العربي الإسلامي من كارثة مروعة.

ورغم ما أصابها من الضعف والانهيار، تحولت دولة المماليك الثانية إلى غزو جزيرتي قبرص ورودس

المماليك وتحرير قبرص وغزو رودس
(٨٢٧ ـ ٨٤٧/ ١٤٢٤ ـ ١٤٤٤)

إذا كان ساحل بلاد الشام قد نجا من غزو المغول، إلا أن الجنويين استغلوا موجة الرعب والخوف التي انتشرت مع ظهور تيمورلنك، وغزوا المدن الساحلية بما فيها بيروت سنة ٨٠٦/ ١٤٠٣. ورغم الضعف الذي أصاب دولة المماليك الثانية، فقد تمكن الأشرف برسباي من تحرير جزيرة قبرص سنة ٨٢٩/ ١٤٢٦، كما تمكن السلطان جقمق من إرسال عدة حملات لغزو جزيرة رودس.

١ ـ حملة بوسيكو على ساحل مصر والشام (٨٠٦/ ١٤٠٣):

سيطر المماليك بالاتفاق مع تجار البندقية على التجارة العالمية، وأصبحت بيروت والإسكندرية مركزاً رئيسياً لهذه التجارة، بعد أن تراجع دور فماغوستا. لذلك تحرك أمير البحر بوسيكو وهو من أصل فرنسي، على رأس الأسطول الجنوي الذي يتألف من ست وأربعين سفينة، للانتقام من المماليك في مصر، لكنه تعرض للفشل أمام السلطان الناصر فرج. وهذا ما دعاه للتوجه بأسطوله نحو الساحل الشامي سنة ٨٠٦/ ١٤٠٣، وفشل في احتلال طرابلس. ثم توجه نحو بيروت التي تمكن من احتلالها يوماً واحداً حتى العصر[1]، فتعرضت الأماكن القريبة من المرفأ للنهب والحريق، قبل أن يغادر الأسطول الجنوي نحو صيدا حيث تعرض للفشل بسبب وصول النجدة من دمشق وكان في مقدمتها أمير دمشق سودون الظريف.[2] وبذلك انسحب الأسطول الجنوي نحو بلاده.

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٢، ٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣، ٣٤.

ورغم فشلها، أدركت جنوى أهمية إقامة العلاقات التجارية مع دولة المماليك الثانية، فعقدت الصلح مع السلطان مقابل دفع ثلاثين ألف دوكة.

ومع ذلك كان الأسطولان القبرصي والروديسي، الأشد قرصنة في البحر المتوسط، مما ينزل الضرر بالحركة التجارية. لكن الصراع حول السلطة والنفوذ داخل دولة المماليك الثانية، أدى إلى تأخير المواجهة مع جزيرة قبرص حتى عهد السلطان الأشرف برسباي ومع جزيرة رودس حتى عهد السلطان جقمق.

٢ ـ الصراع بين الأمراء المماليك (٨٠٨ ـ ٨٢٥/١٤٠٥ ـ ١٤٢٢):

أدى الغزو المغولي بقيادة تيمورلنك واحتلال أسطول جنوى لمدينة بيروت يوماً واحداً، إلى تدهور الوضع داخل السلطنة المملوكية. وقد اضطر الناصر فرج بن برقوق للتخلي عن الحكم والاختفاء مدة شهرين وعشرة أيام في سنة ٨٠٨/١٤٠٥ حيث تولى السلطنة أخوه عبد العزيز. ومع عودته إلى الحكم تم يتمكن الناصر فرج من إحكام قبضته على أمراء الشام الذين خرجوا على طاعته سنة ٨١١/١٤٠٨ وزحفوا نحو القاهرة بقيادة شيخ المحمودي ونوروز. ورغم فشل الزحف[1]، إلا أن البلاد عانت من الصراع الدموي بين هذين الأميرين والسلطان حول السلطة والنفوذ طيلة أربع سنوات، لينتهي الأمر بهزيمة الناصر فرج سنة ٨١٥/١٤١٢، فأودع سجن قلعة دمشق، حيث دخل عليه بعض المماليك وقتلوه طعناً بالخناجر[2]. فتسلم السلطة الخليفة العباسي المستعين لفترة قصيرة قبل أن يعلن شيخ المحمودي نفسه سلطاناً تحت اسم المؤيد شيخ المحمودي[3] (٨١٥ ـ ٨٢٤/١٤١٢ ـ ١٤٢١).

اتبع السلطان المؤيد شيخ، سياسة العنف والقتل في التخلص من الأمراء المنافسين وفي مقدمهم نوروز، ليحكم قبضته على البلاد. ومع ذلك فشل في حصر السلطة في أفراد عائلته. فبعد وفاته سنة ٨٢٤/١٤٢١، تولى السلطنة ابنه

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٣٤٦.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٦، ص ٣٣٣، ٤١٤.

ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٣٥٦.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١ ص ٣٥٨.

المظفر أحمد كمدة أشهر، قبل أن يخلعه الأتابك سيف الدين ططر ليتولى السلطنة تحت لقب الظاهر، ثم تولى بعده ابنه محمد بن ططر، حتى آلت السلطنة في السنة التالية ٨٢٥/ ١٤٢٢ إلى الأشرف برسباي (٨٢٥ ـ ٨٤١/ ١٤٢٢ ـ ١٤٣٧).

٣ ـ الأشرف برسباي وتحرير قبرص (٨٢٧ ـ ٨٢٩/ ١٤٢٤ ـ ١٤٢٦):

مع تولي الأشرف برسباي السلطنة المملوكية، كانت الدولة العثمانية تحت حكم مراد الثاني (٨١٤ ـ ٨٥٥/ ١٤١١ ـ ١٤٥١) الذي حاول دك أسوار القسطنطينية بالمدافع الثقيلة. مما يعني انتقال الشرق الإسلامي من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ضد الغرب المسيحي، وخاصة بعد انحسار الصليبية عن هذا الشرق خلال القرنين الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، حتى تحقق انتصار الهلال على الصليب في القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، فحرر الأشرف برسباي جزيرة قبرص سنة ٨٢٩/ ١٤٢٦، ونجح السلطان العثماني محمد الثاني في فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧/ ١٤٥٣.

كان صاحب قبرص يظهر المصالحة للمسلمين، وهو في الحقيقة متواطئ مع القرصنة الصليبية التي لم تتوقف غاراتها على السواحل الشامية. لذلك تحولت بيروت إلى قاعدة لغزو جزيرة قبرص، فتجمعت بها السفن الآتية من دمياط وطرابلس سنة ٨٢٧/ ١٤٢٤، وتمكنت من دخول بالمعروف (ليماسول) حيث أسرت خمسة وعشرين رجلاً وامرأة وطفلاً. وفي سنة ٨٢٨/ ١٤٢٥ انطلق الأسطول المملوكي من بيروت وهو يضم أربعين من مختلف القطع البحرية واتجه نحو جزيرة قبرص، ثم نزل في مكان يسمى رأس العجوز، وفي مكان آخر قرب الماغوصة[1]. كان الأمير صالح بن يحيى صاحب كتاب «تاريخ بيروت» ضمن هذه الحملة التي تمكنت من إنزال الهزيمة بالجيش القبرصي الذي يضم سبعمائة فارس وثمانية آلاف من المشاة بقيادة الأمير كند اصطبل وهو شقيق ملك قبرص. وعاد الأسطول المملوكي إلى دمياط[2]، ومعه سبعمائة أسير دخل بهم القاهرة في احتفال شعبي كبير. وقد

(1) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢١٥.
(2) المصدر نفسه، ص ٢١٦.

أنعم السلطان الأشرف برسباي على الأمير صالح بن يحيى بمائتي دينار ذهب وخلعة.

وسنة ٨٢٩/١٤٢٦، تمكن السلطان الأشرف برسباي من تحرير جزيرة قبرص، وأسر ملكها جانوس وبعه ألوف الأسرى. وعادت الحملة لتدخل القاهرة في احتفال كبير[1].

٤ ـ السلطان جقمق وغزو رودس (٨٤٢ ـ ٨٤٧/١٤٤٠ ـ ١٤٤٤):

أما السلطان جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٧/١٤٣٨ ـ ١٤٥٣) فأرسل عدة حملات لغزو جزيرة رودس في الفترة (٨٤٢ ـ ٨٤٧/١٤٤٠ ـ ١٤٤٤)، ومن بينها حملة سنة ٨٤٦/١٤٤٣، التي أقلعت من دمياط بمصر واتجهت نحو بيروت وطرابلس لتنضم إليها القوات الشامية. ومع ذلك لم تحقق هذه الحملات فتح رودس كما حصل في قبرص.

وفي تلك الأثناء، كانت الدولة العثمانية قد تأسست على يد عثمان، وبدأت التوسع في آسيا الصغرى وجنوب شرق أوروبا، لتتجه الأنظار إليها خاصة بعد قيام السلطان محمد الثاني بفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧/١٤٥٣ ليعرف بالفاتح، وبعد تمكن السلطان سليم الأول من إنزال الهزيمة بالدولة الصفوية في إيران سنة ٩٢٠/١٥١٤، والقضاء على دولة المماليك الثانية في مصر والشام سنة ٩٢٣/١٥١٧.

---

(1) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢١٩ ـ ٢٤٧.

السلطان العثماني محمد الثاني وفتح القسطنطينية

(٨٥٧هـ/ ٢٩ أيار ١٤٥٣)

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة أرطغرل التركية التي احتلت الأناضول بعد تهديد الخطر المغولي على آسيا الوسطى. وعرفوا بالعثمانيين نسبة إلى عثمان مؤسس دولتهم أواخر القرنين السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد.

أما لفظة ترك (تو ـ كيو في الصينية)، فقد ظهرت لأول مرة في القرن السادس للميلاد حين قامت قبيلة الأغوز (الغز باللغة العربية)[1] بتوحيد جميع القبائل في امبراطورية واحدة امتدت من منغوليا وشمال الصين حتى البحر الأسود. واقتسم الأخوان تومين (ت ٥٥٢ م) واستامي (ت ٥٧٦ م) حكم الإمبراطورية، فتولى الأول أتراك الشمال، والثاني أتراك الغرب. ثم خضعت المملكتان لأسرة تانغ الصينية (٦١٨ ـ ٩٠٧ م)، لكن أتراك الشمال ما لبثوا أن استقلوا سنة ١٢٧/ ٧٤٤.

وكان الأتراك «الغز» قد دخلوا العالم الإسلامي في نهاية القرنين الرابع

---

(١) من أشهر القبائل التركية التي خرجت بعد الترك الغز: كانت القرلوق في القرن الرابع للميلاد والتركش، التي اتخذ زعماؤها لقب خاقان في أواخر القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن للميلاد، حيث قضى عليهم العرب بقيادة نصر بن سيار سنة ١٢١/ ٧٣٩، وقبائل الخزر في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد، [illegible]، وقبائل الأويغور والقرغيز في القرنين الثامن والتاسع للميلاد حيث توالى كل منهما على حكم منغوليا، [illegible]، وقبائل البجناك الذين حلوا في البلاد التي جلا عنها الغزية على نهر سرداريا (سيحون) [illegible] في القرن العاشر للميلاد، وكانوا سنة ٤٢٦/ ١٠٣٤ [illegible] في القرن الحادي عشر أيضاً، ثم قبائل الكومان [illegible] في القرن الثاني عشر للميلاد.

للهجرة/العاشر للميلاد، والسلاجقة ينتمون إلى هؤلاء الغزّ، وقد أقاموا إمبراطورية واسعة تمتد من تركستان الصينية حتى بلاد الشام ثم انكمشت هذه الإمبراطورية شيئاً فشيئاً حتى كانت الضربة الأخيرة على يد المغول الذين أنزلوا الهزيمة بالسلاجقة في معركة كوزداغ سنة ٦٤١/١٢٤٣، ودمروا ما أقامه السلاجقة من وحدة اقليمية وبشرية في آسيا الصغرى (الأناضول). واكتفى المغول بالسيطرة على المدن الكبرى التي حافظت على التقاليد العمرانية السلجوقية.

١ ـ تأسيس الدولة العثمانية (٦٨٧ ـ ٧٢٦/ ١٢٨٨ ـ ١٣٢٦):

اندفع عدد كبير من التركمان تحت ضغط المغول، نحو غرب الأناضول إلى الحدود البيزنطية، وأقاموا الإمارات التركمانية العديدة بعيداً عن النفوذ المغولي، واتخذت هذه الإمارات تفرض صفتها التركية في ظل الإسلام على المذهب السني. ويرجع الفضل للسلاجقة في تحويل الأناضول من بلاد بيزنطية مسيحية إلى بلاد تركية إسلامية. ومن هؤلاء الأتراك كانت قبيلة أرطغرل التي هاجرت مثل غيرها من القبائل التركمانية بعد اشتداد الخطر المغولي على آسيا الوسطى، ودخلت الأناضول ثم اندفعت نحو غربه.

وقد ساعد أرطغرل السلاجقة في حربهم فكافأه السلطان السلجوقي علاء الدين بإقطاع من السهول الغنية على الضفة اليسرى لنهر سقاريا. وكان أرطغرل يتبع في القتال أسلوباً يعتمد على دفع قوات غير نظامية لإثارة الشغب والفوضى في صفوف العدو، ثم يرسل وراءها القوات النظامية للإجهاز على هذا العدو.

ورث عثمان (٦٨٧ ـ ٧٢٦/ ١٢٨٨ ـ ١٣٢٦) الإمارة الصغيرة بعد وفاة أرطغرل ليؤسس الدولة التي حملت اسمه، فسك العملة باسمه وبنى مسجداً وأمر الخطباء بالدعاء له، واهتم بتطبيق الشعائر الإسلامية وحفظ القانون. وانتصر على أول جيش منظم في سنة ٧٠١/١٣٠١، كما أحبط مؤامرة بيزنطية لدفع المغول نحو أملاكه العثمانية، وبلغه وهو على فراش الموت سنة ٧٢٦/١٣٢٦ نبأ استيلاء العثمانيين على مدينة بروسا

٣ ـ التوسع في آسيا الصغرى وجنوب شرق أوروبا (٧٢٦ ـ ٨٥٥/١٣٢٦ ـ ١٤٥١):

اتسعت الدولة العثمانية في عهد خلفاء عثمان الذين عبروا البوسفور نحو أوروبا وأخضعوا البلقان حتى سقطت القسطنطينية سنة ٨٥٧/١٤٥٣.

ومنذ تسلمه الحكم بعد وفاة والده عثمان سنة ٧٢٦/١٣٢٦، قام أورخان بتنظيم الجيش العثماني فكوّن الإنكشارية أو يني تشري، وتعني القوة الحديثة، وهي تتألف من أطفال المسيحيين الذين يؤتى بألف منهم في كل سنة ليتحولوا إلى الإسلام ويتعلموا فنون الحرب. وبذلك تكوّن جيشاً جديداً يدين له بالولاء بعد أن أصبح الجيش القديم مصدر قلق على الدولة. وحافظ على الجيش النظامي وهو يتألف من المشاة الذين يأملون في المعركة لإثارة الذعر في صفوف العدو. وهكذا توسع أورخان واستولى على نيقوميديا سنة ٧٢٦/١٣٢٦، ونيس سنة ٧٣١/١٣٣٠، ثم بيرجاموس. واعترف به الإمبراطور البيزنطي وزوجه ابنته تيودورا دون اعتبار السن والدين. ومع ذلك تابع أورخان فتوحاته وثبّت أقدامه على الجانب الأوروبي من البوسفور واستولى على مدينة غاليبولي سنة ٧٥٦/١٣٥٥، وفشل في فتح القسطنطينية.

ثم تسلم مراد الأول حكم الدولة العثمانية سنة ٧٦١/١٣٥٩، فتمكن من عبور البوسفور نحو أوروبا سنة ٧٦٢/١٣٦٠، واستولى على أدريانوبل التي أصبحت عاصمة العثمانيين في أوروبا التي تكتلت لصد الخطر العثماني خاصة بعد دعوة البابا أوربان الخامس إلى حرب صليبية بسبب سياسة جمع أبناء المسيحيين بعد انتزاعهم من أهلهم وتحويلهم إلى الإسلام لتزويد الإنكشارية بهم، فضلاً عن سياسة انتشار الجاليات التركية والعربية المسلمة داخل البلقان. ومع ذلك أنزل العثمانيون الهزيمة بالمجر وحلفائها الصرب والبوسنة والأفلاق عند نهر ماريتزا وخضعت بلغاريا للنفوذ العثماني.

وفي عهد بايزيد الأول (٧٩١ ـ ٨٠٥/١٣٨٩ ـ ١٤٠٢) تمكن العثمانيون من إخضاع الصرب والأفلاق سنة ٧٩٤/١٣٩١، فانضمت إلى أملاكهم. وخشي

بايزيد فرحا بلقب «أمير» الذي أطلق على حكام آل عثمان، فسعى لدى الخليفة العباسي للحصول على لقب السلطان.

ثم قاد الكونت دو نيفير الفرنسي حملة صليبية من ستين ألف رجل لتخليص بيت المقدس من المماليك، واشترك في الحملة بعض الألمان وفرسان رودس (القديس يوحنا) وفرسان بافاريا وأكبر الأفلاق فسقطت المدن التركية تباعاً أمام هذه الحملة التي وصلت إلى نيكوبوليس حيث حقق العثمانيون انتصاراً ساحقاً. ولم يكتف بايزيد بهذا النصر بل عمد إلى حصار القسطنطينية التي نجت من السقوط بفضل الخطر المغولي الذي ظهر من جديد تحت زعامة تيمورلنك. مما اضطر بايزيد لرفع الحصار عن القسطنطينية وملاقاة تيمورلنك في أنقرة سنة ٨٠٥/ ١٤٠٢، حيث هزم بايزيد وأسر مع ابن له، وقيل أن المغول حملوه في قفص، ثم مات في الأسر. وسمح تيمورلنك لابن بايزيد بالذهاب بجثة أبيه ودفنها في بروسا. وبعد معركة أنقرة انسحب تيمورلنك عائداً إلى سمرقند.

وما لبث العثمانيون أن تخلصوا من الخطر المغولي بعد وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٨/ ١٤٠٥.

قام النزاع بين أبناء بايزيد حول الحكم في الفترة (٨٠٥ - ٨١٦/ ١٤٠٣ - ١٤١٣) حتى ظفر محمد الأول، فأخذ يعمل لإعادة توحيد الدولة وتنظيمها وحلت أدرنة محل بروسا كعاصمة، وكان للمواجهة العسكرية المستمرة أثر كبير في إطلاع العثمانيين على سلاح المدفعية الذي عرفته أوروبا وخاصة منذ توليه الحكم سنة ٨١٦/ ١٤١٣. ليتطور عندما تولى مراد الثاني الحكم سنة ٨٢٤/ ١٤٢١. ففي عهده دخل سلاح المدفعية العثمانية مرحلة جديدة، حيث بدأت الاستعانة بالصناع المهرة من هنغاريا وألمانيا وإيطاليا، وصنعت لهم الأفران الباهظة وأقيمت مصانع الأسلحة قرب ميادين القتال سنة ٨٢٥/ ١٤٢٢، وقد قامت المدفعية العثمانية بدك أسوار القسطنطينية بالكرات ذات الوزن الثقيل. وكانت صناعة هذه المدافع والكرات تتم قرب هذه الأسوار المحاصرة. ومع ذلك لم تسقط القسطنطينية بيد مراد الثاني الذي تمكن من القضاء على البرمنة

والصرب سنة ٨١٨/١٤١٤. ولم يتحقق فتح القسطنطينية إلا على يد محمد الثاني الذي تسلم الحكم سنة ٨٥٥/١٤٥١.

٣ ـ السلطان محمد الثاني وفتح القسطنطينية (٨٥٧/ ٢٩ أيار ١٤٥٣):

تسلم محمد الثاني الحكم سنة ٨٥٥/١٤٥١. وبعد سنتين عمد إلى حصار القسطنطينية، لكن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر سد مدخل الميناء بسلاسل حديدية لمنع عبور السفن العثمانية. واستطاع محمد الثاني نقل أسطوله براً وجَرّ السفن على ألواح خشبية، حتى تمكن من فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧/ الثلاثاء ٢٩ أيار ١٤٥٣ بعد حصار استمر ثلاثة وخمسين يوماً، ودخل كنيسة آيا صوفيا وصلى فيها فتحولت إلى مسجد. وبسبب فتحه للقسطنطينية التي عجز عنها الخلفاء الأمويون والعباسيون، عرف «بالفاتح».

والحقيقة إن النصر ما كان ليتحقق على يد محمد الثاني، لولا امتلاكه سلاح المدفعية. فقد تمكن هذا السلطان من شراء أنوى مدفعية في ذلك الوقت بإشراف خبير أوروبي يدعى «أوربان»، فنشطت صناعة المدافع الضخمة التي يزن بعضها ١٨،٢٥ طن، بطول ٥,١٨ م، وعيار ٠,٦٣ م، تطلق كرات ثقيلة تزن الواحدة أكثر من ٣٦٣ كلغ. وبذلك كان الجيش العثماني يملك ١٣٠ مدفعاً ضخماً و ٦٥ مدفعاً كبيراً، إضافة إلى مدفع عملاق، نوعه ١٦،٠٦٦ م وطوله ٧،٩٢ م، كان يطلق منه سبع طلقات يومياً على أسوار المدينة بين ١٢ نيسان و ٢٩ أيار ١٤٥٣م. وكان يحمل هذا المدفع حوالي مائتي رجل مستعين بستين ثوراً. وكان وزن كل كرة يقذفها ٥٤٣ كلغ. وبعد اطلاق المدفعية العثمانية حوالي أربعة آلاف طلقة تعرضت أسوار القسطنطينية للدمار والهدم، وتمكن محمد الثاني من فتحها.

وبعد فتح القسطنطينية، تحولت البوسنة والهرسك إلى ولاية عثمانية سنة ٨٦٨/١٤٦٣، وكان أهلها من أصل صربي ـ كرواتي، وقد اعتنقوا مذهباً مسيحياً خاصاً عرف بـ «البوجوميلية»، ويختلف عن المذهب الأرثوذكسي السائد في صربيا. وأخذت الدولة العثمانية تشجع هجرة الأتراك والألبان إليها

حتى تحولت إلى الإسلام[١]. أما باقي مناطق البلقان فقد سيطرت عليها الدولة العثمانية أربعة قرون دون أن تنشر الإسلام بين شعوبها الذين بقوا على دينهم، ولم تعتبرها ولايات عثمانية مكتفية بفرض الجزية والضرائب عليها.

كان محمد الثاني أول زعيم من بني عثمان إتخذ لنفسه لقب سلطان[٢]، وبدأ على الأقل يدعي مساواة نفسه بسلاطين المماليك حكام مصر والشام. وأخذ يعمل على الجمع بين التقاليد الإسلامية والتركية والبيزنطية في الزعامة العثمانية الحيوية وجعل القسطنطينية ثالث وآخر عاصمة للعثمانيين، بعد أن أطلق عليها اسم اسلامبول أي عاصمة الإسلام، وتلفظ أيضاً استانبول وإستانبول. وانتشرت الدعايات على أن الحاكم المسلم الأعظم بعد الخلفاء الراشدين رجل من أصل عربي[٣].

والحقيقة، لا يمكن نكران الدور الجهادي الذي قام به السلطان العثماني محمد الثاني الذي لقب بالفاتح لتمكنه من فتح القسطنطينية حصناً منيعاً سنة ٨٥٧/ ١٤٥٣، وهذا حدث تاريخي عجز عنه الفتح العربي الإسلامي زمن الخلافة الأموية والخلافة العباسية وجميع السلطنات غير العربية التي نشأت تحت رايتها بما فيها السلاجقة والأيوبيين والمماليك. لكن هذا الدور الجهادي في آسيا الصغرى وشرق أوروبا إنتهى مع وفاة السلطان محمد الثاني الفاتح، ليتحول إلى دور توسعي وسلطوي عندما بدأت الحرب العثمانية ـ المملوكية الأولى زمن السلطان بايزيد الثاني والتي أعقبها بعد ربع قرن الحرب الثانية التي دخل على أثرها السلطان سليم الأول إلى الشام ومصر.

---

(١) بعد أن تحولت الدولة العثمانية إلى رجل أوروبا المريض أواخر القرن التاسع عشر، تنازلت عن البوسنة والهرسك للنمسا التي احتلتهما حتى جاءت الحرب العالمية الأولى حيث التحقتا بصربيا، وشكلتهما جغرافيا حيث يفصلان بين صربيا وكرواتيا اللتين اقتسمتا بلادهما معاً في رحم البعد الإسلامي وقد دمرت البوسنة والهرسك اللتين طالبا منه ١٩٩٢ (أي وتشريد وتهجير).
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٥ ص ٤٦٤.
(٣) ونتالول: الفتح العثماني للأقطار العربية ص ٥٤، ٥٥.

الحرب العثمانية ـ المملوكية
(٨٩٦ ـ ٩٢٣/١٤٨٦ ـ ١٥١٧)

باندلاع الحرب العثمانية ـ المملوكية سنة ٨٩١/١٤٨٦، انتهى الدور الجهادي لسلاطين خير العرب بمن فيهم العثمانيين الذين وضعوا بأيديهم نهاية هذا الدور، عندما أنزلوا الهزيمة بالدولة الصفوية الشيعية في إيران وأسقطوا دولة المماليك الثانية في الشام ومصر.

١ ـ الحرب العثمانية ـ المملوكية الأولى
(٨٩١ ـ ٨٩٧/١٤٨٦ ـ ١٤٩١):

تولى السلطان بايزيد الثاني السلطنة العثمانية سنة ٨٨٦/١٤٨١، وفي عهده تجلى الصراع العثماني المملوكي، وتحولت القاهرة واسطنبول إلى ملجأ سياسي لكل زعيم يفر من بلاده. وكان بايزيد الثاني قد تغلب على الحكم بعد فوزه على أخيه «جم» الذي التجأ سنة ٨٨٧/١٤٨٢ إلى السلطان المملوكي قايتباي في القاهرة. وأخذ العثمانيون يعملون على تقويض طاقة مصر العسكرية فتحكموا بالطرق التجارية وبمصادر المواد الخام الاستراتيجية كالأخشاب والمعادن، ودمروا المراكز الأساسية التي كانت تؤمن شراء المماليك الفتيان من أسواق البحر الأسود لنقلهم إلى مصر.

وبغزو العثمانيين لمنطقة قيليقية، بدأت الحرب العثمانية ـ المملوكية الأولى (٨٩١ ـ ٨٩٧/١٤٨٦ ـ ١٤٩١)، وتمكن المماليك من إلحاق الهزيمة بالعثمانيين ثلاث مرات دون إحراز نصر حاسم حتى وقعت اتفاقية سلام بينهما سنة ٨٩٧/١٤٩١ وعادت السيادة المملوكية على قيليقية.

ومع ذلك تابع العثمانيون بناء أسطول بحري قوي أظهر كفاءة في مواجهة أفضل الأساطيل الأوروبية، مما جعل المسلمين في حوض البحر المتوسط: يلتمسون المساعدة والحماية لدى العثمانيين، دون أن يقدم المماليك أية مساعدة للعثمانيين في حربهم في أوروبا أو في البحر المتوسط[1]

٢ ـ الحرب العثمانية ـ الصفوية (٩١٤ ـ ٩٢٠/ ١٥٠٨ ـ ١٥١٤):

بدأ الخلاف بين العثمانيين السنة والصفويين الشيعة بقيادة إسماعيل الصفوي سنة ٩٠٨/ ١٥٠٢، وذلك بسبب الصراع حول زعامة العالم الإسلامي. وكان الخلاف المذهبي هو الأداة التي استغلها كل منهما في سبيل تأسيس الامبراطورية التي يحلم بها. فلم يتورع إسماعيل الصفوي عن القيام بمذبحة السنة في بغداد، ليرد السلطان سليم الأول بمذبحة الشيعة في الأناضول، وإنزال الهزيمة بالصفويين في جالديران.

أ ـ مذبحة السنة في بغداد (٩١٤/ ١٥٠٨):

كان إسماعيل الصفوي شاه إيران يتطلع إلى العراق لتوسيع دولته التي يغلب عليها الاقتصاد الجبلي، فوجد في سهول العراق الخصبة توازناً لهذا الاقتصاد، كما وجد في هذه السهول ملجأ لسكان الفرس الذين يتطلعون إلى الهجرة هرباً من قسوة طبيعة الهضبة الإيرانية. كما أن العراق يعتبر منفذاً تجارياً تصل إيران عبره إلى سواحل البحر المتوسط والخليج العربي الإسلامي. ومن الناحية العاطفية كان العراق ولا يزال يضم العتبات الشيعية المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية والسامراء، حيث يعيش جالبات وشهاد من الفرس الشيعة، مهددا بالسيطرة الإيرانية. وهكذا دخل إسماعيل الصفوي إلى بغداد سنة ٩١٤/ ١٥٠٨، وانقض على علماء السنة قتلاً وتشريداً، ورفع من مكانة علماء الشيعة. وشهدت بغداد وغيرها من مدن العراق موجات من الفرس انتشرت معها اللغة الفارسية. وأمر إسماعيل الصفوي ببناء ضريح ضخم على قبر الإمام الشيعي السابع موسى الكاظم الذي يعتبر الأب الروحي للصفويين. لذلك رأى

(١) بلاكوف: الفتح العثماني للأقطار العربية ص ٥٥

سكان العراق من السنة والآشوريين في الدولة العثمانية منقذاً لهم من حكم إسماعيل الصفوي.

ب - مذبحة الشيعة في الأناضول:

بدأت متاعب السلطنة العثمانية تزداد كلما تقدم بايزيد الثاني في السن، فأجبره ابنه السلطان سليم الأول الملقب بالرهيب على التنازل عن الحكم، واعتلى السلطنة سنة ٩١٨/ ٢٤ نيسان ١٥١٢. وقد بدأ حكمه بالقضاء على ثورة أخويه وقتلهما مع خمسة من أبناء أخيه أحمد. ثم وجد الظروف مهيأة لتنفيذ سياسته الرامية إلى السيطرة على العالم العربي الإسلامي، فوجه ضربته الأولى نحو الشيعة في الأناضول، وكان شديد التعصب للمذهب السني، فتمكن من القبض عليهم وقبض على سبعين ألفاً منهم، فقتل أربعين ألفاً في مذبحة رهيبة وأودع الباقين في السجون وشرّد الكثيرين. ثم استعد لمواجهة إسماعيل الصفوي الذي كان يأوي أحد المشاغبين المطالبين بالعرش.

جـ - موقعة جالديران (٩٢٠/ ٢٣ آب ١٥١٤)

وفي مرج جالديران سنة ٩٢٠/ ٢٣ آب ١٥١٤، حلت الهزيمة بالصفويين الذين فقدوا حوالي ٥٠ ألف رجل[1]، ودخل السلطان سليم الأول إلى عاصمتهم تبريز (١٥ أيلول)، ثم انسحب منها إذعاناً لإرادة الجيش العثماني وعاد إلى بلاده. وأمام دهشة العالم الإسلامي كله، حقق العثمانيون نصرهم عن طريق سلاح المدفعية وحملة البندقية، وهذا ما لم يكن الجيش الصفوي مجهزاً بمثله، فاضطر للتراجع إلى داخل الأراضي الفارسية.

وعلى أثر هزيمة الدولة الصفوية قامت الثورة في كردستان العراق بزعامة ذو الفقار وأصله كردي، وقد سيطر على البلاد وأعلن ولاءه للسلطان سليم الأول وضرب السكة باسمه ودعا له في المنابر وخطبة الجمعة. وسنة ٩٢١/ ١٥١٥، حصلت انتفاضة في الجزيرة بقيادة السنة لا سيما الأكراد واستولوا على عاصمتها قره آمد (ديار بكر فيما بعد) وهي مركز ديني وثقافي للآشوريين. ثم وصلت الإمدادات العثمانية بعد انتصار مرج دابق سنة

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٤ ص ٣٩٨

٩٢٢/ ١٥١٦، فتحت الموصل. وبذلك تمت السيطرة على شمال العراق.

وهكذا أخذت القومية ممزوجة بالمذهبية تلعب دورها الرئيسي في الصراع بين الصفويين الفرس الشيعة والعثمانيين الأتراك السنة، ولم ينقطع القتال بينهما مما يدل على الروح القتالية العالية لدى الفريقين، رغم تفوق العثمانيين الذين تمكنوا من توسيع دولتهم لتضم ديار بكر وكردستان. ثم توجه السلطان سليم الأول نحو الشام ومصر لإخضاع دولة المماليك الثانية

٣ ـ الحرب العثمانية ـ المملوكية الثانية (٩٢٢ ـ ٩٢٣/ ١٥١٦ ـ ١٥١٧)

انتهت خطة السلطان سليم الأول بالقضاء على دولة المماليك الثانية، بعد أن أنزل بها الضربة الأولى في مرج دابق التي أعقبها دخول الشام، ثم الضربة الثانية في الريدانية التي دخل على أثرها إلى مصر.

أ ـ موقعة مرج دابق (٩٢٢/ ٢٤ آب ١٥١٦) ودخول الشام:

كانت دولة المماليك الثانية التي نشأت سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢، تسير نحو التفكك والانهيار في أواخر القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد. وكثر النزاع بين أمراء المماليك حول السلطنة حتى آلت الأمور إلى السلطان الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦ ـ ٩٢٢/ ١٥٠١ ـ ١٥١٦) الذي استطاع أن يقضي على الفتن والثورات. وكان النفوذ العثماني يتزايد شيئاً فشيئاً في آسيا الصغرى حيث الإمارات التركمانية، فبدأ الصراع مع المماليك ولكن بصورة خفية تدل على مكر وخداع العثمانيين الذين أخذوا يتدخلون في شؤون الأماكن المقدسة مطالبين بإجراء بعض الإصلاحات على أساس أن السلطان المملوكي هو حامي مكة والمدينة. ثم كشف العثمانيون عن مطامعهم التوسعية في عهد السلطان سليم الأول الذي هزم الصفويين الشيعة في جالديران سنة ٩٢٠/ ١٥١٤، ثم استمال إليه أمراء المماليك في الشام وخاصة خاير بك نائب حلب.

بدأ تنفيذ الخطة العثمانية بنشر الأخبار عن عزم السلطان سليم الأول بمهاجمة الدولة الصفوية براً وبحراً، بينما هو في الواقع يستعد لمواجهة

المماليك. وأرسل نائب حلب خاير بك، رسالة إلى السلطان قانصوه الغوري في القاهرة، ليؤكد هذه الأخبار من أجل صرف المماليك عن الاستعداد لمواجهة العثمانيين، وزيادة في الخديعة أرسل خاير بك رسالة ثانية إلى السلطان قانصوه الغوري يخبره فيها بمجيء رسول من قبل السلطان العثماني للتفاوض في أمر الصلح، وأردف الرسالة بكتاب من السلطان سليم الأول يتودد فيه إليه[1]

ورغم ذلك كله أدرك السلطان قانصوه الغوري خطورة الأمر، وقرر إرسال حملة من ألفين وأربعمائة مملوك نحو حلب في جمادى الثانية ٩٢١/ ١٥١٥م[2]، ودفع لكل مملوك مائة دينار وثمن جمل لمراقبة نتيجة الصراع العثماني ـ الصفوي، والاستعداد حتى لا يفكر المنتصر بالزحف على بلاد الشام ومصر[3]

نزل جيش المماليك في حلب، وضاق بهم أهل المدينة، لكثرة ما ارتكب من التعديات على البيوت ونهبها والاعتداء على النساء. وما لبثت الخديعة أن انكشفت تماماً، عندما تحرك الجيش العثماني نحو مرج دابق[4]. ويبدو أن السلطان قانصوه الغوري كان يخشى خيانة الأمراء جميعهم، وحلفوا جميعاً بأن لا يغدروا به، وحاول الأمير سيباي نائب دمشق أن يكشف خيانة خاير بك نائب حلب، لكن نائب حماه جان بردي الغزالي وكان أيضاً من عملاء العثمانيين، أقنع السلطان المملوكي بعدم الاعتقال بحجة الحفاظ على وحدة الجيش.

عرف المماليك استعمال المدفعية قبل العثمانيين بثلاثة أرباع القرن. إلا أنهم لم يستخدموا المدافع سوى في عمليات الحصار كسلاح دفاعي وهجومي، ورفضوا استعماله في ساحات القتال حيث اعتمدوا على سلاح الفرسان والفروسية المملوكية في حين تحوّل سلاح المدفعية مع العثمانيين إلى السلاح

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٠.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٣٨٠.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ١٥ وجـ ١ ص ٣٦٢.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٤٤.

الذي يحسم نتائج المعارك في ميادين القتال. وهنا أعطا السلطان قانصوه الغوري، الذي وجه اهتمامه نحو الفروسية، ولم يعر المدافع والبنادق الأهمية الكبرى. وأخذ ينعم على الفرسان بسخاء كبير[1]، ولكن على حساب سلاح المدفعية الذي أمن النصر للجيش العثماني. ويبدو أن السلطان قانصوه الغوري خشي إحداث تغيير جذري في هيكلة الجيش المملوكي، فأبقى على نظام الفروسية وحاول إعادة إحيائه من جديد، وعمل في الوقت ذاته على زيادة عدد مسابك المدافع[2] وأمن لها البارود اللازم. ومع ذلك لم يستخدم سلاح المدفعية في مرج دابق، مما يشير إلى إن الهدف من الإنتاج الكبير للمدافع كان لحماية شواطىء مصر من غزو القراصنة الفرنج، أو لردع هجوم محتمل للبحرية العثمانية على ساحل البحر المتوسط[3]، أو لصد البحرية البرتغالية على ساحل البحر الأحمر[4].

على هذا الأساس، توجه السلطان قانصوه الغوري إلى الإسكندرية للإشراف على ترميمها وتزويدها بمالتي مدفع، بعد أن ترامى إليه أن السلطان سليم الأول جهز أربعمائة مركب لمهاجمة الإسكندرية ورشيد[5]. ولم يرسل السلطان قانصوه الغوري مثل هذه المدافع إلى حلب، بل اكتفى في تجريد حملته على الأسلحة التقليدية من سيوف ورماح ونشاب وخوذ وأتراس، وغير ذلك من آلة السلاح التي في الزردخانات[6]. وأخذ يجهز الفرق المملوكية المختلفة باستثناء فرقة الأسلحة النارية من مدافع وبنادق، حتى خرج بنفسه إلى حلب في ١٥ ربيع الثاني ٩٢٢هـ/١٥١٦م[7].

تحرك السلطان قانصوه الغوري على رأس حملة كبيرة إلى الشام قوامها

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٤ ص ١١٥، ١٨٦، ٣٩١، ١١٦، ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٤ ص ٩٤، ١٦٣، ٢١٩، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٤ ص ٢٢٠، ٢٧٦، وجـ ٥ ص ٦١.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٤ ص ٢٨٦، ٣٠٨-٣٠٩، ٣١٠، ٣٥٥.

(٥) المصدر نفسه، جـ ٤ ص ٤٧٦.

(٦) المصدر نفسه، جـ ٥ ص ٢٩.

(٧) المصدر نفسه، جـ ٥ ص ٤٤.

٦٠ ألف رجل بينهم ١٢ ـ ١٥ ألف من الفرسان المماليك «سلاح الصيانة»، ووصل إلى حلب في ١٠ جمادى الثانية ٩٢٢/ ١٥١٦، ثم انتقل منها إلى مرج دابق حيث رابط شمال حلب في مواقع تبعد عن المدينة مسيرة يوم واحد.

أما السلطان سليم الأول فكان يعتمد على السلاح المدفعية وهو أفضل مدفعية في العالم ذلك الوقت، كان مجهزة بأحدث المدافع النحاسية المركبة على عجلات يجر الواحد منها زوج من الثيران. وأعد السلاح القلاع المتحركة الذي يشكل عربات مربوطة بعضها بالبعض الآخر حتى يمنع فرسان المماليك من إختراق صفوف جيشه، فقد كان أكثر ما يخشاه هو فرسان المماليك. لذلك أعد لهم أيضاً المعدات المقاومة للخيالة كالشوكات والخطافات الحديدية (الكلاليب) المربوطة بالحبال التي تطلق على الفرسان المدججين بالسلاح وتلقيهم أرضاً. وكان الجيش العثماني متماسكاً ومنضبطاً ويضم إلى جانب المسلمين عدداً كبيراً من المسيحيين لا سيما من دول البلقان فيه السلاف والأرمن والرومان. في حين كان جيش المماليك يعتمد على الفرسان، وبقية الجند غير راغبين في الحرب ضد الجيش العثماني الذي فتح القسطنطينية، فأعدم بعض الأمراء المماليك بتهمة الخيانة، وأخذ العديد من الأمراء وعلى رأسهم خاير بك نائب حلب يتعاطفون مع العثمانيين، وأقام البعض علاقات سرية معهم، مما ساعد السلطان سليم الأول في معرفة الكثير من المعلومات التي أدت إلى الإنتصار النهائي.

وفي مرج دابق سنة ٩٢٢/ ٢٤ آب ١٥١٦، نشبت إحدى أكبر معارك التاريخ في المشرق العربي الإسلامي. وقد تمكن فرسان المماليك في بداية المعركة من صد هجمات الفرسان العثمانيين وقتلوا منهم حوالي عشرة آلاف رجل، لكنهم لم يتمكنوا من تجاوز الحواجز الخشبية وسلاسل العربات، فأصبحوا هدفاً لنيران سلاح المدفعية وتحول سير المعركة لصالح السلطان سليم[1]. عمت الفوضى بين المماليك خاصة بعد انتقال قسم منهم بقيادة خاير بك إلى جانب العثمانيين، واستسلم عدد من الأمراء وكبار الزعماء والخليفة

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٥ ص ٦٨، ٦٩؛ ابن طولون: إعلام الورى، ص ٢١٢، ٢١١

العباسي المتوكل وثلاثة من شيوخ الإسلام المصريين المرافقين للجيش المملوكي. ولاذ الباقون بالفرار بعد إلقاء السلاح، فظهر المماليك أمام أهل دمشق في ثياب رثة بعضهم يسير على قدميه والبعض الآخر على الحمير والجمال[1].

أما السلطان قانصوه الغوري، فقد قتل في المعركة ولم يعثر على جثته، وقيل إنه إنتحر عندما تأكد من الهزيمة فتناول السم من الخاتم الذي يحمله فسقط من الحصان ومات[2]، وقيل مات قهراً[3].

أخذت فلول المماليك تشق طريقها فرادى وجماعات صغيرة نحو مصر، في حين دخل السلطان سليم الأول إلى مدينة حلب سنة ٩٢٢هـ/٢٨ آب ١٥١٦، وفي خطبة الجمعة نودي به «خادماً الحرمين الشريفين»، فاتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله سلاطين مصر منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، وأصبح يعرف بسلطان المسلمين أو «بادي شاهي إسلام».

وهكذا إستقبلت المدن الشامية السلطان سليم الأول كمنقذ لها من المماليك، فلم تبد أية مقاومة، بالعكس فإنها أحدثت إنتفاضات للقضاء على الحاميات المملوكية، فتم فتح أبواب القلاع والمدن أمام السلطان سليم الأول الذي دخل حماه (٢٠ أيلول) وحمص (٢٢ أيلول)، ثم دخل دمشق (٩ تشرين الأول) وسار في شوارعها وسط إحتفالات عظيمة. وفي دمشق إستقبل وفود بيروت وطرابلس وصيدا، وأمراء جبل لبنان الذين إنحازوا إليه. وذلك بعد أن وصل السلطان سليم إلى المصطبة السلطانية بأرض «برزة» حيث إستعرض جيشه الذي قيل إنه بلغ مائة وثلاثون ألفاً[4].

وبذلك أظهرت معركة مرج دابق، مدى أهمية سلاح المدفعية وحملة البنادق في تحديد نتائج المعارك الحربية. ولم يكن بإمكان العثمانيين تحقيق

---

(١) ابن أياس: بدائع الزهور، ج ٥ ص ٧٢
(٢) إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية، ص ٦٦.
(٣) ابن أياس: بدائع الزهور، ج ٥ ص ٦٩
(٤) ابن طولون: إعلام الورى، ص ٢١٩.

النصر، فيما لو واجهوا المماليك بالأسلحة التقليدية مثل السيف والقوس والرمح، مما يعني تفوق المماليك في الفروسية التي كان لها الأثر الفعال في تحديد نتائج المعارك قبل معرفة سلاح المدفعية.

وفي ٣٠ تشرين الثاني، وصل الجيش العثماني إلى غزة، فاكتمل فتح بلاد الشام، وبدأ الاستعداد لغزو مصر.

ب ـ موقعة الريدانية (٩٢٣/ ٢٢ كانون الثاني ١٥١٧) ودخول مصر

في ١١ كانون الأول ١٥١٦، تسلم طومان باي السلطنة المملوكية وهو ابن شقيقة قانصوه الغوري، وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، ولقب بالملك الأشرف أبو النصر طومان باي، وبايعه أمير المؤمنين المستمسك يعقوب نيابة من والده الخليفة العباسي محمد المتوكل[1] الذي صحب السلطان قانصوه الغوري إلى بلاد الشام.

يعتبر السلطان طومان باي مقاتلاً مقداماً، فبعد استقباله البعثة العثمانية التي قدمت القاهرة لتعرض عقد اتفاق سلام مع المماليك شرط الاعتراف بالسلطان سليم الأول كخليفة للمسلمين وحاكم للحرمين الشريفين، كان رده قتل أفراد البعثة مما يعني استئناف الحرب. أخذ طومان باي يستعد للمواجهة وأمر بإنتاج المدافع المثبتة على عربات على غرار المدفعية العثمانية، وهذا يعني سرعة إدراكه لأهمية المدفعية في ميادين القتال، لتوجه اهتمامه إلى سلاح المدفعية وحملة البنادق. وفي ١٣ ذي القعدة ٩٢٢/ ١٥١٦، استعرض قوة عسكرية من ألفي مملوك وأكثر من ثلاثين عربة خشبية تجرها الأبقار وهي مزودة بالبنادق والمدافع، وذلك لرفع معنويات الجيش المملوكي[2]. كما حاول استدراج العثمانيين في حرب طويلة عن طريق المعارك الصغيرة، فأرسل جيشاً من عشرة آلاف مملوك بقيادة جان بردي الغزالي حاكم دمشق السابق غير أن الجيش العثماني بقيادة سنان يوسف باشا تمكن من إلحاق الهزيمة بالمماليك قرب بيسان في فلسطين سنة ٩٢٢/ ٢٥ كانون الأول ١٥١٦.

---

(1) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٥ ص ٩٨.
(2) المصدر نفسه، جـ ٥ ص ١٢٦.

وكان السلطان سليم الأول قد زحف بجيشه من دمشق في ١٦ كانون الأول ١٥١٦، وعبر صحراء سيناء خلال عشرة أيام ليصل إلى دلتا النيل معلناً إنه قادم لقتال المماليك وحدهم، وكان يصحبه الخليفة المتوكل، فاستقبل بحفاوة من الشعب المصري الذي يتمثل بغالبيته من الفلاحين العرب فأخذوا يقدمون له المساعدة ضد المماليك. وهذا ما جعل طومان باي يسحب قواته إلى القاهرة حيث جمع حوالي أربعين ألفاً منهم عشرون ألف فارس مملوكي[1] وبالقرب من الريدانية، الضاحية الشمالية للقاهرة، حفرت الخنادق وأقيمت المتاريس لمنع التقدم، والحواجز المضادة للخيول وشكلت العربات سداً[2] وذلك كله على غرار ما فعله السلطان سليم الأول في معركة مرج دابق. لكن الجيش المملوكي كان يفتقر إلى التماسك والإنضباط أمام جيش عثماني يفوقه في العدد وفي حُسن إستعماله سلاح المدفعية وفي إعتماده على خيانة أمراء المماليك، فكان جان بردى الغزالي يعمل لحساب العثمانيين وهو أهم قادة المماليك، والقبائل العربية غير متحمسة لمساعدة المماليك، وتتوقع هزيمتهم على يد العثمانيين[3]. ومع ذلك فإن هذا الأمر لا يقلل أبداً من الروح الجريئة التي أبداها طومان باي، ولو بعد فوات الأوان، وخاصة فيما يتعلق بإعتماده على سلاح المدفعية وحملة البنادق، بعد أن أيقن أن العثمانيين انتصروا بفرسان خيل وإنما هم إعتمادهم على النار لا على السيف[4].

لذلك كان طومان باي يعمل سريعاً وفي ظروف صعبة، بعد أن فقد الجيش المملوكي هيبته الشديدة في مرج دابق، وبعد إنسحابه من بلاد الشام.

بدأت معركة الريدانية في سنة ٩٢٢هـ/٢٢ كانون الثاني ١٥١٧، واصطف الفريقان في تشكيلات قتالية من المطرية حتى جبل المقطم. وقد تمكن السلطان سليم الأول من محاصرة المماليك في المقطم. ورغم بطولة طومان باي

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور جـ ٥ ص ١٤٣.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٥ ص ١٤٠.
(٣) ابن زنبل، فتح مصر جـ ٣ ص ١٤٥، ١٦٩، ١٧٠.
(٤) المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٨٣.

وفرسانه فإنه لم يستطع قهر الجيش العثماني فتراجع مخلفاً وراءه حوالي خمس وعشرين ألف جثة.

وبعد ثلاثة أيام على معركة الريدانية تقدمت قوة صغيرة من العثمانيين واحتلت القاهرة، لكن طومان باي تمكن من إبادة هذه القوة، عندما اندفع نحو القاهرة على رأس مجموعة من المماليك في ليل ٢٩ كانون الثاني، لتشهد حرب شوارع استمرت ثلاثة أيام. انتقم السلطان سليم الأول عندما استباح القاهرة، وقتل خمسين ألفاً من أهلها في مذبحة رهيبة. وتمكن من القبض على ثمانمائة فارس مملوكي ليتم إعدامهم بصورة علنية[1]. ثم نودي بالأمان بعد أن استتب الأمن في القاهرة.

٤ ـ مقتل طومان باي وسقوط دولة المماليك الثانية

(٢٢ ربيع الأول ٩٢٣/ ٢٣ نيسان ١٥١٧).

أظهر طومان باي شجاعة وإقداماً في مواجهة جنود العثمانيين، وكان قد جمع جيشاً من المماليك والبدو وأحرز بعض الانتصارات حتى عرض عليه السلطان سليم الأول الصلح شرط أن يكون تابعاً له، فرفض. ثم استغل السلطان سليم النزاع بين البدو والمماليك فمزق قوتهم، وأسر البدو طومان باي وسلموه للعثمانيين وهو في الرابعة والأربعين من عمره، فشنقوه تحت قنطرة باب زويلة بالقاهرة، وذلك يوم الاثنين ٢٢ ربيع الأول ٩٢٣/ ١٤ نيسان ١٥١٧. وبمقتله انتهت دولة المماليك الثانية[2].

٥ ـ عودة السلطان سليم الأول إلى إستانبول (٩٢٤/١٥١٨)

وهكذا ورث العثمانيون مصر وبلاد الشام وأجزاء من شبه الجزيرة العربية كانت تابعة للمماليك، كما ورث السلطان سليم الأول لقب «حامي مكة والمدينة» عن السلطان المملوكي، بعد أن بعث إليه شريف مكة محمد أبو

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٥، ص ١٥٧.

(٢) يمكن اعتبار فترة الحكومات المملوكية أو الحكومات المتعاقبة (١٥١٧ ـ ١٧٩٨م) بمثابة دولة المماليك الثالثة التي ظلت في مصر ظل الحكم العثماني لتنتهي على يد حملة نابليون بونابرت (١٧٩٨ ـ ١٨٠١م) ثم على يد محمد علي باشا في مذبحة القلعة سنة ١٨١١م.

البركات الهاشمي وعلا برلاسة إبنه أبي محمد نهى فسلمه مفاتيح مكة سنة ٩٢٣/تموز ١٥١٧[1]، وذلك في جزيرة الروضة التي اتخذها مقراً له.

كافأ السلطان سليم الأول الأمراء المماليك الذين انحازوا إليه، فعين جان بردي الغزالي حاكماً على بلاد الشام في سنة ٩٢٣/١٦ شباط ١٥١٧ وعين الذين خاير بك حاكماً على مصر، ومنحهما استقلالاً داخلياً شبه تام، وأخذ كل منهما يؤلف جيشاً خاصاً به قوامه الجند والمماليك إلى جانب الجيوش العثمانية.

وسنة ٩٢٣/١٠ أيلول ١٥١٧، بدأ السلطان سليم الأول رحلة العودة إلى إستانبول، فخرج من القاهرة ومعه ألف جمل محملة بالذهب والفضة والسلاح والخزف والبرونز والخيول والبغال والجمال، إضافة إلى البلاط الرخام الرائع[2]. كما جمع خيرة الصناع ليرسلهم إلى إستانبول. واصطحب الخليفة المتوكل العباسي بعد أن تسلم منه شارات الخلافة، وهي (العباءة) التي كان يلبسها الخلفاء العباسيون في بغداد، ومعها شعرات من لحية النبي العربي محمد ﷺ، وسيف عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفي طريق العودة، توقف السلطان سليم الأول في حلب حيث التقى ولاة القبائل المختلفة، ونظم شؤون بلاد الشام من النواحي الإدارية والمالية والقضائية. ثم وصل إلى إستانبول في سنة ٩٢٤/١٥١٨، بعد غياب سنتين. وسجن المتوكل العباسي في أحد الحصون ثم أفرج عنه في سنة ٩٢٦/١٥٢٠، وهي السنة التي توفي فيها السلطان سليم الأول نتيجة ما أصابه من المرض والأمراض الأخيرة.

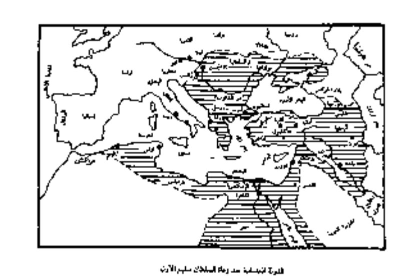
بوفاة السلطان سليم الأول سنة ٩٢٦/أيلول ١٥٢٠، أعلن جان بردي الغزالي انفصال بلاد الشام عن السلطة العثمانية. وفي نهاية الشهر التالي (تشرين الأول) اتخذ لنفسه لقباً مملوكياً هو «الملك الأشرف»[3]، وقضى على

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٥ ص ١٨٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٥ ص ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٥ ص ٣٧٠.



الدولة العثمانية عند وفاة السلطان سليم الأول

الحامية العثمانية في دمشق وطرد العثمانيين من بيروت وطرابلس وحماه. لكنه فشل في دخول حلب التي لم تعترف بسلطته وصمدت حتى وصلت الامدادات العثمانية، فاضطر جان بردي للانسحاب من طرابلس وبيروت وغيرها حتى مني بهزيمة ساحقة قرب دمشق سنة ٩٢٧/٢٧ كانون الثاني ١٥٢١، وأعدم في ٦ شباط. لذلك عمدت الدولة العثمانية إلى إلغاء الحكم الذاتي لبلاد الشام التي قسمت إلى ثلاث ولايات مراكزها دمشق وحلب وطرابلس، ويديرها ولاة عثمانيون.

أما سيف الدين خاير بك فقد حافظ على ولائه للسلطان العثماني، وشارك مع العثمانيين في القضاء على تمرد جان بردي الغزالي. وبوفاة سيف الدين خاير بك سنة ٩٢٩/٥ تشرين الأول ١٥٢٢، أصبحت مصر ولاية عثمانية عين عليها الوزير الأكبر مصطفى باشا برتبة بكلر بك (أمير الأمراء)، في حين تم تسريح الجيش الذي كونه خاير بك من البدو والمماليك. فقامت حركة تمرد مملوكية بقيادة جانم وإينال، وتمكنت القوات العثمانية من سحق التمرد وقتل جانم في حين تمكن إينال من الفرار. ومع ذلك بقيت مصر تعيش في جو من القلق والاضطراب. وكان أحمد باشا يطمع في منصب الصدر الأعظم، لكن السلطان سليمان القانوني عيّن إبراهيم باشا في هذا المنصب، وأرسل أحمد باشا حاكماً على مصر لضبط الأوضاع فيها: فوصل القاهرة في سنة ٩٣٠/ كانون الأول ١٥٢٣. تمكن أحمد باشا من التفاهم مع المماليك المعارضين والبدو، وقام هو بنفسه بحركة تمرد على السلطة العثمانية وأعلن انفصاله ونودي به سلطاناً على مصر، وشارك في مراسم التنصيب الخليفة العباسي المتوكل الذي عاد إلى مصر بعد وفاة السلطان سليم الأول. لكن سكان القاهرة حافظوا على ولائهم للدولة العثمانية وتغلبوا على أحمد باشا الذي فر من القاهرة، ثم وقع أسيراً وأعدم سنة ٩٣٦/٦ آذار ١٥٢٤. وصل الصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى القاهرة وبقي فيها أقل من ثلاثة أشهر في سنة ٩٣٢/ ٢٤ آذار - ١٤ حزيران ١٥٢٥، فأعاد الهدوء والأمن ثم عاد إلى إستانبول. وهكذا تحولت بلاد الشام ومصر إلى ولايتين عثمانيتين، ودخل المشرق العربي الإسلامي (باستثناء نجد

ومعها سواحل الخليج) في ظل الدولة العثمانية. ليجيء المغرب العربي باستثناء مراكش (الجزائر سنة ٩٤٠/١٥٣٣، تونس سنة ٩٤١/١٥٣٤، وطرابلس الغرب سنة ٩٥٨/١٥٥١)، وكذلك ساحل البحر الأحمر وشمال السودان سنة ٩٦٤/١٥٥٧.

كان العربي، أثناء الحرب العثمانية - المملوكية، قد تحول إلى جانب العثمانيين، مساهماً في سير المعركة وظل المتخاذل عشية معركة مرج دابق، وقام بانتفاضات ضد الحاميات المملوكية في حماه وحمص ودمشق. ورحب هذا العربي بالسلطان سليم الأول عبر العريش عند وصوله إلى مصر، وحفر الخنادق في تونس، والانخراط في صفوف الجيش العثماني في الجزائر. وبذلك فإن هذا العربي، وهو يمثل الطبقة العريضة المضطهدة من أبناء البلاد، رأى في تقدم العثمانيين ما يوفر له اعلاء شأنه تحت راية خلافة إسلامية قوية، وهو مبهور بفتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني[1]، وبسقوط بلاد الشام ومصر على يد السلطان سليم الأول. في حين اتخذت طبقة الحكام من المماليك والأمراء المحافظين على مصالحهم الموقف المعارض للسيطرة العثمانية[2].

أما المتوكل العباسي، فقد أمضى بقية عمره في مصر، حتى وفاته سنة ٩٥٠/١٥٤٣، فكان آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة، في حين كان المستعصم العباسي قبله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد.

وعلى هذا الأساس، عاش العالم العربي الإسلامي بمشرقه ومغربه مدة أربعة قرون متتالية في ظل الدولة العثمانية (٩٢٣ - ١٣٣٧/١٥١٧ - ١٩١٨)، لتستمر سيطرة السلاطين غير العرب، بعد أن تحولت العاصمة لأول مرة في التاريخ العربي الإسلامي إلى مدينة غير عربية هي إستانبول.

---

(١) ابن إياس: جـ ٥، ص ٩٣.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ١٤٩، ١٦٢، ١٦٠.

ملامح من النظم الحضارية زمن المماليك

بدأت الهزائم تحل بالصليبيين حتى أجلاهم المماليك عن المشرق العربي الإسلامي سنة ٦٩٠/ ١٢٩١، وذلك بعد القضاء على أسطورة المغول في عين جالوت سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨. وما كانت هذه الانتصارات المملوكية لتتم لولا وجود بعض النظم الحضارية التي بدأ صلاح الدين الأيوبي بتطبيقها، فطورها المماليك في دولتهم الأولى (٦٤٨ ـ ٧٨٤/ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢) حتى ترسخت تماماً، وظهرت القاهرة عاصمة للمشرق العربي الإسلامي، بل للعالم الإسلامي، خاصة بعد إحياء الخلافة العباسية فيها سنة ٦٥٨/ ١٢٦١.

وعندما أصاب الوهن والضعف هذه النظم في دولة المماليك الثانية (٧٨٤ ـ ٩٢٣/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧)، كانت النهاية المحتومة على يد العثمانيين، الذين أقاموا خلافة عثمانية خاصة بهم، وجعلوا القسطنطينية باسمها الجديد استانبول مركزاً لها ففقدت القاهرة مجدها وعظمتها.

١ ـ النظام السياسي والإداري:

يشكل السلطان ومعه الأمراء على اختلاف رتبهم، أساس النظام السياسي. وكذلك استمرت الدواوين التي عرفتها الدولة الأيوبية، والتي تختص بالجيش، الإنشاء، المواريث، الأوقاف، النظر

وفي أواخر عهد دولة المماليك الأولى تطرق الفساد إلى النظام السياسي والإداري والعسكري، فاستحدثت دواوين جديدة لتحقيق مطامع بعض الأمراء، مثل الديوان الخاص الذي أنشأه الناصر محمد، وديوان الأملاك والمفرد ومن

الظاهر برقوق، إضافة إلى ديوان الخاص والبحث وديوان المحاسبات. واستمرت هذه الدواوين مهيمنة حتى نهاية دولة المماليك الثانية، وكانت سبباً من أسباب سقوطها.

أ ـ السلطان:

لا يخرج السلطان المملوكي عن كونه أميراً مميزاً بين الأمراء، تارة يكون قوياً يسيطر على الحكم، وتارة يكون ضعيفاً فيسيطر الأمراء المقربين على شؤون الحكم. وفي جميع الحالات كان جميع من في الدولة من أمراء عسكريين وإداريين مدنيين، يقومون على خدمة السلطان والسهر على سلامته موظفين الجهاز الحاكم الذي تتوزع وظائفه حسب طبقات الأمراء المماليك ذات المراتب العسكرية المختلفة.

ب ـ مقدمو الألوف وأمراء المئين:

يتولى مقدم الألف وأمير المئة، الإمرة على مئة فارس وقد يزدادون عشرة أو عشرين، يسير بهم ضمن جيش السلطان أثناء الحروب. وقد بلغ عدد هؤلاء الأمراء أربعة وعشرين أميراً، ثم تراوح العدد بين ثمانية عشر وعشرين أميراً زمن السلطان برقوق[1]. ومن هؤلاء الأمراء يكون أكابر الوظائف مثل نائب السلطنة، وأتابك العسكر، وأمير سلاح، وأمير مجلس، والاستادار الكبير، وأمير آخور، ورأس نوبة النوب، وحاجب الحجاب، وأمير جاندار، والاستادار، وأمير الحاج الشريف، والخازندار: وشاد الشرابخاناه.

يعتبر نائب السلطنة أرفع تلك الوظائف، فقد كان ينوب عن السلطان في الحكم أثناء غيابه وتنقله في أرجاء مصر والشام. وفي زمن المماليك كثر عدد نواب السلطنة، ففي مصر كان يوجد نائب واحد لم نائبان للسلطنة، ويعرف بالنائب الكامل أو كافل الممالك الإسلامية. وفي بلاد الشام عين نائب للسلطنة في كل من دمشق، حلب، حمص، حماة، صفد، طرابلس، والكرك. وكان نائب السلطنة يحكم في كل ما يحكم به السلطان، له رئاسة ديوان الجيش،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٦؛ المقريزي: الخطط، جـ٣، ص ٣٤٠ ـ ٣٤٩؛ الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٦٣.

وينهي إلى السلطان بكل الأمور التي لا بدّ أن يقف عليها[1].

أما أتابك العسكر، فهو قائد الجيش. وكان أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة. ثم أصبح الرجل الأول في الدولة بعد السلطان منذ سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م، عندما ألغي منصب نائب السلطنة وأضيفت صلاحياته إلى أتابك العسكر[2]. ثم أصبح يعرف باسم «الأمير الكبير» منذ أن تولى شيخون العمري هذا المنصب زمن السلطان حسن بن الناصر قلاوون (٧٤٨ ـ ٧٥٢هـ/١٣٤٧ ـ ١٣٥١م). وهذا يعني أهمية منصب نائب السلطنة أو أتابك العسكر، حيث شكل أحياناً خطراً على السلطان بما يثيره من فتن قد تؤدي إلى الإطاحة به.

ويتولى وظيفة أمير سلاح، رئيس السلحدارية، ومهمته الإشراف على سلاح السلطان في المواكب العامة، وسلاح المماليك السلطانية. ويأتي بعده أمير مجلس الذي يتولى أمر مجالس السلطان، كما يتحدث باسمه مع الأطباء والكحالين. ثم يليه الدوادار الكبير الذي يحفظ أسرار السلطان وغدواته، فمهمته تبليغ الرسائل للسلطان ورفع القصص وتقديم البريد إليه والحصول على توقيعه على المناشير والمراسيم. ويليه أمير آخور الذي يشرف على خيل السلطان في الإسطبل السلطاني. في حين يتولى رأس نوبة النوب الإشراف على فرق المماليك السلطانية التي تتناوب على حراسة السلطان[3]. ويتولى حاجب الحجاب تقديم الجند وعرضهم والفصل فيما يقع بينهم وبين الأمراء من نزاع وخلاف حول الاقطاعات، ويساعده أربعة حجّاب أحدهم نائبه وهو مقدم ألف مثله.

أما أمير جاندار فهو الذي يستأذن السلطان في دخول الأمراء، ويدخل أمامهم إلى الأيوان، ويشرف على الزردخاناه، وهي السجن الخاص بالأمراء، كما يطوف بمركب السلطان عند سفره[4]. وكانت الاستادارية منوطة بالاستادار،

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١، ص ١٦.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١، ص ٤١٥؛ المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٢٢٥. الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٤.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٨ ـ ١٩؛ الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٤.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٠.

وجرت العادة أن تكون بيد لويمنه، أكبرهم مقدم ألف ومعه ثلاثة طبلخاناه.
وللاستادار الحق في طلب كل ما يحتاجه من البيوت السلطانية من نفقات وكساوي، وعليه صرف العليق لدواب المماليك، ويليه أمر الجاشنكيرية التي تهتم بالسماط السلطاني، فالجاشنكير من يقوم بتذوق طعام السلطان، والسماط ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة. وكان الاستادار يسيء أحياناً استغلال وظيفته، حيث يغرم الناس بالضرائب لدفع ما يتوجب عليه للمماليك الذين يتعرضون له بالضرب إذا لم يدفع لهم رواتبهم والعليق لدوابهم[1].

وتلي هذه الوظائف وظيفة أمير الحاج الشريف الذي يصحب الحجاج عند ذهابهم لتأدية فريضة الحج، ثم وظيفة الخازندار التي يهتم بخزائن الأموال السلطانية وما تحويه من مال وخلع وقماش وتشاريف، وكذلك وظيفة شاد الشرابخاناه (مفتش بيت الشراب) الذي يشرف على السكر والمشروب والفواكه.

ومن الوظائف الهامة كانت «الوزارة»، والوزير يهتم عادة بالأمور المالية، لكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أضعف الوزارة ووزع صلاحيات الوزير على ثلاثة أشخاص بعد استحداثه الديوان الخاص وهم، ناظر المال، والناظر الخاص، وكاتب السر. وجعل هذا الديوان يرتبط به مباشرة وذلك تدعيماً لمركزه المالي وسيطرته على جميع السلطات في السلطنة[2]. ثم ازدادت الوزارة ضعفاً في الدولة المملوكية الثانية حتى انحصر عمل الوزير بتحصيل بعض المكوس ليصرفها على شراء اللحم وحوائج المطبخ السلطاني[3].

جـ ـ أمراء الطبلخاناه:

لا يوجد لأمراء الطبلخاناه عدد معين من فرسان المماليك، وقد جرت العادة أن لا يقل العدد عن أربعين مملوكاً، وقد يزيد إلى سبعين وثمانين حسب اقطاع الأمير، ليخدموهم في السلطان أثناء الحروب. ويتولى أمراء الطبلخاناه

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٤، ص ٢٤٥.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٨ ـ ٢٩.
(3) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٩٢٣

وظائف من الرتبة الثانية بحضرة السلطان مثل الدوادار الثاني، وأمير آخور الثاني، ورأس نوبة النوب الثاني، والحاجب الثاني، والخازندار الثاني، وأمير جاندار الثاني، وشاد الشرابخاناه الثاني، ونائب قلعة المنصورة والزردكاش (من يعمل الزردخاناه أي بيت السلاح)، وأمير شكار (الشكارة تعني كيس النقود)، ومقدم المماليك[1]. ومن هذه الطبقة يعيّن الكشاف والولاة في مصر والنواب في بلاد الشام.

د ـ أمراء الطبلخانات والعشرات:

يتولى كل أمير من أمراء العشرات عشرة مماليك. وقد زاد بعض هؤلاء الأمراء مماليكهم إلى العشرين فعرفوا بأمراء العشرينات[2]. ومن هذه الطبقة يعيّن صغار الولاة. ووظائف الرتبة الثالثة مثل الدوادار الثالث، أمير آخور الثالث، رأس نوبة النوب الثالث، الحاجب الثالث، استادار الصحبة، مقدم البريدية، المهمندار الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان، دلال المماليك، متولي القاهرة، نقيب الجيش[3].

هـ ـ أمراء الخمسات:

تعتبر طبقة أمراء الخمسات أقل الطبقات عدداً، وهي تمثل الأمراء الأولاد الذين توفي آباؤهم، فيضم على كل أمير بخمسة مماليك فقط[4].

وكانت ترقية المماليك في وظائف الدولة وانتقالهم من رتبة إلى رتبة أعلى، تخضع لاعتبارات عديدة منها علاقة المملوك بالسلطان والعصبية والجنس، خاصة بعد أن قوي نفوذ الجراكسة في دولة المماليك الثانية فازداد شأن صلة القرابة في القفز إلى الرتب العليا دفعة واحدة. وكذلك علاقة الزمالة في الرق والعتق والخدمة، فيطلق على هؤلاء الأخيرة في الزمالة لقب

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٢؛ الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٤.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤ ص ١٤.
(٣) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٤.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٥؛ المقريزي: الخطط، جـ ٣، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠؛ الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٢.

«خشداشيته» فإذا ما تولى أحدهم منصباً أو توصل إلى كرسي السلطنة، استفاد الآخرون من هذه الفرصة. ومع ذلك لم يغفل سلاطين دولة المماليك الأولى «الأتراك» ما للفروسية والشجاعة من الاعتبار عند ترقية المملوك، لكن سلاطين دولة المماليك الثانية «الجراكسة» لم يتقيدوا بقواعد الترقية أو المدة الرسمية اللازمة التي قد تستغرق سنوات.

٢ ـ النظام العسكري:

ارتبط النظام العسكري المملوكي بالنظام الاقطاعي، وعلى أساسه تمكن المماليك من تأسيس الجيش الذي يعتمد على الفروسية المملوكية وسلاح المدفعية وحملة البنادق، رغم عدم الاهتمام الزائد بالبحرية.

أ ـ الاقطاع:

بلغ النظام الاقطاعي ذروة تطوره زمن دولة المماليك التي ورثت الدولة الأيوبية في ملكها في مصر والشام، وفي سياستها ونظمها. وأكثر التنظيمات التي طبقت في دولة المماليك مأخوذة عن النظم التي كانت سائدة في الدولة الأيوبية، وعلى رأس هذه التنظيمات النظام الاقطاعي.

وزعت أرض مصر بين سلاطين المماليك وأمرائهم وأجنادهم، دون أن يكون للمصريين وهم أصحاب الأرض نصيب منها. فقد قسمت هذه الأرض إلى أربعة وعشرين قيراطاً، اختص السلطان وحده بأربعة قراريط، والأمراء بعشرة، والأجناد بعشرة. وقد بلغ متوسط اقطاع الأمير مساحة تتراوح بين قرية وعشرة قرى، والمملوك السلطاني بين نصف قرية وقرية، أما جندي الحلقة فلم يقل اقطاعه عن نصف قرية. وكان إقطاع أحد مقدمي الألوف أو أمراء المئين يقدر بما يكفي ألف دينار، وإقطاع أمير الطبلخاناه بين ثلاثة وعشرين وثلاثين ألف دينار، وإقطاع أمير العشرة بسبعة آلاف دينار، وأجناد الحلقة بألف وخمسمائة دينار.

رغم أن السلاطين الأوائل في دولة المماليك الأولى جعلوا الاقطاع وراثياً تشجيعاً للأبناء على استخلاف آبائهم في الجندية، فإن الاقطاع شخصياً لا يورث، بل يستغله المقطع نيابة عن السلطان، ثم يعود كله إلى السلطان بمجرد

انتهاء مدة الاقطاع المتفق عليها، أو بسبب وفاة أو عزل المقطع. ومع ذلك حاول المقطعون أن يورثوا سلالتهم جانباً من اقطاعاتهم، دون أن يكون ذلك ملياً بخدمة حربية، فأفادوا من النظم الموضوعة بشأن التصرف في أنواع معينة من الأراضي، مثل الأراضي التي يخرجها ديوان الجيش إلى الأمراء الذين أقعدهم المرض أو كبر السن عن أداء واجباتهم الحربية[1]. وأخذ المقطعون يعملون على تحويل اقطاعاتهم إلى أملاك يتوارثها أبناؤهم منهم، فتوافرت الأملاك في بلاد الشام، في حين قلّ مقدارها في مصر[2]. أما في زمن دولة المماليك الثانية (الجراكسة): فكثرت الأملاك في مصر، بسبب ما أجازته الشريعة لأولي الأمر من حق التصرف بالبيع والاقتناء في الأراضي التي لا مالك لها أو التي يموت عنها حاميها دون أن يكون له وريث. وتحول كثير من الاقطاعات السلطانية إلى أوقاف فتناقصت الاقطاعات الحربية، ولم يعد اقطاع الأمير سوى جزء من أملاكه التي تشمل الدور والحمامات والحانات والحوانيت والأفران والبساتين[3]. ورغم ذلك فإن بإمكان السلطان مصادرة هذه الأملاك في النهاية.

كان على المقطع أن يؤدي خدمات اقطاعية للسلطان، أهمها الخدمة الحربية وهي الأساس في فكرة الاقطاع، فكان على المقطع أن يقتني العدد المقرر عليه من الجند، ويخصص جزءاً من اقطاعه لكل منهم، أو يمنح كل جندي مرتباً معيناً يناسبه. فإذا أخل المقطع بواجب الخدمة الحربية، حرمه السلطان من اقطاعه. أما الخدمات الأخرى فمنها ما هو مالي مثل ضرائب الزكاة والجوالي، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شؤون الأمن في الاقطاع والعناية بالزراعة وصيانة الجسور. وكان السلطان يحرص في التوقيع الذي يصدره للمقطع على أن يأمره باتباع «العدل» في الرعية الذين هم عنده

---

(١) أبي الفرج مرجي: مختارات من حوادث الدهور، ص ٢٥١، ٩٣٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٤٥٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٦، ص ٣٤٧.

(٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ ١، ص ١٨٥. ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ١، ص ٤١٦.

ودنائة، وليجابز بهم درجة الحط إلى احسان الصنائع. لكن الواقع كان غير هذا الكلام الخلاب، فإذا كان الفلاح قد حظي بقدر من الرعاية والعناية المحدودة في المجتمع الأيوبي، فإن نصيبه في المجتمع المملوكي لم يكن سوى الامتهان والاحتقار، حتى أصبح يوصف بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر، وأصبحت كلمة فلاح تدل على أصل وضيع.

على هذا الأساس أصبحت أرض مصر الزراعية نهباً موزعاً بين السلاطين والأمراء ومماليكهم. أما الفلاح، ابن الأرض الحقيقي، فلم يكن له سوى العمل والسخرة ودفع الأموال. يفلح الأرض ويفني حياته في خدمتها وليس له من خيراتها إلا القليل، ويتعرض لنهب من استغلال أمواله ونسائه وأولاده. وقد دفعت هذه المظالم والمغارم الكثيرين من الأهالي إلى ترك قراهم والنزوح إلى المدن.

وبذلك ترك النظام الاقطاعي بصماته واضحة في القرية المصرية والفلاح المصري زمن دولة المماليك. ومما زاد الأمر سوءاً حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة نتيجة لانخفاض النيل مثلما حدث في السنوات ٦٩٤/ ١٢٩٥، ٧٤٩/ ١٣٤٩، و ٧٩٧/ ١٣٩٤ وفي بعض تلك الأزمات هلكت المواشي وخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد.

وفي بلاد الشام اتسع النظام الاقطاعي تدريجياً باتساع حركة الجهاد ضد الصليبيين، ولم يضع حداً لتحول الكثير من أراضي الشام إلى اقطاعات عسكرية، سوى حرص بعض الحكام على وقف جهات لا يستهان بها على المدارس والزوايا والجوامع والبيمارستانات حتى تتمكن من اداء رسالتها. لا شك أن هذه الأوقاف حدت نوعاً ما من نمو الاقطاعات العسكرية، ومع ذلك فإن حياة الفلاح في بلاد الشام لا تختلف كثيراً عنها في مصر، وكان نصيب الفلاح الشامي من النعم محدوداً في القرى الضيقة الطرق ذات المنازل المشيدة من الطين والآجر.

تأثر النظام الاقطاعي في بلاد الشام بكثرة العصبيات وتعددها، وربما كان لكل عصبية منها من تقاليد وعادات. فكان أهل كسروان من العصرية (المتنيين)

الشاوية يقاتلون إلى جانب الصليبيين ضد المماليك، لذلك لجأ السلطان الناصر محمد إلى إضعاف عصبيتهم، فأقطع جبال كسروان بعد فتحها لبعض أمراء المماليك ممن هاجروا إليها[1]. وكان والده السلطان المنصور قلاوون قد صادر إقطاعات البحتريين بسبب تقلب ولائهم بين الصليبيين والمماليك، ووزعها على حامية طرابلس من المماليك. في حين أبلى بنو معن في قتال الصليبيين وكوفئوا على ذلك بمنحهم إقليم الشوف.

ب ـ الجيش

كان الجيش يتألف من المماليك السلطانية وأجناد الأمراء وأجناد الحلقة.

● المماليك السلطانية: وتشمل الخاصكية والقرانصة والأجلاب والسيفية

والخاصكية هم المماليك الذين يلازمون السلطان في خلواته، ومنها يشكل السلطان حرسه الخاص. وتقوم الخاصكية بالمهمات التشريفية من تقبيل الأعتاب والقبض على أعداء السلطان[2]، وقد تتدخل أحياناً في الشؤون الداخلية للسلطنة والصراع على الحكم، وكان أمراؤها يتمردون أحياناً ويجرؤن على السلطان

أما القرانصة فهم مماليك السلاطين القدامى، أي السلاطين المتوفين منذ أمد بعيد، أو الذين لم يمض على وفاتهم مدة طويلة. وكانت كل جماعة منهم تنتسب إلى السلطان الذي أعتقهم، لذلك لم يكونوا فرقة واحدة، وقد اشتهروا بمهارتهم في القتال.

والأجلاب أو الجلبان، فقد عرفوا باسم «المشتروات»، وهم مماليك السلاطين الجدد الذين يتولون الحكم[3]. وهم عبارة عن رقيق يشتريه السلطان حيث يخضعون لتربية عسكرية في الطباق، ثم يعتقهم السلطان من الرق ويمنح

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 2، ص 160.
صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص 31 ـ 32.
(2) المقريزي. الخطط، ص 261.
(3) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص 116.

عليهم بالخيل والسلاح والاقطاعات، وقد شكّل «المشتروات» أعلى مرتبة بين فرق المماليك السلطانية.

والفرقة الأخيرة «السيفية»، تشمل المماليك الذين ينتقلون إلى خدمة السلطان بسبب وفاة أو مصادرة أو عزل أو سجن سادتهم[1]. لذلك يعتبرون أدنى فرق المماليك السلطانية مرتبة، فيضطرون للوقوف إلى جانب السلطان الحاكم.

● أجناد الأمراء. وتشمل مماليك الأمراء. وهؤلاء الأمراء كانوا يتفاوتون في الأهمية، كما يتفاوت عدد مماليكهم بحسب رتبهم، فمنهم مقدم ألف وأمير مئة، أمير الطبلخاناه، أمير عشرين، أمير عشرة، وأمير خمسة.

ومماليك الأمراء كانت تنقصهم التربية العسكرية في الطباق، لذلك اقتصرت مهمتهم على خدمة أمرائهم[2].

● أجناد الحلقة: وهم أساس الجيش المملوكي، وقيل إن تسمية حلقة ترجع إلى كون الجيش يحيط بالسلطان، وقيل لأنه يحيط بالأعداء أثناء الحرب. وقد تألفت أجناد الحلقة من بعض السيفية والقرانصة وأولاد السلاطين وأولاد الناس (أبناء الأمراء) ومماليك أولاد الناس[3] وأجناد الأمراء. هذا فضلاً عن بعض المتعممين[4] والعرب والأكراد والتركمان. وكانوا جميعاً تحت إمرة السلطان دون أن يكونوا ملكاً له، وعندما يطلبهم للحرب كان ينضوي كل ألف منهم تحت إمرة مقدم ألف أو أمير مئة. وكان عدد أجناد الحلقة يتغير حسب الظروف السياسية والاقتصادية للسلطنة.

يمثل الأتراك أهم عناصر الجيش زمن دولة المماليك الأولى بعد جلبهم من بلاد القبجاق وعرفوا «بالمماليك البحرية». ثم تلاهم الجراكسة، وأصلهم

---

(١) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١١٦.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١٤، ص ٧.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٦، ص ٨٣، ١٠١، ١٠٢، ١٤٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٤، ص ١٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٦، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

من المرتفعات الجنوبية لبلاد القبجاق أيضاً، والواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين، وقد عرفوا «بالمماليك البرجية»، وأسسوا دولة المماليك الثانية. أما الطوائف التترية فأطلق عليها اسم «الوافدية» أو «المستأمنة» لكنها لم تصل إلى المراتب العليا في الجيش[1] ومن العناصر التي استعان بها المماليك لتدعيم قوة الجيش، الخوارزمية والأكراد الشهرزورية (نسبة إلى شهرزور وهي مدينة السليمانية الحالية في العراق)

كان السلطان يعقد مجلساً استشارياً للجيش يضم كبار الأمراء وقضاة المذاهب الأربعة للتشاور قبل المسير إلى الحرب. وكانت ترافق الجيش المملوكي فرقة موسيقية لإثارة روح الحماس أثناء القتال. وكانت الفرق المختلفة تتميز بعضها عن البعض الآخر بمجموعة من الأعلام والرايات المختلفة.

جـ- البحرية

مع مطلع دولة المماليك الأولى، اهتم السلطان الظاهر بيبرس بالبحرية لمواجهة الصليبيين في البحر المتوسط، وخاصة بعد تحطم الأسطول المصري على سواحل جزيرة قبرص سنة ٦٧٠/١٢٧١، لذلك وجه عنايته إلى دور بناء السفن في القاهرة (الفسطاط وجزيرة الروضة) والاسكندرية ودمياط[2] وكان يشرف بنفسه على توفير الخشب الضروري لبناء السفن، عندما كانت البحرية المملوكية تعاني عجزاً في الحصول على الخشب، فعمل على استيراده من آسيا الصغرى وإيطاليا[3]؛ حتى تمكن معه من إعداد أسطول بحري يتألف من خمسين سفينة[4]. وتمكن المماليك من القيام بحملات بحرية إلى جزيرتي قبرص ورودس، ومواجهة البرتغاليين عند شواطئ الهند الغربية.

كانت النتيجة الحتمية لاهمال البحرية زمن خلفاء بيبرس، أن ظهر العجز

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ٤٩٦، ٦١٦.

(2) المقريزي. الخطط. جـ ٢، ص ١٨٠، ١٩٥

(3) ابن بطوطة. تحفة النظار، جـ ٢، ص ١٩٨٧ ابن إياس. بدائع الزهور، جـ ٢، ص ١٨٦

(4) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ١، ص ١٩٧

والضعف في دولة المماليك الثانية، فلم تستطع مواجهة الضغط البرتغالي وسارت نحو الانهيار حتى سقطت أمام العثمانيين سنة ٩٢٣/ ١٥١٧.

د ـ الفروسية المملوكية

ترتبط الفروسية ارتباطاً وثيقاً بتجارة الرقيق من المماليك الأتراك والجراكسة واستخدامهم في الجيش والحربية.

والفروسية نظام طبيعي في المجتمع العربي الإسلامي، وقد تطورت منذ عهد الخلفاء الراشدين والعباسيين وأخذت تترسخ في المشرق العربي الإسلامي مع مجيء السلاجقة والفاطميين ثم الأيوبيين حتى أصبحت نظاماً عسكرياً حاسماً زمن المماليك في مصر والشام.

يعتبر السلاجقة أول من أرسى قواعد وأصول تربية المملوك وتحديد علاقته بالحكام. وقد طبّق السلاجقة العادات والتقاليد التي سادت بينهم في مواطنهم الأولى، فضلاً عن أخذهم بما صادفوه من النظم الحربية والاقتصادية في أقاليم الخلافة العباسية وخاصة الدولة السامانية[1]، فأكثروا من جلب المماليك وتدريبهم وأقطعوهم الإقطاعات بهدف تجديد الجيش السلجوقي الذي استطاع مواجهة الخلافة الفاطمية وحماية الخلافة العباسية. وكان نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي، قد وضع كتابه «سياسة نامة» سنة ٤٨٤/ ١٠٩١ وفيه يشرح أصول النظام المملوكي الساماني الذي استمد منه السلاجقة نظامهم المملوكي. وقد حدد نظام الملك في الكتاب قواعد تربية المماليك ومراحل التدرج فيها منذ جلبهم في سن مبكرة وتسجيلهم في سجلات ديوان الجيش، فيتقدم المملوك عند سيده راجلاً في السنة الأولى حيث يسير بجانبه، ولا يجوز له ركوب الخيل إطلاقاً إلا في السنة الثانية حيث يتعلم ركوب الخيل ويتدرج حتى يُنعم عليه بلقب مقدم طبقة في السنة السابعة، ويمشي في خدمته ثلاثة مماليك، ويلبس كلوتة من اللبد الأسود المزركش بالفضة ويرتدي قباء من الحرير. وقد اشتهر هؤلاء المماليك بالمهارة والشجاعة والموالاة وتقدير

---

(١) عماد الدين الأصفهاني. تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٦٣.

أسيادهم لهم، ومع ذلك فقد جرت العادة أن لا يصير المملوك أميراً إلا بعد بلوغه الخامسة والثلاثين.

ومن القواعد السلجوقية عدم إرهاق المملوك بالعمل إلا إذا دعت الحاجة، ويجب تعويده على الاستعداد الدائم والأهبة السريعة. حتى أصبح للسلطان السلجوقي مماليك صغار كأنهم أقمار، وكلا عليهم من الحسان الخواص رقباء، وعلى طرائقهم من جنسهم نقباء[1].

كانت الدولة الفاطمية أول من وضع نظاماً تربوياً للمماليك في مصر. فقد استطاع الأسطول الفاطمي أن يحمل إلى مصر الكثير من أسرى الحروب، وكان صغار الأسرى يتلقون الكتابة والرماية ويطلق عليهم اسم «الترابي»، وقد وصل بعضهم إلى مناصب عالية[2].

أقام صلاح الدين الأيوبي الدولة الأيوبية، عن طريق أتابكه نور الدين محمود بن زنكي وأصله من مماليك الدولة السلجوقية. لذلك سار صلاح الدين وخلفاؤه من بعده على منوال السلاجقة في الاعتماد على المماليك الأتراك وتربيتهم على مقربة منهم لاصطناعهم الشخصي، بأنه لا يمكن للعرب أن يخلصوا في خدمتهم. حتى ظهرت الفروسية المملوكية بشكلها المعروف زمن دولة المماليك الأولى.

تبدأ الفروسية المملوكية، بعد شراء السلطان مماليكه حيث يرسلهم إلى الطباق لتلقي التربية العسكرية. وتشتمل الطباق على عدة مساكن تتسع لألف مملوك[3]. وكان الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٩) أول من بنى الطباق للمماليك بجانب برج الزاوية المجاور لباب القلة. كما بنى طباقين آخرين في القلعة، وكانا مطلين على رحبة الجامع[4].

---

(١) عماد الدين الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١١٣.

(٢) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ١٩١.

(٣) القلقشندي. صبح الأعشى. جـ ٣، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١، المقريزي: الخطط، جـ ٣، ص ٢١٦ ـ ٢١٧، الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٢٢٧.

(٤) ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

ثم عمد السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٦٩٢/ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣) إلى ترتيب المماليك، كل منهم في الطباق المخصص لبني جنسه[1]، مما أوجد نوعاً من العنصرية والتباغض بين المماليك انعكس على وجودهم داخل الجيش المملوكي. وأجاز الأشرف خليل لمماليكه النزول من القلعة في النهار: على ألا يبيتوا إلا بها[2].

وقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في فترة حكمه الثالثة (٧٠٩ ـ ٧٤٢/ ١٣٠٩ ـ ١٣٤١) ببناء الطباق الجديدة بساحة الإيوان في القلعة، وقد بلغ عددها اثني عشرة طبقة[3]، وذلك بعد نشوب الحريق في طباق المماليك قرب البرج المنصوري سنة ٧١٥/ ١٣١٥ وأسكن المماليك السلطانية في هذه الطباق الجديدة سنة ٧٢٩/ ١٣٢٩، والتي أرادها كلها في مكان واحد يجمع جمع فئاتها المختلفة. لذلك يعتبر المماليك السلطانية العنصر الأساسي في الجيش المملوكي والقوة الرئيسية في الحروب، بعد أن أتقنوا فنون الفروسية.

تبدأ تربية المماليك في الطباق بالقلعة بعد أن ينزلوا فيها وهم صغار السن بـ «رسم الكتابة»، وتعني تعلم القرآن الكريم والصلاة والشريعة والفقه والخط، لذلك سموا «المماليك الكتابية»[4]. وقد أقاموا في طباق خاصة، وقد تعلم بعض المماليك الكتابية مع أبناء السلاطين والأمراء في مكتب خاص في بيوتهم. وبذلك كان هؤلاء المماليك أحسن ثقافة ومكانة من المماليك الذين يجلبون وهم كبار السن بسبب تعلمهم العربية وآداب الشريعة، فضربوا المثل في القتال والمعاصي وإدمان الخمر وعدم معرفة أنواع الفروسية.

بعد أن يبلغ المملوك سن البلوغ ينتقل من التعليم الديني «رسم الكتابة»، إلى التعليم الحربي من رمي السهام واللعب بالرمح والضرب بالسيف وركوب

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ ٢، ص ٣٦٧.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.
(٣) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٢٧.
(٤) المقريزي: الخطط، جـ ٣، ص ٢٤٧.

الخيل على يد معلمين أخصائيين في مختلف فنون الفروسية[1]. ويعتبر ركوب الخيل أساس الفروسية في كل زمان ومكان، وقد عني السلاطين والأمراء بإعداد الاصطبلات الحافلة بأنواع الخيول وأهمها إصطبل الجوق[2].

وكانت جماعة الطواشية تشرف على تربية وتعليم المماليك في الطباق، ومراقبة عدم اختلاط الكبار بالصغار منهم. والطواشي هو الخصي الذي يخدم في الطباق، وقد بلغ عدد الطواشية في الطباق في وقت ما حوالي الثمانمائة ومعظمهم من الأحباش والروم، جيء بهم إلى مصر مع المماليك. ويبدأ الطواشي أحياناً خادماً صغيراً في البيوت السلطانية وخاصة بيوت الحريم السلطاني، ثم ينتقل بعد ذلك في الوظائف الطباقية حتى يصل إلى رتبة مقدم المماليك[3]. وقد ظلت وظيفة مقدم المماليك في أيدي الطواشية حتى عين السلطان الناصر محمد بن قلاوون أميراً من أمراء المماليك هو آقبغا عبد الواحد، فتولى وظيفة مقدم المماليك في الفترة (٧٣٢ ـ ٧٤١هـ/١٣٣١ ـ ١٣٤٠م) وذلك بعد أن وجد السلطان تهاوناً في مراقبة المماليك حيث نزل بعضهم من الطباق في القلعة إلى القاهرة[4].

وبعد تخرج المملوك من الطباق جندياً، يعتقه السلطان من الرق ويقدم له الخيل والقماش، ويصبح عندها من المماليك السلطانية بعد أن يحصل على ما يلزمه من جميع أنواع الأسلحة، من السيوف والقسي والنشاب والرماح والدروع وغيرها. أما الخيل فيحصل عليها من اصطبل الجوق الذي خصص لخيول السرج. ويقام عرض يطلق عليه «خرج» (أي التخرج) يحصل فيه المملوك على

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، جـ١، ص ١٢٤ ـ ١٢٦، ٢٩٦، وجـ٣، ص ٨٤ ـ ٩٠، ص ١٦٥، وجـ٧، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٢) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ١٢٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٤٠ ـ ١٤١؛ المنهل الصافي، جـ١، ص ٣٠١، ٣٣٣، ٣٠٨، ٣٠٥، ٣٣٦، وجـ٢، ص ١٢ ـ ١٣، ٥٦، وجـ٣، ص ٤٦، ٤٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ٢، ص ٣٤٠ ـ ٣٤٦، ٣٧٧، ٤٠٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ٩٨، ١٠٦.

إجازة بانتهاء تعليمه يطلق عليها «عتاقة»، وتعني أنه غدا جندياً حراً مدرباً[1].
وجرت العادة أن يعتق المماليك جماعات، ما عدا جقمق الذي تولى السلطنة فيما بعد، فقد أعتق بمفرده بسبب حظوة أخيه جاركس القاسمي لدى السلطان برقوق.

وقد حرص السلاطين على ألا يقيموا عرض التخرج إلا بعد مرور مدة طويلة على العرض الماضي، وأن لا يخرج في سنة واحدة «خرجين» وذلك حتى تطول مدة تربية وتدريب المماليك في الطباق. لكن سلاطين دولة المماليك الثانية «البرجية»، اهتموا بتخريج المماليك من الطباق أفواجاً بعضها إثر بعض في سرعة دون أن يكترثوا لمدة تعليمهم وتربيتهم، مما انعكس سلباً على الفروسية المملوكية التي لم تراع في التربية إلا نادراً فأصابها الضعف والإضمحلال.

يتابع المملوك بعد تخرجه من الطباق وعتقه، تعلّم فنون الفروسية الأخرى من سَوْق البرجاس والمحمل ولعب الصولجان واستعمال القربوس والمران على المصارعة وسباق الخيل. وكانت ساحة بولاق والرميلة تحت القلعة من أهم ميادين اللعب بالرمح وسَوْق المحمل[2].

وبعد نيل المملوك العتاقة وبلوغه مرتبة الجندية، يبدأ مرحلة جديدة في حياته بالتدرج في الوظائف من رتبة إلى أخرى حتى يبلغ منصب أمير عشرة وأمير طبلخاناة[3]، وإذا واتاه الحظ يبلغ أمير مائة ومقدم ألف. حتى أن البعض وصل إلى مرتبة نائب السلطنة في مصر والشام ومنهم من وصل كرسي السلطنة.

وعلى هذا الأساس، لعب الرق دوراً مهماً في تنمية شخصية المملوك بعد

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٥٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٩ ـ ٢٥، ٢٥١ ـ ٢٥٦، ٤٢٥، ٥٥٦، وجـ ٧، ص ٢٥، ١٦٢، ١٩٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٤، ص ١٧٩ ـ ١٨٠، ٣٢٦، ١٠٦، وجـ ٥، ص ١٦، ٢٧٨.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ١٠٢.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٥٥؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ص ٣١٤ ـ ٣١٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٨، ١٨٣ ـ ١٨٤.

أن يشتريه السلطان ليرسله صغيراً إلى الطباق، فيتحول أثناء استرقاقه إلى الإسلام ويتعلم قراءة وحفظ القرآن الكريم وآداب الشريعة الإسلامية، ثم ينتقل من مرحلة التعليم الديني إلى التعليم الحربي حتى يتم تخرجه جندياً حراً بعد أن يحصل على «عتاقة». لكن العلاقات بين المماليك الذين جمعتهم أواصر الرق والتربية والتدريب في الطباق ثم العتق والخدمة بعد التخرج، وكذلك العلاقات بين المملوك الكبير والمملوك الصغير، تشبه أحياناً روابط البنوة والأخوة، فالأستاذ هو الأب والآغا هو الأخ الكبير، والإيني هو الأخ الصغير، فكأنها العائلة التي وجدوا أنفسهم فيها تجمعهم وحدة اجتماعية متماسكة.

تبدو أهمية الطباق في كونها جمعت بين طوائف من المماليك جاءت من بلاد وأجناس مختلفة. ورغم كثرة العنصر التركي في دولة المماليك الأولى «البحرية»، وغلبة العنصر الجركسي في دولة المماليك الثانية «البرجية»، فقد خضعت جميع العناصر المملوكية لما فرض عليها من نظام صارم ودروسه وتعاليمه، فضلاً عن اعتناقهم جميعاً الدين الإسلامي، وتعلمهم أصوله بعد انقطاع الصلة التي تربطهم بموطنهم الأصلي ومعتقداتهم الأولى، فشكلوا نخبة الدولة الإسلامية وأبلوا بلاءً حسناً في قتال المغول والصليبيين. وهذا الأمر لم يمنع من ظهور خطر هؤلاء المماليك على مركز السلطان نفسه وإثارة البغضاء والكراهية ضد الفئات الأخرى داخل الجيش المملوكي التي لم تنشأ في الطباق. وكانت قوة شخصية السلطان هي الكفيلة بإخضاعهم لإرادته، فإذا ما انتابه الضعف ثاروا عليه وشاركوا في الفتن سعياً وراء المال رغم الامتيازات العديدة التي منحها السلاطين لهم. وهذا ما تجلى في دولة المماليك الثانية «الجراكسة»، بعد أن أصاب الفروسية الخلل، فلم يعد سلاطين الجراكسة يحتملون طول مدة بقاء المملوك في الطباق، وأكثروا من جلب البالغين من المماليك الذين يصعب إعادة تربيتهم من جديد، فضلاً عن هجرة الكثيرين منهم في جماعات تضم عائلات بأسرها نتيجة حروب المغول تجاوزوا مصر وأصبحوا مصدراً للفتن والخراب[1].

(1) المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ١٦٣ - ١٦٤.

وهكذا تجلى ضعف الفروسية المملوكية حين اصطدم السلطان قانصوه الغوري لمواجهة العثمانيين في مرج دابق سنة ٩٢٢/١٥١٦م، حيث وقع الشقاق والنزاع بين الفئات المختلفة من المماليك التي لا يهمها إلا نهب الناس والتعدي على الضعيف بعد أن قلّت شجاعتهم ومروءتهم وكثرت فتنهم الداخلية[١]، فولى معظمهم الأدبار وسقطت دولة المماليك الثانية في الشام سنة ٩٢٢/١٥١٦، ثم في مصر سنة ٩٢٣/١٥١٧.

ورغم ذلك كله بقي نظام الفروسية المملوكية قائماً في مصر حتى زال في مطلع القرنين الثالث عشر للهجرة/التاسع عشر للميلاد، على يد محمد علي باشا الذي قضى نهائياً على قوة المماليك.

هـ - سلاح المدفعية وحملة البنادق:

لا يمكن الجزم بهوية المكتشف الأول للبارود، فقيل إنه الصين، أو الهند، كما قيل اليونان أو العرب. لكن مما لا شك فيه أن استخدام البارود عرف في الشرق والغرب خلال النصف الثاني من القرنين السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. ويتركب البارود من ثلاث مواد هي الملح الصخري، والكبريت، والفحم النباتي، وذلك بنسب معينة، لتصبح قابلة للانفجار[٢]. ويعتبر الراهب البريطاني روجيه باكون (ت ٦٩١/١٢٩٢) أول من سجل كيفية تركيب البارودة سنة ٦٥٨/١٢٦٠[٣]، وقد أمر البابا نقولا الثالث بسجنه، نتيجة لاكتشافه هذا لأنه يبعث على الشك والريبة.

كان اكتشاف البارود، تمهيداً لاختراع المدفع، الذي بدوره لا يزال مثار جدال حول هوية مخترعه. ومما لا شك فيه أيضاً أن المدفع الأول، كان عبارة عن إناء ضخم ضيق العنق، يوضع على قاعدة خشبية ذات أربع قوائم، ويقذف سهماً كبيراً بعد وضع النار على ثقب في مؤخرته. وقد بدأ استعماله أثناء حصار

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ٢١٥ - ٢٢٦.

(٢) سهيل العامر: السلاح الناري وأثره في الشرق في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، ص ٣، رسالة ماجستير في التاريخ - الجامعة اللبنانية، كلية الآداب بيروت ١٩٨٩.

(٣) Stadley: Guns. P 23

مدينة فلورانس سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، كما استخدمه إدوارد الثالث ملك إنكلترا في حربه ضد فرنسا سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م، وكان المدفع يطلق الأسهم الكبيرة رغم وقتئذ أوسع من فوهته. ولم تأت سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، حتى شاع استخدام المدفع في أوروبا، وأصبح يطلق قذائف من الرصاص أو الحديد أو البرونز، وأحياناً يطلق عدداً من القذائف الصغيرة دفعة واحدة. وسنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م، صنع المدفع المحمول الذي يحمله رجل واحد وزنه خمسة كيلوغرام، ويتم تشغيله بواسطة فتيل وقذائف مصنوعة من الرصاص.

وكان المماليك أول من استعمل سلاح المدفعية في المشرق العربي الإسلامي في سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م[١]، أي بعد سبع عشرة سنة على استخدامه في أوروبا. وبقي استعماله محدوداً حتى استخدم بشكل واضح في القاهرة ودمشق خلال فترة الصراع بين برقوق وأعدائه حول السلطنة (٧٩١ - ٧٩٢هـ/١٣٨٩ - ١٣٩٠م) وهذا يعني أن المماليك سبقوا العثمانيين في استعمال المدفعية بحوالي ثلاثة أرباع القرن. لكن العثمانيين الذين عرفوا المدفعية لأول مرة في زمن السلطان محمد الأول (٨١٦ - ٨٢٤هـ/١٤١٣ - ١٤٢١م)، عرفوا أيضاً كيف يحولونها إلى السلاح الرئيسي في حسم نتائج المعارك، داخل ساحات القتال. أما المماليك فقد استخدموا المدفعية كسلاح دفاعي وهجومي خلال عمليات الحصار فقط[٢]. وفي ساحات القتال اعتمدوا على سلاح الفرسان والفروسية المملوكية.

وزمن السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ - ٧٧٨هـ/١٣٦٤ - ١٣٧٦م)، كان القلقشندي في مدينة الإسكندرية، شاهد مدفعاً صنع من النحاس والرصاص وطُوِّق بأطواق الحديد، رمى منه من الميدان بندقة من حديد محماة تزيد على مائة رطل، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر وهي مسافة بعيدة[٣].

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٠١.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٦، ص ١١٢
ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١، ص ٦٦، ٢٦٧، ٢٨٩، ٣١٥، ٤٥٨.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ٢، ص ١٤٤.

وكذلك اشتهر المدفع السلطاني الذي سبكه إبراهيم الحلبي في قلعة الجبل زمن السلطان خشقدم (٨٦٤ ـ ٨٧٢/ ١٤٦٠ ـ ١٤٦٧). وعند تجربة هذا المدفع في ٩ شوال ٨٦٨/ ١٤٦٤، علا دوي هائل سقط بعده حجر المدفع على مسافة أربعة آلاف وثمانية وعشرين ذراعاً. وعند تجربته بعد خمسة أيام في ١٤ شوال سقط حجر المدفع على مسافة خمسة آلاف وثمانية وأربعين ذراعاً[1].

وكان هذا المدفع عبارة عن ماسورة مثبتة بواسطة أربطة حديدية على قاعدة خشبية، ويليها غرفة خلفية للتعمير تحتوي على فتحة خرطوشة لإشعال المادة القاذفة بواسطة فتيل مشتعل مثبت على عصا طويلة. وكانت عملية التصويب تتم بالعين المجردة.

وفي صفر ٨٩٥/ كانون الثاني ١٤٩٠[2]، استعمل المماليك البندقية لأول مرة خلال سلطنة الأشرف قايتباي (٨٧٢ ـ ٩٠٢/ ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦)، وتم إنشاء وحدات خاصة بها لمساندة سلاح المدفعية أثناء الحصار. والبندقية مشتقة من كلمة «البندق» العربية والتي تعني ثمرة البندق، ثم أصبحت تعبيراً عن طلقة من الصلصال بحجم ثمرة البندق، ثم تحولت إلى بندق الرصاص، ثم إلى السلاح الناري الذي حمل اسم البندقية[3].

لكن تمسك المماليك بالفروسية، جعلهم لا يعيرون البندقية مثل المدفع، أهمية كبرى، خاصة وأن البندقية هي السلاح الأول للمشاة، لذلك أوكل سلاح البندقية إلى العبيد السود في الفترة (٨٩٦ ـ ٩١٦/ ١٤٩١ ـ ١٥١٠). ويشكل العبيد أدنى طبقة وعملهم الأساسي لا يعدو كونهم خدم عند فرسان المماليك، وقد عرفوا باسم «عبيد نفطية»[4]. ولم يقتصر دورهم على إطلاق نيران البنادق في المناسبات[5]، بل تعداه إلى الاشتراك في بعض المعارك التي كانت تدور حول السلطة وفي إخماد الفتن[6].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٢، ص ١٩٦.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٢٦٣.
(٣) ابن طولون: أعلام الورى، ص ١٠٥.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٣، ص ٢٨٢، ٣٨٦، ٤٠٢، ٤٠٣.
(٥) ابن طولون: أعلام الورى، ص ١٠٤.
(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٣، ص ٣٤٣؛ ابن طولون: أعلام الورى، ص ١٤٩، ١٥٠.

وتوقف الاعتماد على هؤلاء العبيد في وحدات حملة البنادق في الفترة (١٩١٦ ـ ٩٢١/ ١٥١٠ ـ ١٥١٦)، وذلك بسبب تزايد الخطر البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي، حيث استعملت البنادق في هذه الجبهة. وهذا كله يشير في النهاية إلى خشية المماليك من إقامة وحدات خاصة بحملة البنادق من غير المماليك حتى لا تتمكن هذه الوحدات من السيطرة على الجيش المملوكي بأسره، كما يشير إلى تمسك المماليك بسلاح الفرسان كسلاح رئيسي في المعارك.

وقد تجلى دور البندقية المملوكية، بعد أن أعاد المماليك البنادق إلى العبيد السود سنة ٩٢٢/ ١٥١٦م، فأظهروا بطولة في مساندة طومان باي آخر سلاطين المماليك، وهو يواجه العثمانيين سنة ٩٢٣/ ١٥١٧، وذلك بعد فوات الأوان، حيث تم النصر النهائي للعثمانيين الذين اعتمدوا بصورة رئيسية على سلاح المدفعية وحملة البنادق.

٣ ـ تطور النظام القضائي حسب المذاهب الأربعة عند أهل السنة:

مع قيام دولة المماليك الأولى سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠، استمر المذهب الشافعي كمذهب لقاضي القضاة.

ومع حلول سنة ٦٦٣/ ١٢٦٥، استقر الحال على قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة عند أهل السنة[1]. ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس رأى تقرير هؤلاء الأربعة حتى لا تضطرب الأمور بسبب اختلاف المذاهب، كما حدث مع تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز الشافعي[2] الذي تقلد منصب قاضي قضاة مصر سنة ٦٥٩/ ١٢٦١، حيث اضطربت الأحوال بسبب اختلاف

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١، ص ٣٥، ٣٦.

(٢) تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز خلف بن رشيد الدين بن محمود بن بدر العلائي الشافعي: ولد سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧ وكان ديناً، عفيفاً نزهاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يقبل شفاعة أحد، وجمع له تقليد القضاء المصرية بكاملها، والخطابة، والحسبة ومشيخة الشيوخ، وباشر الوزارة في بعض الأوقات وفاز السلاطين بحظه ... الفقهاء بعث منى الدين إلى دمشق.
القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٦ ص ١٧٥ ـ ١٧٣.

المذاهب مما اضطره للتوقف كثيرا في أمور تخالف مذهب الشافعي، وتوافق غيره من المذاهب. فأشار الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي[1] على السلطان الظاهر بيبرس بأن يولي من كل مذهب قاضياً مستقلاً يحكم بمقتضى مذهبه، فأجابه إلى ذلك عندما عقد اجتماع في دار العدل يوم الاثنين ٢٢ ذي الحجة سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، حيث اقتضى رأي السلطان تعيين قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة[2]، مع بقاء النيابة للشافعية. وكتب لكل منهم «تقليدا» بذلك؛ لكنه خصَّ قاضي القضاة الشافعي بالتولية في بلاد الريف دون غيره من الثلاثة الآخرين، وقد رسم المكاتبة إليه «المجلس العالي»، أما بقية قضاة القضاة الحنفي والمالكي والحنبلي فرسم إليهم «المجلس السامي»[3].

ويعتبر هذا الإجراء أهم تطور في النظام القضائي، لأنه يعني تحريم أي مذهب عدا المذاهب الأربعة عند أهل السنة (الحنفية، المالكية، الشافعية، الحنابلة)، وأصبحت لا تقبل شهادة أحد، ولا يرشح لوظائف القضاء، أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس، إلا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب. وسنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، حذت دمشق حذو القاهرة وأصبح لكل مذهب قاضي قضاة، ثم أصبح في كل نيابة من نيابات الشام، أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة[4]. واضطر المماليك للتهديد باستعمال القوة العسكرية للقضاء على المذاهب الأخرى، وخاصة رواسب المذهب الإسماعيلي الفاطمي[5].

---

(1) الأمير جمال الدين أيدغدي بن عبد الله العزيزي (ت ٦٦٤هـ/١٢٦٦م). من أكابر الأمراء وأعظمهم عند السلطان الظاهر - لا يكاد الظاهر يخرج عن رأيه. كان متواضعاً لا يلبس محرماً، فقيهاً ديّناً سمحاً في أمواله، توفي بدمشق، ودفن بسفح قاسيون.
ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣، ص ٢٤٥ و ٢٤٨.

(2) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ٢٤٥.

(3) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٦٥، ١٦٦.
القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١١ ص ١٧٤.

(4) المقريزي: الخطط جـ ١ ص ١١٦؛ السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٥٣٨ و ٥٣٩. عصام شبارو: تاريخ بيروت ص ١١٤؛ قاضي القضاة في الإسلام، ص ٤٢.

(5) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ص ١٩٥، عصام شبارو، تاريخ بيروت ص ١١٤؛ قاضي القضاة في الإسلام، ص ٤٣.

١ـ المذهب الشافعي:

في مصر، أقر الظاهر بيبرس قضاء قضاة الشافعية تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، وذلك سنة ٦٦٣/ ١٢٦٤. ومن الذين تقلّدوا قضاء قضاة الشافعية أيضاً، أبو عبد الله تقي الدين بن رزين الشافعي (ت ٦٨٠/ ١٢٨١)، وقد عزله السلطان[1] سنة ٦٧٨/ ١٢٧٩، وولّي عوضاً عنه صدر الدين عمر (ت ٦٨٠/ ١٢٨٦)[2]. كما تقلّد برهان الدين الخضر بن الحسن بن علي السنجاري قضاء قضاة الشافعية أكثر من مرة، ثم تقلّدها عوضاً عنه تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز في سنة ٦٨٦/ ١٢٨٧[3]. ومن الذين تقلّدوا منصب قاضي قضاة مصر على المذهب الشافعي، ابن دقيق العيد تقي الدين محمد (ت ٧٠٢/ ١٣٠٢-١٣٠٣)[4]، وكان مالكياً ثم صار شافعياً، ثم بدر الدين بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة (ت ٧٣٣/ ١٣٣١)[5]، وقد عين سنة ٧٢٧/ ١٣٢٦ بقاضي القضاة جلال الدين بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٣٩/ ١٣٣٨)[6].

وفي دمشق، كان ابن خلكان (ت ٦٨١/ ١٢٨٢) أول من تقلّد قضاء قضاة الشافعية، عندما جعل الظاهر بيبرس أربعة قضاة من كل مذهب قاضٍ سنة ٦٦٤/ ١٢٦٦. وقد عزل ابن خلكان عدة مرات ليتولى مكانه عز الدين بن الصائغ، وكذلك أبو المفاخر عز الدين محمد[7] (ت ٦٨٣/ ١٢٨٤)، وبعد عزله ولي القضاء بهاء الدين يوسف بن محيي الدين بن الزكي

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣، ص ٢٨٨، حسام شاور، قاضي القضاة في الإسلام، ص ١٢.

(٢) ابن كثير. البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ٣٠٩، ٣١٠.

(٤) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٨، ص ٢٠٦؛ الزركلي: الأعلام جـ ٦ ص ٢.

(٥) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٣٦٧، ابن طولون: قضاة دمشق ص ٨٩؛ السبكي: طبقات الشافعية جـ ٩، ص ١٣٩.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١٨٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٥.

(٧) ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٣، ص ٣٠٤.

(ت ٦٨٥/ ١٢٨٧)[1]. وفي ١٣ ربيع الأول ٦٨٦/ ١٢٨٧، قدم من القاهرة شهاب الدين محمد بن شمس الدين بن الخليل الخويي (ت ٦٩٣/ ١٢٩٤)[2]، ليتقلد قضاء القضاة الشافعية بدمشق[3]. وكان شهاب الدين يتولى قضاء القاهرة والوجه البحري، فلما مات بهاء الدين بن الزكي بدمشق نقل إليها وكان قد نشأ بها. وكذلك جمال الدين الأذرعي الشافعي (ت ٧٣٤/ ١٣٣٣)[4]، الذي تقلّد المنصب بعد نجم الدين بن صصرى، وقبلهما تقلّد علم الدين المصري الشافعي (ت ٧٣١/ ١٣٣١)[5].

وفي حلب، تقلّد محيي الدين الأسدي الشافعي (ت ٦٧٢/ ١٢٧٣)[6] منصب قاضي القضاة. وكذلك شمس الدين بن بهرام الشافعي (ت ٧٠٥/ ١٣٠٥)[7]. وأما أبو اليسر بن الصائغ[8] (ت ٧٢٩/ ١٣٢٨) فقد تقلّد قضاء قضاة حلب ثم استعفى، وهو ابن عم قاضي قضاة حلب نور الدين الصائغ الشافعي (ت ٧٤٩/ ١٣٤٨)[9]. وفي حلب أيضاً، برز اسم قاضي القضاة جمال الدين إبراهيم بن أبي جرادة المشهور بابن العديم[10]، وابنه قاضي القضاة كمال الدين عمر[11]. وكذلك قاضي القضاة ابن خطيب جبرين الشافعي[12] (ت ٧٣٩/ ١٣٣٨).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣، ص ٢٠٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١٣ ص ٢٠٩.
(٣) الذهبي: العبر جـ ٥ ص ٣٧٩، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات جـ ٣ ص ٣١٣ ـ ٣١٤، الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٦، ص ٣٣٧، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٩، السيوطي: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤١٢.
(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ١٥ ص ١٦٦، ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٥٥.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٦٠.
(٦) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات جـ ١ ص ١٨٢ ـ ١٨١.
(٧) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٠٩.
(٨) المصدر نفسه: جـ ١ ص ٣٣٢.
(٩) المصدر نفسه، جـ ١ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.
(١٠) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٩ ص ١٣٨.
(١١) المصدر نفسه، جـ ١٩ ص ٤١٠.
(١٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

وفي طرابلس، تقلّد ابن النقيب الحاكم بحمص، قضاء القضاة سنة ٧٢٧/١٣٢٦[1]. وفي سنة ٧٢٩/١٣٢٨، تولى ابن المجد الشافعي[2] قضاءه، وتوفي بعد أربعة أشهر فتولى ابنه تقي الدين.

ب ـ المذهب المالكي:

أما المذهب المالكي، فيعتمد على القرآن الكريم، ثم السنة وهي عنده وافرة كثيرة، ثم يلجأ إلى الإجماع، وقد دوّن الإمام مالك مذهبه في كتابه «الموطأ»، فيسود في الحجاز وعاصمة المدينة المنوّرة.

ومع الترتيبات القضائية التي قام بها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢/١٢٦٥، تقلّد قضاء قضاة المالكية في مصر شرف الدين السبكي (ت ٦٦٨/١٢٦٩)، وكذلك أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن عمر الزواوي (ت ٦٨٣/١٢٨٤). وسنة ٦٨٥/١٢٨٦ تولى ابن مخلوف (ت ٧١٨/١٣١٨)[3] قضاء قضاة المالكية في مصر، لمدة تزيد عن الثلاثين سنة، وبعد وفاته تقلّد قضاء القضاة تقي الدين الإخنائي[4]، كما تقلّده جمال الدين يوسف البساطي سنة ٨٠٤/١٤٠١[5] زمن السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق (ت ٨١٥/١٤١٢)، وأيضاً جمال الدين عبد الله الأقفهسي المالكي[6].

أما في دمشق، وبعد أن قلّد الظاهر بيبرس قضاء قضاة المالكية سنة ٦٦٤/١٢٦٦ لزين الدين عبد السلام الزواوي (ت ٦٨١/١٢٨٢)، تقلّد

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٤ ص ١٢٦.

(٢) المصدر نفسه، جـ١٤ ص ١٤٦.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٢٢ ص ١٨٩ ـ ١٩٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٩٠؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة جـ ٣ ص ١٩٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٩٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٥٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٦ ص ٤٩.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٢٩ ص ١٩٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٨١ و ٢٦٥.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١١، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٦) المصدر نفسه، جـ ١١، ص ١٧٥.

الكثير من هذا المنصب، مثل قاضي القضاة جمال الدين الزواوي (ت ٧١٧/ ١٣١٣)[1]، وكذلك قاضي القضاة محيي الدين أبو بكر وابنه محمد (ت ٧٤٨/ ١٣٤٧)[2]، وسنة ٧٤٩/ ١٣٤٨، كان جلال الدين المسلاتي قاضي قضاة المالكية بدمشق[3].

جـ - المذهب الحنفي:

بتعيين قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة في مصر سنة ٦٦٣/ ١٢٦٥، تقلّد شمس الدين سليمان الحنفي قضاء قضاة الحنفية. وقد تقلّد هذا المنصب أيضاً جمال الدين محمود القيصري المعروف بالعجمي زمن السلطان الظاهر برقوق[4]. وكذلك شمس الدين أحمد السروجي الحنفي (ت ٧١٠/ ١٣١٠)[5]، وتقلّد هذا المنصب حسام الدين الغوري حسن بن محمد سنة ٧٣٩/ ١٣٣٨[6]، وعلاء الدين بن التركماني الحنفي سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨[7].

أما في دمشق، فقد تقلّد شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء قضاء قضاة الحنفية سنة ٦٦٤/ ١٢٦٦. وتلاه مجد الدين عبد الرحمن بن العديم الحنفي (ت ٦٧٧/ ١٢٧٨)، ثم باشر صدر الدين سليمان القضاء عوضاً عن ابن العديم. وبوفاة صدر الدين سليمان سنة ٦٧٨/ ١٢٧٩، تقلد حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن أنوشروان الرازي الحنفي، الذي كان قاضياً بملطية قبل ذلك[8]. وسنة ٦٩٧/ ١٢٩٧ تقلّد جلال الدين بن حسام الدين قضاء قضاة الحنفية بدمشق[9]، كما تقلّده عماد الدين الطرسوسي[10] سنة ٧٣٩/ ١٣٣٨، ونجم الدين الصفي[11] سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨.

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٦٠.
(2) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٦ ص ٢٤٠؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤٠١.
(3) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٢٥
(4) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١١ وص ١٧٨ و ١٥٨ ـ ١٦١.
(5) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٦٦
(6) المصدر نفسه، جـ ١٤ ص ١٨٤.
(7) المصدر نفسه، جـ ١٤ ص ٢٣٥
(8) المصدر نفسه، جـ ١٣ ص ٢٨٠.
(9) المصدر نفسه، جـ ١٣ ص ٣٥٢
(10) المصدر نفسه، جـ ١٤ ص ١٨٤.
(11) المصدر نفسه، جـ ١٤ ص ٢٣٥.

د ـ المذهب الحنبلي:

يعتبر ابن حنبل إمام المذهب ثقة، لذلك أخذ على عاتقه نصرة السنة إذ كان الحديث الضعيف أحب إليه من الرأي، وقد دوّن مذهبه في كتابه «المسند» الذي جمع فيه حوالي ٤٠ ألف حديث.

ويذكر القلقشندي نسخة توقيع قضاء قضاة الحنابلة في مصر[1] حيث تقلّد قضاء قضاة الحنابلة سنة ٦٦٣/١٢٦٤ شمس الدين محمد المقدسي (ت ٦٧٦/١٢٧٧). كما تقلّد هذا المنصب عز الدين المقدسي الحنبلي (ت ٦٩٦/١٢٩٦)[2]، ثم شرف الدين الحراني (ت ٧٠٩/١٣٠٩)[3]، ثم تقي الدين أبو العباس المقدسي الحنبلي[4]. وسنة ٧٢٩/١٣٢٨، كان قاضي قضاة الحنابلة يسمى موفق الدين بن نجا المقدسي، وقد استمر في منصبه حتى سنة ٧٤٩/١٣٤٨[5].

أما في دمشق، فقد تقلّد شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر، قضاء قضاة الحنابلة سنة ٦٦٤/١٢٦٦. وفي أول صفر سنة ٦٧٩/١٢٨٠ باشر نجم الدين ابن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر (ت ٦٨٩/١٢٩٠)[6]، وقد كان المنصب شاغراً منذ أن استعفى والده من القضاء[7]. ومن الذين تقلّدوا بدمشق أيضاً، قاضي القضاة تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي (ت ٧١٥/١٣١٥). وبوفاته تقلّد ابن مسلم الحنبلي (ت ٧٢٦/١٣٢٦)[8]، ثم جاء بعده قاضي القضاة عز الدين المقدسي (ت ٧٣١/١٣٣٠)[9]، وبعد وفاته تولى القضاء نائبه شرف الدين بن الحافظ

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١١ ص ١٩٢ ـ ١٩٦.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠١

(3) المصدر نفسه، جـ ١٤ ص ٥٦

(4) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٧ ص ١٦٦؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة جـ ١ ص ١٢٥.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٨٤ و ٢٢٤.

(6) المصدر نفسه، جـ ١٣ ص ٢١٦ ـ ٢١٩

(7) المصدر نفسه، جـ ١٣ ص ٢٩٤.

(8) المصدر نفسه، جـ ١٤ ص ١٢٦

(9) المصدر نفسه، جـ ١٤ ص ١٤١، ١٥٥.

عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن الحافظ المقدسي الحنبلي (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م)[1] وسنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، خلع على علاء الدين بن الشيخ زين الدين ابن المنجا بقضاء الحنابلة عوضاً عن ابن الحافظ[2]. وتقلّد علاء الدين بن المنجا الحنبلي (ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م) حتى سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م، زمن السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، حتى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، زمن السلطان ناصر الدين حسن بن المنصور[3].

وفي القدس كان قاضي القضاة أبو اليمن مجير الدين (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م)[4]، آخر من تقلّد قضاء قضاة الحنابلة زمن المماليك.

٤ ـ النظام الاقتصادي التجاري:

رافق قيام دولة المماليك في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، غزو المغول ثم استيلاؤهم على بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وامتداد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى إضافة إلى فارس التي اتخذها هولاكو مركزاً لامبراطوريته في الشرق الإسلامي. ثم اشتد الصراع بين المغول أنفسهم، مما أدى إلى اضمحلال الطريق البري بين الصين من جهة: وآسيا الصغرى وموانىء البحر الأسود من جهة أخرى. وأضحى هذا الطريق محفوفاً بالمخاطر واعتداءات اللصوص. وكذلك تجنب التجار سلوك الطريق البحري من الصين إلى الهند إلى هرمز على الخليج العربي الإسلامي، وذلك بسبب ازدياد نشاط القراصنة عند البحرين وقطر وعلى الساحل الفارسي عند الخليج العربي الإسلامي، وكان ذلك من حسن حظ المماليك عندما اتصل الطريق البحري الآتي من الشرق الأقصى عبر المحيط الهندي إلى البحر الأحمر، حيث يسلك طريقين، الأول عبر سيناء إلى دمشق فموانىء البحر المتوسط، والثاني عبر الصحراء إلى النيل فالقاهرة، ثم بالنيل أيضاً إلى الاسكندرية. وقد أدى ازدهار طريق البحر الأحمر خدمة عظيمة لدولة

---

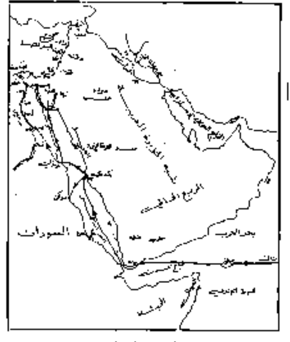
(١) ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٤٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١٤ ص ١٤٧.

(٣) ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٥١ و ٢٢٥. القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٦ ص ٥٥.

(٤) محمد جميل الشطي: مختصر طبقات الحنابلة ص ١٠٣

المماليك الأولى في بداية نشأتها حيث أتاح لها فرصة القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب. فدولة المماليك تقع على طريق البحر الأحمر وهو أقصر الطرق الموصلة إلى الهند مصدر السلع الأكثر طلباً في أوروبا (البخور والبهارات والتوابل)، وتتصل بأوروبا بالمراسي المملوكية على البحر المتوسط، وبخطوط تجارية منتظمة بين الشرق والغرب تمر في تلك المواني.



طرق البحر الأحمر وطرق القوافل البرية والنهرية إلى مصر.

وهكذا أدرك المماليك أهمية طريق البحر الأحمر، فعمل السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩/١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) على التقرب من القوى المتواجدة في حوض البحر الأحمر وخاصة مع أبي يحيى شريف مكة، ويوسف الأول بن عمر أمير اليمن[1] الذي كان يسيطر على ميناء عدن، وهو مدخل البحر الأحمر الجنوبي وأكبر المراكز التجارية حيث يتم تبادل السلع الشرقية والغربية. كان أمير اليمن يسبب متاعب كثيرة للتجار. وأصبحت السفن الآتية من الصين أو الهند تلقي رحلتها في عدن ولا يسمح للبضائع المتوجهة إلى مصر بعبور البحر الأحمر لسيناء، إنما يرسلها أمير اليمن بقوافل خاصة عن طريق البر فيجني أرباحاً طائلة في حين تلحق خسارة كبيرة بالتجار. لذلك تودد السلطان قلاوون إلى أمير اليمن وأرسل له هدايا لتنشيط التجارة في البحر الأحمر

ثم عمل السلطان قلاوون على تأمين طرق التجارة داخل مصر، حتى تصل البضائع سليمة من موانيء البحر الأحمر وخاصة ميناء عيذاب إلى موانيء البحر المتوسط وخاصة الاسكندرية ودمياط. كذلك حرص قلاوون على حماية قوافل التجارة بين نهر النيل والبحر الأحمر من اعتداءات قبائل البدو الذين امتهنوا حياة السلب والنهب. لم أخذ السلطان قلاوون وسلاطين المماليك من بعده يعملون على تشجيع تجار الشرق على جلب بضائعهم إلى موانيء مصر المطلة على البحر الأحمر، وفي الوقت نفسه حرصوا على اغراء التجار الأوروبيين في التردد إلى ميناءي الاسكندرية ودمياط لشراء حاصلات الشرق.

وهكذا ازداد عدد التجار الأوروبيين وكونوا جاليات لهم في المدن التجارية على شاطيء البحر المتوسط، فذاعت شهرة الاسكندرية بالحي التجاري الأكثر ازدحاماً بالسكان، وفيه تنتشر مؤسسات الأجانب التجارية ومراكز قنصلياتهم. أما دمياط أشهر الموانيء البحرية النهرية فتقع على جانب نهر النيل وتعتبر مخرج التجارة المصرية إلى البحر المتوسط، وكان يؤمها التجار الأوروبيون كالبنادقة وحاليا القديس يوحنا في قبرص، وكان لهم قناصل فيها. وكانت بيروت المرفأ الرئيسي لبلاد الشام، وفيها تحتشد المراكز التجارية

---

(١) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ـ ص ٦٨٤، ٧٠٢

الأوروبية وقنصلياتهم وكذلك في طرابلس وصيدا. وبعد انتصارات المماليك منذ استرجاع عكا سنة ٦٩٠/ ١٢٩١، وما أعقبها من طرد الصليبيين من بلاد الشام، حاول البابا نقولا الرابع (٦٨٧ ـ ٦٩١/١٢٨٨ ـ ١٢٩٢)، التحريض على حملة صليبية كبرى ففشل، ثم اضطر لإصدار قرارا بتوقيع عقوبة الحرمان على القوى التجارية في غرب أوروبا والتي تتعامل تجارياً مع دولة المماليك فيما يختص بالرقيق والخيول والحديد والأخشاب والكبريت والقار، ثم أضاف إليها البابا بونيفيس الثامن سنة ٦٩٩/١٢٩٩، القمح والأقوات والنبيذ، وكانت مصر تستوردها جميعاً في ذلك الوقت.

ومع ذلك لم تفلح الجهود البابوية في حمل التجار الأوروبيين على مقاطعة مصر اقتصادياً، ذلك أن القوى التجارية في غرب أوروبا أدركت مدى الخسائر التي عادت عليها نتيجة حرمانها من التجارة مع مصر، وتحايلت بمختلف الطرق لاستئناف نشاطها التجاري مع الاسكندرية ودمياط. في حين تزعمت جزيرة قبرص سياسة الحصار الاقتصادي على مصر، وشن ملوكها حرباً على التجار الأوروبيين الذين ظلوا يتاجرون مع دولة المماليك الأولى، فكانت السفن القبرصية تتربص لهم في طريق الذهاب والعودة من مصر وتفتك بهم، حتى أن الملك القبرصي بطرس الأول لوزينان قام بحملة على الاسكندرية سنة ٧٦٦/١٣٦٥، أمعن في نهب المتاجر وقتل الأهالي[1]. وإذا كان تأديب جزيرة قبرص وفتحها قد تأخر حتى زمن دولة المماليك الثانية وتحديداً سنة ٨٢٩/١٤٢٦، إلا أن السلطان الأشرف شعبان حاول استغلال الفرصة وفك الحصار الاقتصادي الذي فرضته البابوية، فتمكن قبل اثنتي عشرة سنة من نهاية دولة المماليك الأولى من دخول سيس[2] عاصمة قيليقية (أرمينيا الصغرى)، وأسر ملكها ليو السادس سنة ٧٧٧/١٣٧٥. وبذلك أصبحت منطقة قيليقية مع جميع موانئ الحوض الشرقي للمتوسط خاضعة لنفوذ المماليك الذين قاموا بخطوا إيجابية لتشجيع التجارة عن طريق تقديم التسهيلات وعقد الاتفاقات

---

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٩.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٦٦، ٢٨٨.

التجارية التي نال بموجبها الأجانب حق إقامة قناصل وحاليات دائمة لهم. وشجع سلاطين المماليك انشاء الوكالات التجارية، وأكثروا من انشاء الفنادق ووزعوها على التجار الأجانب في الاسكندرية وبيروت ودمشق وطرابلس وصيدا. وقد كان للبنادقة فندقان في الإسكندرية، فندق واحد في كل من دمشق وبيروت وطرابلس وحلب واللاذقية، وكذلك كان لتجار جنوى فندق واحد في دمشق وبيروت. والفندق «Fondaco» عبارة عن بناء ضخم مربع الشكل يتألف من طابقين، الأرضي يحتوي على المخازن والحوانيت المقبية التي تفتح على فناء (باحة) داخلي يجري فيه تعبئة البضائع وتفريغها، والعلوي مخصص لإقامة وسكن التجار. وقد اهتمت الدولة براحة التجار الأجانب في فنادقهم حتى أصبح الفندق يوفر للتاجر الأوروبي كل ما يحتاجه من مأوى ركينة ومخبز وحمام، حتى أنه كان يسمح له بشرب الخمر في داخله بعد أن سمح باستحضار الخمور اللازمة للأجانب في سفنهم وادخالها إلى فنادقهم. وهذا يعني أن هؤلاء التجار الأوروبيين قد تمتعوا بقسط وافر من الحرية داخل فنادقهم المستقلة، حيث كانت تعقد الاتفاقات التجارية وتحزم البضائع لتنقل إلى السفن. وتنوعت الفنادق لجاليات البندقية وجنوى ونابولي ومرسيليا وجزيرتي قبرص وكريت، وكان يحق لكل جالية فندق أو أكثر، ولكل فندق مشرف من الجمارك يعرف باسم الفنداقي.

وهكذا فرّق المماليك بين الدين والتجارة، كما فعل تجار المدن الإيطالية زمن الحروب الصليبية، فقدموا كافة التسهيلات للتجار الأوروبيين حتى سمح لهم بشرب الخمر وإقامة الصلاة داخل الفنادق، لا بل سمح لهم بانشاء الكنائس، فقد كان للبنادقة كنيسة في الاسكندرية، وللجنويين كنيسة في دمشق، وذلك رغم أن المماليك منعوا الأجانب من مغادرة الفندق ليلاً أو في أوقات الصلاة المحلية عند المسلمين كي لا تتعدى أعمال الأجانب حدود التجارة، وللمحافظة أيضاً على سلامتهم.

ولتنشيط التجارة المشرقية الداخلية والخارجية، عمد المماليك إلى انشاء مؤسسات وضعوها تحت تصرف التجار الشرقيين المسلمين، عرفت بالوكالات

والخانات والقيسارات. وكان لأمراء المماليك قصور تحولت إلى وكالات تجارية مقابل إيجارات مرتفعة، وهي عبارة عن أماكن واسعة في وسطها بهو، على سطحها غرف لمنامة التجار، فيها تتم الصفقات التجارية[1]. أما الخانات فكانت عبارة عن مجموعة من المستودعات التجارية لحفظ البضائع، وفيها بيت التاجر وزريبة دوابه. وخارج الخان يوجد سقاية للسبيل وحانوت يشتري منه التاجر ما يحتاجه لنفسه ولدوابه. وقد طبق المماليك نظام جوازات المرور، ومن لا يحمل جوازاً يوضع في السجن[2].

قام التجار الشرقيون المسلمون من عرب وفرس وأتراك بدور هام في تنشيط التجارة بعد أن خصهم المماليك بالخانات والقيساريات، حتى أن بعضهم كان يستوطن القاهرة. في حين لم يسمح المماليك للتجار الأوروبيين بدخول القاهرة حتى لا يزاحموا التجار المحليين في أسواقهم الدائمة التي تحتوي على مختلف أنواع السلع الآتية من الصين والهند، فضلاً عن السلع المحلية[3]. وكان البعض الآخر من التجار الشرقيين المسلمين يبحر إلى الشرق الأقصى ويؤسس جالية تجارية هناك، تؤمن وصول السلع إلى الموانئ والمدن المملوكية. وكذلك اجتمع في بيروت تجار دمشق وحلب وحماه وبعلبك حاملين معهم أنواع السلع الشرقية. أما مكة المكرمة فكانت تعتمد على البضائع الأوروبية التي تأتيها من بلاد الشام وعلى السلع الهندية التي تأتيها من عدن، بالإضافة إلى اعتمادها على أسواقها في مواسم الحج حيث يؤمها المسلمون من كل أنحاء العالم.

وقد ساهم التجار الشرقيون المسيحيون من أقباط وأرمن بنصيب في التجارة، فكانت قوافلهم تأتي بالسلع من أرمينيا وفارس. وكان للبهرة خط تجاري يمتد من دمشق إلى القاهرة ومنها إلى القيروان وطنجة، وازدهرت تجارة المعفر منهم على أثر دخوله الإسلام، إذ عومل على قدم المساواة مع التاجر المسلم.

---

(1) المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٩٠ - ٩١.

(2) ابن بطوطة: تحفة النظار، جـ ١، ص ٤٣.

(3) المقريزي: الخطط، جـ ١، ص ٩١ - ٩٨.

الطرق التجارية الرئيسية من الشرق الأقصى (الهند والصين) نحو المشرق العربي الإسلامي وأوربا

وفي عصر دولة المماليك الثانية اتجه السلاطين والأمراء الكبار إلى سياسة احتكار سلع الشرق الأقصى وخاصة البخور والتوابل والبهارات، وحولوا التجارة من ميناء عدن في اليمن إلى ميناء جدة الخاضع لنفوذهم المباشر وذلك سنة ٨٢٨/١٤٢١. وقد اضطر المماليك إلى إتباع هذه السياسة طمعاً في الحصول على المال بمختلف الطرق بعد فساد النظام الإقطاعي واضمحلال الصناعة، فوجدوا في التجارة ما يعوض العجز الاقتصادي. وبذلك تم فرض ضريبة العبور إضافة إلى الضرائب على البضائع المستوردة أو المصدرة التي كانت تدفع في مراكز الجمارك المنتشرة في مختلف الموانئ[1].

كان لاحتكار تجارة البخور والتوابل، أن ارتفعت أثمانها ارتفاعاً كبيراً، مما ألحق الضرر بالتجار الأوروبيين فضلاً عن المستهلك الأوروبي. والحقيقة أن الغرب الأوروبي لا يستطيع الاستغناء عن البخور والتوابل لعدم توافرهما في بلاده، ولأن طبيعة الحياة في تلك العصور جعلتهما سلعتين أساسيتين. فالبخور كان لا بد منه في الكنائس والأديرة وخاصة في أوقات الصلوات والاحتفالات الدينية، في ظل النظام الإقطاعي، كما شاع استخدام التوابل لحفظ الطعام من الفساد، وبذلك لم تعد التوابل مادة ترف بل مادة أساسية لها أهميتها في حياة العامة والخاصة.

بلغت سياسة الاحتكار أشدها زمن السلطان الأشرف برسباي (٨٢٦ - ٨٤١/١٤٢١ - ١٤٣٨)، عندما أبطل التعامل بالعملة البندقية والفلورنسية، وعمد إلى سك الدينار الأشرفي ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوروبيين، خاصة بعد تمكنه من فتح جزيرة قبرص سنة ٨٢٩/١٤٢٦، وأسر ملكها جانوس الذي كان يعمد إلى القرصنة لإنزال الضرر بالحركة التجارية.

اتضحت جميع معالم التدهور الاقتصادي في الفترة الأخيرة من عصر سلطنة المماليك وهي الفترة الممتدة بين (٨٧٢ - ٩٢٣/١٤٦٨ - ١٥١٧)، وقد بدأت مع مجيء السلطان قايتباي الذي تولى السلطنة سنة ٨٧٢/١٤٦٨، لتستمر حوالي نصف قرن ولتنتهي مع نهاية دولة المماليك الثانية.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٠.

رغم التدهور الاقتصادي، لم يتورع السلاطين عن دفع الأموال الباهظة في شراء أعداد كبيرة من المماليك، وكان السلطان قايتباي مغرماً بشراء المماليك حتى اقتنى منهم الآلاف، كما أقام المباني الفاخرة والمنشآت الضخمة في الحجاز والشام والإسكندرية والقاهرة. وكثر عبث المماليك بأرواح الناس وأموالهم وممتلكاتهم، وكثر الزعر واللصوص دون أن تستطيع السلطة أن تكبح جماحهم. وقد بلغت بعض هذه العصابات مائة نفر تقريباً ما بين مشاة وركاب ومعهم قسي ونشاب، وكانت تعتدي على أسواق القاهرة وضواحيها. فارتفعت أسعار الخبز سنة ٨٨٥/ ١٤٨٠، والبرسيم سنة ٨٨٩/ ١٤٨٤، وبلغ سعر كل أردب أرز ستة دنانير، ثم اثنا عشر ديناراً.

وزاد من التدهور الاقتصادي انتشار الطاعون في مصر مرات عديدة في السنوات ٨٧٣/ ١٤٦٩، ٨٨٨/ ١٤٨٣، ٨٩٧/ ١٤٩١، ٩٠٣/ ١٤٩٧، ٩٠٩/ ١٥٠٣، ٩١٢/ ١٥٠٦، ٩١٩/ ١٣ ١٥، فقتل مئات الآلاف منهم نحو مائتي ألف في طاعون سنة ٨٩٧/ ١٤٩١ وحده. يضاف إلى ذلك ما حدث من انخفاض نهر النيل وآفات تلتهم المحاصيل، فضلاً عن خطر العربان وعبثهم بالبلاد وتعديهم على الناس رغم الحملات التي كانت تشنها السلطة عليهم.

كما تطلبت الحملات الدفاعية نفقات باهظة، فقد اضطر السلطان قايتباي إلى صرف أكثر من سبعين ألف دينار على الحملة ضد التركمان سنة ٨٨٨/ ١٤٨٣، كما أنفق نحواً من ألف ألف دينار على الحملة الموجهة ضد العثمانيين سنة ٨٩٣/ ١٤٨٨، فكانت هذه الحملات تستنزف خزانة السلطنة.

لذلك تابع السلطان قايتباي سياسة الاحتكار لجني الأرباح الطائلة، ثم لجأ إلى سياسة المصادرات من أجل الحصول على المال. ففرض مبلغاً ضخماً من المال على شخص يدعى أحمد بن العيني سنة ٨٧٢/ ١٤٦٨، وذلك بعد أن ظهرت عليه علامات النعمة المفرطة، وكذلك أخذ ستين ألف دينار من مباشرة رمضان سنة ٨٩٦/ ١٤٩١. وقد استمر بقية سلاطين المماليك على هذه السياسة، فكانت أعمال المصادرات تشتد كلما ازدادت الحاجة إلى المال، حتى

بلغت أشدها زمن السلطان قانصوه الغوري، الذي ظلم جماعة من الأعيان وأخذ أملاكهم غصباً سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٩م، وجمع الأموال من مصادرات لبقية المماليك سنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م، وبلغ به الأمر إلى مصادرة جماعات كثيرة من الأعيان سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م، كما قطع أشجار الأهالي في الغيطان غصباً باليد من أجل بناء السفن سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م.

لم يكتف سلاطين المماليك بذلك، بل عمدوا إلى قطع أرزاق الناس وخاصة العلماء والفقهاء وحرمانهم من مرتباتهم أو انقاصها؛ حتى انتهى الأمر إلى سلب أموال وودائع الأوقاف الشرعية، فحصل للأهالي الضرر الشامل.

وأخذ السلاطين يتلاعبون ويفرضون المكوس والضرائب من أجل الحصول على المال؛ مما أرهق الضرائب بالتجار داخل البلاد، وانعكس ذلك بدوره على المستهلك في الوقت الذي كان فيه التجار الأجانب يتعرضون لعسف السلطة المصرية في موانئ السلطنة في مصر والحجاز، فدفعت سياسة التضييق هذه القوى التجارية في غرب أوروبا إلى مقاطعة التجارة مع دولة المماليك الثانية. وضاعفت هذه القوى جهودها للوصول إلى الهند والشرق الأقصى عن طريق المحيط الأطلسي، حتى نجح فاسكو دا غاما البرتغالي في كشف طريق رأس الرجاء الصالح في رحلته من لشبونة إلى الهند (٩٠٣ - ٩٠٥هـ/١٤٩٧ - ١٤٩٩م). وأصبح بإمكان الغرب الأوروبي الحصول على منتجات الشرق وخاصة البخور والتوابل عن طريق آخر غير طريق مصر. وعلى الرغم من طول رأس الرجاء حول أفريقيا وكثرة تكاليفه، إلا أن منتجات الشرق كانت تصل في النهاية إلى غرب أوروبا بسعر أرخص من السعر الذي اعتادت به أن تصل عن طريق مصر.

وعلى هذا الأساس، فإن العامل الأساسي في تدهور الحياة الاقتصادية، إنما يكمن في كساد تجارتها بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الذي حرم دولة المماليك الثانية من المورد الأول لثروتها وقوتها والذي طالما أمدها بالمال، وأدى إلى تدهور مركزها بعد أن أنزل ضربة قاصمة بموضعها

الاقتصادي. ويشير ابن اياس إلى هذا الوضع المتدهور سنة ٩٢٠/ ١٥١٤، بقوله:

«... فإن بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل إليه القطائع (السفن) في السنة الخالية، وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحواً من ست سنين، وكذلك جهة دمياط».

وبضياع تجارة الشرق، وفقدان المماليك دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، تطرق الضعف إلى الدعامة الاقتصادية التي استندت إليها دولة المماليك الثانية، فكان ذلك نذيراً بتداعي السلطنة وانهيارها بعد أن فقدت أهم دعائمها، وسدت أسباب رخائها وثروتها، مما عجّل بسقوطها أمام العثمانيين سنة ٩٢٣/ ١٥١٧.

٥ ـ ازدهار القاهرة عاصمة الخلافة والسلطنة:

بقيام دولة المماليك الأولى سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠، وبسقوط بغداد على أيدي المغول سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨، ارتفعت مكانة القاهرة، وذلك بعد أن قام بيبرس بإحياء الخلافة العباسية فيها سنة ٦٥٩/ ١٢٦١، وأقام الخليفة العباسي في أحد أبراج القلعة تحت إشرافه وسيطرة المماليك، فأصبحت القاهرة مركزاً للخلافة العباسية لتتحول إليها الشهرة الدينية والعلمية التي تمتعت بها بغداد قروناً طويلة. وانتقل العلماء والأدباء وأصحاب المهن إلى العاصمة الجديدة للمشرق العربي الإسلامي[106]. وتقرّب بيبرس إلى العلماء وبنى المساجد وأسس المدارس وأشهرها مدرسته التي بناها على أنقاض القصر الكبير الفاطمي وذلك سنة ٦٦٢/ ١٢٦٣.

قام الظاهر بيبرس بوضع البريد البري والجوي، وكان مركزه قلعة الجبل في القاهرة التي يتفرع منها أربعة طرق برية يمتد أولها جنوباً إلى قوص في الوجه القبلي وما يليه من بلاد النوبة، والثاني شرقاً إلى عيذاب وسواكن على

---

(١٠٦) السيوطي: تاريخ الخلفاء، جـ ٢، ص ٦٩.

البحر الأحمر، والثالث غرباً إلى الاسكندرية ورشيد، والرابع شمالاً إلى دمياط ومنها إلى غزة حيث يتفرع إلى سائر بلاد الشام[1]. أما البريد الجوي فكان يستخدم الحمام الزاجل الذي أعد له أبراج خاصة في القلعة[2].

وقد أنشأ المماليك البريد بين بيروت ودمشق ومهمته نقل الرسائل على وجه السرعة بواسطة الخيل التي جعلت لها محطات، كما استعملوا الحمام الزاجل لنقل الأخبار بين بيروت ودمشق، وبيروت وصيدا[3].

وأخذت القاهرة تفقد عظمتها في أواخر دولة المماليك الثانية حتى حلت بها الضربة القاصمة على يد العثمانيين الذين انتصروا على المماليك سنة ٩٢٣/ ١٥١٧، وأجروا مذبحة رهيبة في القاهرة قتل فيها حوالي خمسين ألفاً. ثم لاحت الخلافة العثمانية فأصبحت القسطنطينية عاصمة «قيصر الروم» بعد تحولها إلى استانبول مركزاً لهذه الخلافة الجديدة التي أقيمت لأول ولآخر مرة خارج المشرق العربي الإسلامي، بعد أن كانت المدينة المنورة ثم دمشق فبغداد والقاهرة تحتل المشرق العربي الإسلامي مركزاً للخلافة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ ١٤، ص ٣٧١ ـ ٣٨٢
(٢) المصدر نفسه، جـ ١٤، ص ٣٨٩، ٣٩١.
(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٣٥

الخاتمة

تعرض المشرق العربي الإسلامي لخطرين خارجيين صليبي ومغولي معاً، عملا منفردين ومعاً على تقويض دعائم حضارته دون جدوى. وقد واجهت دولة المماليك الأولى هذين الخطرين معاً، فأجبرت الصليبيين على الجلاء النهائي سنة ٦٩٠/١٢٩١، وصدت الخطورة المغولية التي كانت تعتبر قوة لا تقهر، في عين جالوت ٦٥٨/١٢٦٠.

وعلى غرار الأتابك نور الدين محمود بن زنكي، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، أدرك المماليك بدورهم، أهمية الوحدة بين مصر وبلاد الشام؛ لكنهم لم يتمكنوا من حصر السلطة في بيت واحد، مما أدى إلى الصراع الدموي بين المماليك أنفسهم حول السيطرة والحكم، واتباع سياسة القتل والنفي والتشريد. وقد بدأ المماليك هذه السياسة منذ انقلابهم على أسيادهم الأيوبيين، وإقامة دولة المماليك الأولى (٦٤٨ ـ ٧٨٤/١٢٥٠ ـ ١٣٨٢) والتي يعود لها الفضل في إنزال الهزيمة بالمغول في عين جالوت سنة ٦٥٨/١٢٦٠، وفي توحيد مصر والشام، ثم إجلاء الصليبيين نهائياً عن المشرق العربي الإسلامي سنة ٦٩٠/١٢٩١.

وبسقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦/١٢٥٨، تم القضاء نهائياً على الخلافة العباسية. رغم ما فعله السلطان الظاهر بيبرس من إحياء لهذه الخلافة التي أقامها بشكل صوري في القاهرة في رجب ٦٥٩/حزيران ١٢٦١، بهدف إضفاء الهالة الروحية على السلطتين السياسية والعسكرية اللتين يمسك بهما المماليك.

وبذلك نابت القاهرة لازدهارها، وتحولت إلى عاصمة المشرق العربي

الإسلامي فعلياً رمز الخلافة العباسية صورياً. ولم يعد سلاطين المماليك بحاجة إلى كسب عطف الخليفة العباسي القابع في القاهرة تحت نفوذه المباشر، بعد أن أصبح الخليفة ألعوبة بيد السلاطين.

لكن أفظع ما يميز حكم دولة المماليك الأولى هو الصراع الدموي العنيف بين المماليك أنفسهم حول السلطة: مما أدى إلى القتل والسجن والنفي والتشريد. فمنذ قيام حكم المماليك سنة ٦٤٨/ ١٢٥٠، عمد أول سلاطينهم المعز أيبك إلى قتل منافسه فارس الدين أقطاي، وقطع رأسه ورميه من فوق سور قلعة القاهرة. ولم يلبث المعز أيبك نفسه أن مات مقتولاً في الحمام سنة ٦٥٥/ ١٢٥٧، بتدبير من زوجته شجر الدر التي لقيت بدورها ضرباً بالقباقيب على رأسها ورمياً من فوق السور. وحتى قطز عمد إلى سجن السلطان المنصور علي مع أخيه وأمه في برج القلعة، ليتولى هو سلطنة مصر، وليقضي على أسطورة المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠، قبل أن ينتهي قتلاً على يد بيبرس الذي حرمه من قطف ثمرة الانتصار ودخول القاهرة ظافراً. وبذلك استهل السلطان الظاهر بيبرس عهده بالقتل، رغم تحوله إلى بطل شعبي تحكي سيرته على مر السنين لجهاده ضد الصليبيين والمغول معاً.

تمكن الأمير سيف الدين قلاوون، من نقل السلطنة المملوكية من بيت السلطان الظاهر بيبرس، ليحصرها في بيته أكثر من قرن، منذ سنة ٦٧٨/ ١٢٧٩ حتى نهاية دولة المماليك الأولى سنة ٧٨٤/ ١٣٨٢، حيث تحقق الجلاء الصليبي الشامل سنة ٦٩٠/ ١٢٩١، وتراجع المغول خارج المشرق العربي الإسلامي سنة ٧٠٢/ ١٣٠٣.

وعلى غرار ما فعله بعض الأمراء الأيوبيين من التعاون مع الصليبيين، حفاظاً على مصالحهم خلال الصراع حول السلطة والنفوذ، فقد قام التنافس بين الناصر يوسف الأيوبي، والمعز أيبك المملوكي عند قيام دولة المماليك الأولى، وحاول كل منهما التعاون مع الصليبيين، مما أسفر عن قيام تحالف صليبي-مملوكي ضد الأيوبيين أثناء الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع.

كما عمد بعض الأمراء الأيوبيين للتعاون مع المغول أيضاً، فمنذ سقوط

بغداد في ٧ صفر ٦٥٦/ ١٣ شباط ١٢٥٨، كان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، يقف إلى جانب المغول، وقد علق على أسوار مدينته رؤوس القادة العباسيين الثلاثة سليمان شاه والدوادار الصغير مجاهد الدين أيبك وتاج الدين بن الدوادار الكبير الذين قتلهم المغول أثناء حصار بغداد. وقد توفي بدر الدين لؤلؤ سنة ١٢٥٩/٦٥٧ فخلفه ابنه الملك الصالح الذي أبدى بطولة رائعة، عكس أبيه، في مواجهة المغول الذين تمكنوا من قتله سنة ١٢٦١/٦٦٠.

وحاول الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق، التقرب من المغول لإحياء الدولة الأيوبية في مصر والشام ولكنه فشل، وعندما دخل المغول إلى بلاد الشام، فر أمامهم تاركاً حلب، ثم دمشق تواجهان مصيرهما. وعندما قبض عليه هولاكو، عفا عنه، واعداً إياه بتحقيق حلمه الرامي إلى احياء الدولة الأيوبية شرط أن تكون تحت سيطرة المغول، وأن يتم ذلك بعد الاستيلاء على مصر. وهذا يشير إلى مدى بعد نظر هولاكو في استغلال مثل هؤلاء الأمراء الأيوبيين لتحقيق مطامعه التوسعية.

وكان الأشرف موسى الأيوبي، وهو من أسرة شيركوه، قد تآمر مع المغول، فكافأه هولاكو برد إمارة حمص التي أخذها منه الناصر يوسف الأيوبي سنة ١٢٤٨/٦٤٦.

وبفقدانه نفوذه السياسي والعسكري، أمام العناصر غير العربية، تابع العنصر العربي سيره في اتجاه التصوف سواء تحت حكم المماليك أو العثمانيين بعدهم. لذلك كثرت الزوايا والخانقاوات التي امتلأت بالزهاد والعباد والتصوف بذلك يعتبر رد فعل اجتماعي، لجأ إليه غالبية العنصر العربي الذي وجد نفسه عاجزاً تماماً، أمام المماليك ثم العثمانيين وهما من غير العرب، مخشي بالقدرة عليهما لما يجمعه بهما من رابطة الدين والمذهب.

ورغم ذلك، يمكننا القول إن العنصر العربي، استمر منذ حركة الانتشار العربي الإسلامي حتى يومنا هذا، يمثل الركن الأساسي من أركان المجتمع الكبير الممتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي الإسلامي. كما استمر هذا العنصر العربي محتفظاً بنفوذه الاجتماعي في المشرق إلى جانب العناصر

الأخرى غير العربية من أتراك وأكراد وجراكسة، التي آل إليها النفوذ السياسي والعسكري قروناً طويلة، منذ مرحلة الضعف التي دخلتها الخلافة العباسية ثم الخلافة الفاطمية. ويتحمل العباسيون والفاطميون معاً مسؤولية إبعاد العنصر العربي عن تسلم مقاليد القيادة العسكرية التي آلت إليها القيادة السياسية أيضاً، مما سهل دخول السلاجقة إلى بغداد سنة ٤٤٧/ ١٠٥٥، ومجيء الصليبيين إلى بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين سنة ٤٩٣/ ١٠٩٩. فلا غرو أن يؤدي ذلك كله إلى سقوط القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية على يد الأتابكة الأتراك والأيوبيين الأكراد سنة ٥٦٧/ ١١٧١، وإلى سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية على يد المغول سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨.

وإذا كان السلاجقة والأتابكة والأيوبيون قد أقاموا دولهم تحت راية الخلافة العباسية في بغداد، فإن المماليك سجنوا هذه الراية داخل القاهرة دون أن يتخلوا عنها رغم تحولها إلى مجرد صورة شكلية، ولم يخطر ببال السلاجقة أو الأيوبيين أو المماليك، إقامة خلافة خاصة بهم وتحمل اسمهم. وبحكم سلاطين العثمانيين قبل دخولهم بلاد الشام ومصر، كانوا قد حصروا السلطة العثمانية في بيت واحد هو آل عثمان، وبعد دخولهم الشام سنة ٩٢٢/ ١٥١٦، ومصر سنة ٩٢٣/ ١٥١٧، لم يعد أحد غيرهم يحمل لقب السلطان. ومع ذلك ساهم هذا السلطان الجديد في دفع عجلة الصراع بين الزعامات، وكأنها سياسة فرق تسد، حتى يبقى السلطان وحده قابعاً في استانبول، التي كانت تحمل اسم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية (بلاد الروم) لعشرة قرون خلت قبل فتحها على يد السلطان العثماني محمد الثاني سنة ٨٥٧/ ١٤٥٣. وبذلك نشأت خلافة جديدة كانت للمرة الأولى والأخيرة، خلافة غير عربية، أقيمت خارج المشرق العربي الإسلامي، بعد أن كانت المدينة المنورة ثم دمشق، بغداد، والقاهرة، داخل هذا المشرق مركزاً للخلافة العربية الإسلامية.

لذلك يمكن القول، أن ما فعله العثمانيون بعد دخول الشام سنة ٩٢٢/ ١٥١٦ ومصر سنة ٩٢٣/ ١٥١٧، هو تأسيس خلافة عثمانية خاصة بهم.

فحقيقة أن المتوكل العباسي لم يتنازل عن الخلافة في القاهرة أو

إسطانبول. لقد ذكرت المصادر العربية والإسلامية لقب سليم الأول ومن جاء بعده باسم السلطان أو الخاقان أو خادم الحرمين، مما يدل على أن الخلافة العربية الإسلامية "الوراثية" انقرضت مع المتوكل آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة، رغم أن هذه الخلافة كانت قد انتهت فعلياً في سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨، مع المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد.

وعندما ضعفت الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد، أصبح لقب "السلطان" يشير إلى الانهيار والانحلال، فلم يجد السلطان عبد العزيز ثم السلطان عبد الحميد الثاني سوى إحياء الخلافة لاستغلالها في استمالة المسلمين من القوميات غير التركية وخاصة العرب الذين يتطلعون إلى قومية في ظل الدولة العثمانية. وكان الهدف مواجهة التغلغل الاستعماري الأوروبي في شمال أفريقيا والقوقاز وتركستان والهند. واستعان السلطان عبد الحميد الثاني بالأدباء ومشايخ الصوفية من أجل إحياء الخلافة، فأوهموا المسلمين أنها انتقلت بصورة شرعية إلى العثمانيين بعد تنازل المتوكل العباسي، وأن الخليفة العثماني هو ظل الله على الأرض ومنفذ أحكامه.

وهذه هي النتيجة الحتمية للخطأ التاريخي الكبير الذي ارتكبه الخلفاء العباسيون العرب، حيث كثر الاعتماد على العناصر الأعجمية (غير العربية)، في بناء القوة العسكرية للدفاع عن الخلافة العربية الإسلامية. فقد أخذت هذه العناصر وهي من المرتزقة أو المماليك تعمل من أجل السيطرة والنفوذ، وعندما تحقق لها ذلك تستعين بدورها بعناصر غير عربية من المرتزقة أو المماليك، كما فعل السلاجقة والأتابكة والأيوبيون والمماليك، حتى أن الجيش الخوارزمي كان بأكمله من المرتزقة. وكانت الحجة الواهية منذ البداية أن العرب لا يمكن أن يخلصوا لهم أبداً. والحقيقة أن دافع السيطرة والنفوذ كان يحمل هؤلاء جميعاً على الاعتماد على أبناء جنسهم لاستمرار ملكهم خشية عودة النفوذ العربي الإسلامي الذي سيقضي على هذا الملك والسلطان.

ومع ذلك لم يجرؤ أحد من هؤلاء الأتراك والجراكسة والأكراد أو الفرس منهم أن يقضي على الخلافة العباسية أو يحمل لقب خليفة، بل كان يحرص

عن نيل موافقة الخليفة العباسي على ملكه وسلطانه. وما فعله البعض كان محاولة لنقل الخلافة عباسية إلى القاهرة ليرتفع شأن دولته في مصر والشام، وقد تمثلت محاولة أحمد بن طولون سنة ٢٦٨/ ٨٨١م، ثم محاولة الاخشيد سنة ٣٣٣/ ٩٤٤م، وهما تركيين، في حين نجحت المحاولة الثالثة على يد مملوك تركي أيضاً هو الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩/ ١٢٦١م، منتهزاً فرصة سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨. وكان عضد الدولة الفارسي قد حاول حصر الخلافة العباسية السنية والملك البويهي الشيعي في أسرته سنة ٣٦٩/ ٩٧٩ عن طريق تزويج ابنته من الطائع لله العباسي، وقد باءت محاولته بالفشل.

وهذا يعني عدم تجرؤ أحد من الأتراك أو الفرس على إعلان نفسه خليفة، وحدهم العثمانيون تجرأوا وقضوا نهائياً على الخلافة العباسية وأقاموا الخلافة العثمانية. وكان على الخلفاء العباسيين أن يمنحوا ثقتهم للعنصر العربي ويؤسسوا منه ويقيادته جيش الخلافة حتى لا تسقط هذه الخلافة فعلياً كما حدث مع المغول سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨م، وحتى لا تضيع نهائياً كما حدث مع العثمانيين سنة ٩٢٣/ ١٥١٧.

وعندما تحولت الخلافة إلى العثمانيين، غاب عن بال العرب جميعاً وقتها أن القومية تفرق بين العثمانيين والعرب، وأنه سيأتي اليوم الذي يصبح فيه التعايش بين جانبي القوميتين أمراً متعذراً، لأن الخلافة لا بد وأن تكون عربية إسلامية. فقد أعطى الإسلام الحاكم العربي الواحد وهو النبي العربي محمد ﷺ الذي جمع القبائل العربية بعد تفرقها، ووحد كلمتهم ولهجاتهم المختلفة بالقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى باللغة العربية مشدداً على ذلك في الآيات الكريمة:

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى﴾[1].

﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون﴾[2].

﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[3].

﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[4].

---

(١) سورة الشورى، الآية ٧.

(٢) سورة طه، الآية ١١٣.

(٣) سورة يوسف، الآية ٢.

(٤) سورة الزخرف، الآية ٣.

﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾[1].

﴿بلسان عربي مبين﴾[2].

﴿لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجميٌ وهذا لسانٌ عربيٌ مبين﴾[3].

وهذه الآيات السبع نزلت في مكة المكرمة عندما كان النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام مؤكداً على عروبة القرآن الكريم. وبعد الهجرة وإقامة أول دولة في الإسلام، نزلت آية واحدة في يثرب، وفيها يصرح الله تعالى بأن حكم هذا الدين للعربي، وهي الآية الكريمة:

﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾[4]

وعلى هذا الأساس كانت يثرب «المدينة الرسول» بعد «مكة المكرمة» مهد الدعوة والإسلام، وأهلها من المهاجرين والأنصار هم الذين بدأوا مسيرة الوحدة بعد أن شرّع الجهاد في سبيل الله تعالى، وكان العرب كما قال الله تعالى:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[5]

وكما قال النبي ﷺ: «لا يبغض العرب إلا منافق» و«من أحب العرب فبحبي أحبهم»، و«أحبوا العرب لثلاث لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي».

ورغم تعصب العثمانيين للإسلام والمذهب السني، ظل العالم العربي الإسلامي يئن تحت وطأة حكمهم، وعاش في عزلة وجمود في ظل هيبة الخلافة الجديدة

والحقيقة التاريخية، أن الأتراك والمغول والمماليك، شأن الروم الوثنيين قبلهم، كانوا من العناصر التي تنزع إلى السلطة والحكم، وتميل إلى

---

(1) سورة الزمر، الآية ٢٨.
(2) سورة الشعراء، الآية ١٩٥.
(3) سورة النحل، الآية ١٠٣.
(4) سورة الرعد، الآية ٣٧.
(5) سورة آل عمران، الآية ١١٠

التوسع والسلطان، وقد هرموا الحضارات الموجودة ليصبحوا هم في خدمتها بعد أن تشربهم بسرعة. وهذا يعني أن اعتناق الغزاة الأتراك في إيران وآسيا الصغرى (الأناضول) للإسلام ما هو إلا صورة لما حدث للغزاة الأتراك والمغول والتونغوز عند حلولهم في الصين حيث استوعبتهم الحضارة الصينية، لنجد هنا «البدوي المتبربر» نفسه حارساً للمدنية والحضارة إزاء الغزوات الجديدة التي يشنها إخوانه البدو من الأتراك أو المغول. ففي القرن الخامس للميلاد كان تو-با التركي هو المدافع عن حضارة الصين وأراضيها إزاء المغول الذين أغاروا على الصين. وفي القرنين السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد كان السلطان سنجر السلجوقي التركي يدافع عن سلطنته الممتدة من تركستان الصينية حتى حدود مصر، فأقام حرساً على نهري سيحون وجيحون لدرء خطر إخوانه «الغز الأتراك». وفي النصف الأول من القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد كان السلطان محمد خوارزمشاه التركي ومن بعده ابنه جلال الدين يقاتلان باستماتة وفروسية وشجاعة ضد الخطر المغولي، ولما حلت بهما الهزيمة تابع المغول زحفهم نحو إيران والعراق وبلاد الشام حتى حدود مصر. وفي النصف الثاني من القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد لتصدى قطز المملوكي للمغول في عين جالوت سنة ٦٥٨/ ١٢٦٠، وأنزل بهم الهزيمة ومنعهم من دخول مصر ثم طاردهم بيبرس المملوكي نحو بلاد الشام. وهنا تتجلى الحقيقة، فما حدث كان «قاعدة جغرافية للتاريخ» قبائل تركية ومغولية تتصارع فيما بينها على التوسع والسلطة. فهل كان تو-با التركي يدافع حقيقة عن الصين التي غزاها، أم كان يدافع عن منطقة استوعبته بحضارتها العريقة وجعلته في خدمتها وهو البدوي ليحميها من الأعداء المغول وحتى من إخوانه الترك؟ وهل كان سنجر السلجوقي ومحمد خوارزمشاه وابنه جلال الدين يدافعون حقيقة عن الإسلام، أم عن إمبراطورية أقاموها وسلطة عز عليهم أن يستولي عليها إخوان من الترك أو من الأعداء المغول؟ وهل كان قطز وبيبرس وغيرهما من سلاطين المماليك يدافعون حقيقة عن العرب والإسلام في مصر والشام ضد الخطر المغولي، أم كانوا يدافعون عن حضارة عربية إسلامية استعانت بهم كمماليك من الأتراك والجراكسة وحولتهم إلى الإسلام لتجعلهم في خدمتها؟

خلال سبعة قرون، منذ عهد المعتصم العباسي (ت ٢٢٧/ ٨٤١) حتى نهاية دولة المماليك الثانية سنة ٩٢٣/ ١٥١٧، لم يجرؤ أحد من سلاطين الأتراك أو المماليك على التعرض للخلافة العباسية أو اغتصابها رغم سهولة الأمر عسكرياً. وعندما فشل محمد خوارزمشاه التركي في حملته على بغداد بسبب العواصف الثلجية، اعتبر المسلمون هذا الأمر غضباً من الله تعالى لتجرؤ السلطان الخوارزمي على الخليفة العباسي الناصر لدين الله. ورغم أن المغول قضوا نهائياً على الخلافة العباسية سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨، إلا أن المماليك لم يفكروا بالحصول على هذا اللقب، وما فعلوه أن أقاموا خليفة عباسي بشكل صوري في القاهرة. وحدهم العثمانيون خالفوا هذه القاعدة وأقاموا الخلافة العثمانية.

صحيح أن العثمانيين حققوا سنة ٨٥٧/ ١٤٥٣، ما عجز عنه الخليفة العربي من الاستيلاء على القسطنطينية، وزحفوا نحو شرق أوروبا. ولكن هل كان فتح القسطنطينية والسيطرة على البلقان من أجل نشر الإسلام؟ الحقيقة أن البلقان يشمل مناطق وقوميات مختلفة، ففيه بلاد البوسنة والصرب والهرسك وألبانيا واليونان ومقدونية وبلغاريا وتراقية ورومانيا والمجر، حيث تقطن شعوب تنتمي إلى قوميات مختلفة من الإغريق إلى الكروات والصرب والبلغار والمجر، مع الإشارة إلى أن البلغار والمجر ليسا من العنصر الأوروبي، بل هما مثل الأتراك جاؤوا من آسيا الوسطى. وكانت هذه الشعوب في صراع دائم حول السيطرة والنفوذ في جنوب شرق أوروبا، كما حدث للقبائل المغولية والتركية في شمال ووسط آسيا. فلا غرو أن يدخل العثمانيون في هذا الصراع، وهم أساساً من القبائل التركية التي تحركت بسبب الضغط المغولي من وسط آسيا إلى آسيا الصغرى (الأناضول)، ثم تابعت تحركها نحو الغرب المتاخم للحدود البيزنطية حيث القسطنطينية والبلقان. وكان الصراع محتماً بين العثمانيين وهذه القوميات المختلفة، فكما قامت دولة البلغار في القرنين الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد وبسطت سلطانها على مقدونية وألبانيا وضواحي القسطنطينية، كذلك قامت دولة الكروات التي انتصرت على البلغار. وفي القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، تأسست الدولة الفلاخية البلغارية

ثم أعقبتها الدولة الصربية في القرنين الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، عندما تحرك العثمانيون وأنزلوا الهزيمة بتحالف هذه القوميات جميعاً حتى لو كانت في الظاهر تمثل تحالفاً مسيحياً ضد المسلمين.

والواقع أن المسيحية في شرق أوروبا لم تكن عميقة الجذور مثلها في غرب أوروبا. وكان شرق أوروبا يتعرض دائماً لغزوات القبائل المغولية والتركية التي تتحرك من السهوب والبراري في شمال ووسط آسيا إلى السهوب والبراري الروسية التي تعتبر امتداداً لها داخل أوروبا، وهكذا انطلقت غزوات الهون والبلغار والمجر والمغول والأتراك. فكان ذلك كله تمهيداً للعثمانيين الذين يدينون بالإسلام حتى يسيطروا على هذه المناطق التي اعتنق بعض سكانها ديانة الحكم الجديد. ومع أوروبا الغربية كان الأمر مختلفاً حيث كانت الروح الدينية مسيطرة: وهزيمتهم في المشرق العربي الإسلامي فيما سمّي بـ«الحروب الصليبية»، ما زالت ماثلة أمام أعينهم، وهم يسعون للانتقام. فلهذا توقف التوسع العثماني عند أبواب فيينا حيث العناصر الأوروبية التي ترجع أساساً إلى إسكنديناوة في شمال أوروبا ولا تمت بصلة إلى العناصر الآسيوية.

ومع ذلك، قد لا ننكر فضل العثمانيين في إعلاء راية الإسلام في أوروبا الشرقية. ولكن السؤال لماذا الزحف نحو الدولة الصفوية «الشيعية» في إيران، وما الهدف من قتل أرجح قتلاً في «ملحمة الشيعة»؟ إنه الصراع المذهبي في الظاهر، والصراع القومي والتسابق نحو السيطرة والنفوذ في الجوهر، وليس الهدف نشر الإسلام في دولة تدين به.

ولماذا الزحف نحو دولة المماليك «السنية» في الشام ومصر، والمماليك يتشابهون مع العثمانيين في الدين والمذهب وحتى العرقية والأصل الواحد، وما الهدف من استباحة مدينة القاهرة وقتل خمسين ألفاً في «مذبحة القلعة»؟ إنه الصراع حول السيطرة على العالم العربي الإسلامي ووراثة الخلافة العربية الإسلامية، رغم زوالها فعلياً على يد المغول سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨، حيث لم تعد بعد هذا التاريخ من خلافة.

فهل كان العثمانيون يدافعون عن الإسلام وحضارة العالم العربي

الإسلامي الذي تعلق بهم، منذ مطلع حكمهم، مما سهل لهم السيطرة طيلة أربعة قرون متتالية (٩٢٣ ـ ١٣٣٧ / ١٥١٧ ـ ١٩١٨م).

يعود تعلق العرب بالعثمانيين الى مطلع القرنين العاشر للهجرة، السادس عشر للميلاد. فقد ذاعت شهرة العثمانيين على أنهم محاربون يستبسلون في مقاتلة أعداء الإسلام، فرأى العربي في قدوم العثمانيين المنتظر خير رسالة لإعلاء شأن الخلافة الإسلامية لقيادة الأمة على غرار الخلفاء الذين سلكوا الصراط المستقيم. وما قام به العثمانيون من فتح للقسطنطينية سنة ١٤٥٧/ ١٤٥٣، وما تبعه من انتصارات في شرق أوروبا، اعتبره العرب المسلمون أنه يعود إلى العناية الإلهية وعقاباً من الله وانتقاماً من الحكام المماليك الظالمين، فلا غرو أن رحب سلطان المماليك لبني عثمان لكي يحصل لهم ما حصل. وعلى هذا الأساس اعتقد العرب المسلمون أن العثمانيين يؤدون رسالة إلهية لمحاربة الظالمين ونشر العدالة، وكذلك ساد هذا الاعتقاد في شرق أوروبا رغبة من المسيحيين الأرثوذكس لا سيما في أوكرانيا والمناطق السلافية الجنوبية، وبذلك استطاع العثمانيون كسب الطوائف المسيحية في الشرق.

يعتبر هذا الدافع من أعظم العوامل التي أدت إلى تحول المشاعر العربية الإسلامية نحو العثمانيين، إلى تقليد غريزي متجذر عميقاً في نفوس أجيال كثيرة، لا يزال بعض آثاره حتى يومنا هذا. لذلك رحب العرب بالحكم العثماني وخضعوا له حتى قبل بدء الحرب العثمانية ـ المملوكية الثانية (٩٢٢ ـ ٩٢٣/ ١٥١٦ ـ ١٥١٧) فقد ساعد العرب الجيش العثماني على جر المدفعية ونقل الذخائر عشية معركة مرج دابق في الشام، وقاموا بانتفاضات ضد الحاميات المملوكية وفتحوا الأبواب في حماة وحمص ودمشق، ورحبوا بالسلطان سليم الأول عند وصوله إلى مصر، وحفروا الخنادق في تونس وساعدوا العثمانيين على نقل المعدات، وانخرطوا في صفوف الجيش العثماني في الجزائر. أما من تصدى للعثمانيين، فهم يمثلون طبقة الحكام من المماليك والأجانب الخائفين على مصالحهم ونفوذهم.

كان العثمانيون أزكى القبائل المغولية والتركية، لأنهم لم يغيروا كما لم يقن

الفرس مثلهم أن الإسلام هو طريق السيطرة والنفوذ لأي جنس غير عربي، فأقاموا الخلافة العثمانية طيلة أربعة قرون غير آبهين بالعنصر العربي الذي يرجع إليه الفضل الأول والأخير في نشر العروبة والإسلام خارج شبه الجزيرة العربية. لذلك ظهرت الدولة العثمانية وكأنها المدافع الوحيد عن الإسلام، ولم يجرؤ أحد على مناهضتها، ويكفي أنها اعتنقت المذهب السني وهو مذهب الأغلبية في العالم العربي الإسلامي، لتستميل إليها هؤلاء جميعاً وهم لا يدرون أن هذه الدولة العثمانية قد شوهت الحضارة العربية الإسلامية، وأن هؤلاء العثمانيين ساروا على منوال أسلافهم في الغزو والتوسع، وما أطال بعمر دولتهم، هو الهالة الدينية التي أحاطت بالسلاطين منذ إقامتهم الخلافة التي تحمل اسمهم. في حين كان يتوجب عليهم أن يحرروا لا أن يعملوا على تتريك العرب. وكانت الفرصة سانحة لهم بدخول العراق سنة ٩٢٠/ ١٥١٤، والشام سنة ٩٢٢/ ١٥١٦، ومصر سنة ٩٢٣/ ١٥١٧، فضلاً عن القضاء على العصبية والروح القبلية كما يقضي الإسلام لأنه وحده العصبية والقبلية، فإذا بهم يتركون الأمراء والحكام في المشرق العربي الإسلامي الذي خضع لهم شرط الولاء للخليفة العثماني الجديد، وخاصة في مصر التي استمرت تحت حكم دولة المماليك الثالثة (٩٢٣ ـ ١٢١٣/ ١٥١٧ ـ ١٧٩٨) والخاضعة للنفوذ العثماني، وفي العراق حيث سيطر المماليك (١١١٦ ـ ١٢٤٧/ ١٧٠٤ ـ ١٨٣١). فما فعله العثمانيون لا يختلف عما فعله المماليك والأيوبيون والأتابكة والسلاجقة وهو الاعتماد على تأسيس قوة عسكرية من أبناء جنسهم ليحكموا سيطرتهم على مختلف الأجناس وفي مقدمتها العرب بحجة عدم إخلاص وولاء هذه الأجناس، والهدف الحقيقي هو استمرار السيطرة الوراثية في أبناء البيت الواحد والجنس الواحد. فأظهروا هم أنفسهم الفرق الكبير بين الشعبين التركي والعربي، بين القوميتين التركية والعربية، وأصبحوا بذلك ورغم رابطة الدين لا يختلفون عن الشعوب التي تسعى نحو التوسع والقهر والاستغلال، وعاشوا كما عاش المماليك والمغول قبلهم على أنهم طبقة أرستقراطية، بما هيأته لهم الحضارة العربية الإسلامية من حياة الترف والنعيم، ونسوا أن العربي لم يخرج من شبه الجزيرة العربية سعياً وراء التوسع والقهر، بل كان يحمل رسالة حضارية واضحة

وفي نشر الإسلام ومعه العروبة لغة القرآن الكريم في مشارق الأرض ومغاربها. وهذا ما تجلى تماماً في عصر الدولة العربية الإسلامية الأولى التي انتهت بالفتنة الكبرى وقتل آخر الخلفاء الراشدين، وبعدها انقسم العرب شيعاً وأحزاباً وفرقاً، وكأنه الصراع القبلي في شكل جديد بعد أن قضى الإسلام على شكله الجاهلي وكان المنتصر يظهر دائماً على أنه الخليفة العربي الحامي للإسلام من أعدائه الإسلام، وهكذا بدأت الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية، ثم تقسم العالم الإسلامي ثلاث خلافات في وقت واحد هي الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في القاهرة، والخلافة الأموية في قرطبة. واستمرت الخلافة العباسية تسير في طريق الانهيار معتمدة على العناصر الأعجمية غير العربية، وأصبح المنتصر من الأمراء والسلاطين غير العرب هو الحامي للخلافة العربية الإسلامية حتى وجد هذا المنتصر في النهاية أنه أحق بهذه الخلافة فحصل عليها بسهولة كما حصل مع العثمانيين الذين حكموا العالم العربي الإسلامي طيلة أربعة قرون متتالية، حتى سقطت سلطنتهم سنة ١٣٣٧/ ١٩١٨، ومعها الخلافة العثمانية سنة ١٣٤٣/ ١٩٢٤.

الملاحق

ملحق رقم ١

رسالة هولاكو إلى الخليفة العباسي المستعصم (رمضان ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)(١)

يقول هولاكو في هذه الرسالة:

«لا بد أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيزخان، وعلمت أية مذلة لحقت بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أصحاب العظمة وأصحاب الشوكة، ومع ذلك لم نغلق باب بغداد قط في وجه أية طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة. فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟!... وقد نصحناك قبل هذا والآن نقول لك: تجنب الحقد والخصام والضغينة، ولا تحاول أن تقف في سبيلنا لأنك ستصيب نفسك عبثاً ومع هذا فقد مضى ما مضى، فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق، وتسلم ابنك المملكة، ثم تتوجه لمقابلتنا. وإن كنت لا تريد ذلك، فأرسل إلينا الوزير وسليمان شاه والدواتدار، ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان، فإذا أطعت أمرنا، فلا حقد ولا ضغينة، ويبقى لك ولابنك جيشك ورعيتك. وأما إذا لم تنتصح، وسلكت طريق الخلاف والجدال، فأعد جيشك، وعين جبهة القتال فإننا مستعدون لمحاربتك. واعلم أنني إذا غضبت عليك، وقدت الجيش إلى بغداد، فسوف لا تنجو مني، ولو صعدت إلى السماء، أو اختفيت في باطن الأرض. فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك، فاستمع لنصحي بسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله».

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، ص ١٢٠، ١٢١.

ملحق رقم ٢

رد الخليفة العباسي المستعصم على رسالة هولاكو(٦٥٥/ ١٢٥٧)[1]

قال الخليفة العباسي المستعصم في رده:

«أيها الشاب الحدث! . الذي لم يعمر الأيام بعد، والذي يتمنى قصر العمر، والذي أغرته إقبال الأيام ومساعدة الظروف، فتخيل نفسه مسيطراً على العالم، وحسب أن كلامه قضاء مبرم، وأمر محكم. لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي؟!.. يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتنقون الأديان، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي؟! .. إنني متى أشير بجمع الشتات، سأبدأ بحسم إيران، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصبح وجه الأرض مملوءاً بالقلق والاضطراب.

غير أني لا أود الحقد والخصام، ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذاءهم، كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش، أن تلهج ألسنة الرعية بالمديح والقدح، خصوصاً وأنني مع الخاقان وهولاكوخان قلب واحد ولسان واحد.

فإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة، فما شأنك بخنادق رعيتي ومحاصرتهم؟!... أسلك طريق الود، وعد إلى خراسان. وإن كنت تريد الحرب والقتال، فلا تتوان لحظة ولا تعتذر، فإن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة هم على أهبة الاستعداد للقتال».

---

[1] رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، ص ٢٧١

خطاب هولاكو إلى السلطان قطز قبيل موقعة عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)(١)

«من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القان الأعظم.

باسمك اللهم باسط الأرض، ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم(٢)، يتنعمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فمن طلب حربنا

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩.

(٢) إشارة إلى أصل قطز أنه كان من الخوارزمية.

ندم، ومن قصد أمتنا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أنا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة. فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم نار الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كافياً ولا حرزاً، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هلاون[1] قد أتى   بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منهم أذلة   ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر

---

(١) يقصد الاسم هولاكو

ملحق رقم ٤

كتاب البشارة بهزيمة المغول في عين جالوت (٦٥٨/ ١٢٦٠)[1]

هذه نسخة كتاب، الملك المظفر قطز إلى صاحب اليمن المنصور[2] بالبشارة بهزيمة المغول. وهي من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر[3]، وجاء فيها:

«أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالي، المولوي، السلطاني، الملكي المنصوري، وأعلا منارة، وضاعف اقتداره، نعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب[4]، فتح الله بنصر المسلمين على أعداء الدين.

. . . . . . أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى، استطالوا على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام:

يمنّي الطمع المردي بهم لحتوفهم ومن يمكن قبل المطامع يعطب

وأقلعت بهم طرائق الضلال، وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال، فتلك أمثال خائبة، ومراكب للظنون عاطبة. هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها، جاذبة عقبانها في وكور قنابها، رابضة أسودها في غيل الفتها، ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا ثبتت لأحد حجة إلا وكانت

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣١٠ ـ ٣١٢.

(٢) هو الملك المنصور نور الدين عمر بن علي سلطان.

(٣) هو ابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء، المتوفي سنة ٦٩٢/ ١٢٩٢. وله كتاب تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، وكتاب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.

(٤) هذا التاريخ يتعارض مع ما ورد في المراجع العربية الأخرى من أن موقعة عين جالوت حدثت يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨/ ٣ أيلول ١٢٦٠.

الجمعة ناسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الآذان: ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن.

ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونسخت آية الليل بسورة الشمس، واكتحلت الأعين بمرود السهاد، وغنى كل من المسلمين إنشاد البيات:

يشام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى الأعادي، فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين، واضطرم نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يحمل البرق نصولاً، ويترك في بطن كل من المشركين فلولاً، حتى صارت المفاوز دلاصاً، ومراتع الظبا لظبا خراصاً، واقتنصت آساد المسلمين المشركين اقتناصاً، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصاً، فلا روضة إلا جرح، ولا جدول إلا حسام، ولا غمامة إلا نقع، ولا وابل إلا سهام، ولا مدام إلا دماء، ولا نغم إلا صهيل، ولا معربد إلا قاتل، ولا سكران إلا قتيل، حتى صار كافور الذين شقيقاً، وتلون الخضباء من الدم عقيقاً، وضرب النقع في السماء طريقاً، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعله مضيقاً، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم، وما ربك بظلام للعبيد.

ملحق رقم ٥

هدنة الظاهر بيبرس مع إيزابيلا صاحبة بيروت (٦٦٧هـ/١٢٦٩م)[1]

هذه نسخة من الهدنة التي عقدت بين السلطان الظاهر بيبرس، وبين إزابيلا إيبلان[2] صاحبة بيروت:

«استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة، فلانة بنت فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها الداخلة فيها مدة عشر سنين متوالية، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة، على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز. والقاطنة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها، من حد جبيل إلى حد صيدا، وهي المواضع الآتي ذكرها:

جونية بحدودها، والعلب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والزرارق

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١٤ ص ٣٩ ـ ٤٢.

(٢) أطلقت بعض المراجع العربية على إزابيلا اسم القمرة وهو تعريب للفظ دي إبلان D'Ibelin وهو اسم الأسرة الحاكمة في بيروت، وهي من الأسر الفرنجية أصلاً في جزيرة قبرص. تزوجت إزابيلا من جان الثاني Jean II Ibelin المتوفي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م. وقد عقدت هدنة مع السلطان بيبرس سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، وفق الشروط السابقة. وصارت كلما سافرت إلى قبرص، تلجأ إلى حماية السلطان بيبرس وتترك بيروت وديعة بين يديه إلى حين عودتها، كما جعلت أمنها حرماً من المماليك. توفيت سنة ٦٨٠هـ/١٢٨٢م.

راجع عصام شبارو، تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، ص ٨٧ ـ ٩١.

بحدودها، ورأس الفيل بحدودها، والرج والشريف بحدودها، وأنطلياس بحدودها، والجديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والشرية بحدودها، والدكوانة وبرج فراجار بحدودها، وقرنة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفقيه، والوطاة المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمترددين إلى بلاد السلطان بيرس وهي:

الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها، وحمص وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها وممالكها، والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها، والمملكة الشمية وما يختص بها، والمملكة الصنية وما يختص بها، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النابلسية، والمملكة الصرخدية، ومملكة الديار المصرية جميعها بثغورها، وحصونها، وممالكها، وبلادها، وسواحلها، وبرها، وبحرها، ورعاياها، وما يختص بها. والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً في جملة شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من المملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها، براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيها. وكذلك رعية المملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته، براً وبحراً، ليلاً ونهاراً، في جبلة واللاذقية، وجميع بلاد السلطان، ومن مراكبه وشوانيه.

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجرون على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين. وإن عدم لأحد من الجانبين مال أو أخذت الخيل، وصحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة، أو قيمتها إن كانت مفقودة. وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً، فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلف ولي تلك الولاية المدعى عليه، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي، ويبرئ جهته من تلك الدعوى. فإن أبى المدعى عليه عن اليمين حلف الوالي المدعي، وأخذ ما يدعيه. وإن قتل أحد من الجانبين خطأ أو عمداً، كان حق القاتل في جهته للمرض عنه نظيره، فارس بفارس، وراجل براجل، وفلاح بفلاح. وإن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال غيره، رد من الجهتين هو والمال، ولا يحتج بعذر.

وعلى أن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلاً في هذه الهدنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة ملاتة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها، وتمنع من ذلك وتدفع كل مطرق بسوء، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بموجبها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين، لا ينقضها مرور زمان، ولا يغير شروطها حين ولا أوان، ولا تنقض بموت أحد الجهتين.

وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة بالخط الشريف حجة فيها، والله الموفق في تاريخ كذا.

ملحق رقم ٦

رسالة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن إلى السلطان المنصور قلاون[1]
(أواخر محرم ٦٨٠/ ١٢٨١)

في أواخر شهر محرم ٦٨٠/ ١٢٨١، أرسل الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن إلى السلطان المملوكي المنصور قلاون، برسالة يمين واتفاق، جاء فيها: -

«إذ أراد السلطان العظيم النسب، العالي العزيز، الكبير الجنس، الملك المنصور سيف الدين قلاون، صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، أن يكون بينه وبين مملكتي محبة، فمملكتي أيضاً تؤثر ذلك، ونختار أن يكون بيننا وبين عز سلطانه محبة. ولهذا وجب أن يتوسط هذا الأمر يمين واتفاق لتدوم المحبة التي بهذه الصورة، فيما بين مملكتي وعز سلطانه ثابتة بلا تفريط.

فمملكتي من هذا اليوم، وهو يوم الخميس الثامن من شهر أيار من التاريخ التاسع سنة ستة آلاف وسبعمائة وتسع وثمانين لآدم، يكون أواخر المحرم سنة ثمانين وستمائة. نحلف بأناجيل الله المقدسة والصليب المكرم المحيي، أن تكون حافظة للسلطان العظيم النسب، العالي العزيز، الكبير الجنس، الملك المنصور قلاون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، ولأولاده ولوارثي ملك عز سلطانه، محبة مستقيمة، وصداقة كاملة نقية.

ولا يحرك ملكي أبداً على عز سلطانه حرباً، ولا على بلاده ولا على قلاعه، ولا على عساكره. ولا يحرك ملكي أحداً على حربه، بحيث أن هذا السلطان العظيم النسب، العالي العزيز، الكبير الجنس، الملك المنصور سيف الدين قلاون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولد مملكتي الحبيب الكميثوس الأنجالس الدوقس اليالاولوغس الملك

[1] ابن الفرات، معرفة تراجم الخلفاء والملوك، جـ ٧ ص ٢٢٩ - ٢٣٢.

الأندرونيقوس[1]، ولوارثي مملكتنا محبة مستقيمة وصداقة كاملة نقية. ولا يحرك عز سلطانه على مملكتنا حرباً قط، ولا على بلادنا ولا على قلاعنا، ولا على عساكر مملكتنا. ولا يحرك أحداً آخر أيضاً على حرب مملكتنا.

وأن يكون للرسل المسيرين من عز سلطانه أيضاً، أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث يسيروا من عز سلطانه، وكذلك يرجعوا إلى عز سلطانه.

وأن لا يحصل للتجار الواردين من بلاد عز سلطانه إلى بلاد مملكتي جور ولا ظلم، بل يكون لهم مباح أن يحملوا متاجرهم. ونظير هذا: التجار الواردين إلى بلاد عز سلطانه من بلاد مملكتي، لا يحصل من أحد جوراً ولا ظلماً، بل يكون لهم مباح، أن يحملوا متاجرهم. وكما أن التجار المزمعين أن يردوا إلى بلاد عز سلطانه من أهل بلاد مملكتي يقومون بالحق الواجب على بضائعهم. فليقم كذلك التجار الواردين من بلاد عز سلطانه إلى بلاد مملكتي بالحق الواجب على بضائعهم.

وإن حضر من بلاد سوداق تجار، وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانه، فلا ينال هؤلاء تعويق في بلاد مملكتي، بل في عبورهم وعودهم يكونوا بلا مانع ولا عائق، بعد القيام بالحق الواجب على بضائعهم في بلاد مملكتي. ومثل ذلك، إن وافى تجار من أهل بلاد عز سلطانه وأرادوا العبور إلى بلاد سوداق، يعبروا من بلاد مملكتي بلا عائق ولا مانع، وكذلك إذا عادوا، وهذا كله بعد القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من أهل بلاد عز سلطانه: والذين من أهل سوداق، إن حضر صحبتهم مماليك وجوار، فليعدوا بهم إلى بلاد عز سلطانه بلا عائق ولا مانع، ما خلا إن كانوا نصارى، لأن شرعنا وترتيب ديننا لا يسمح لنا في أمر النصارى بهذا

ولما إن كان في بلاد عز سلطانه مماليك نصارى روم وغيرهم من أجناس النصارى، متمسكين بدين النصارى، ويحصل اللوم منهم العنف، فليكن

---

(١) وهو أندرونيكوس الثاني الذي تولى حكم الإمبراطورية البيزنطية في الفترة ١٢٨٢ - ١٣٣٢م.

للذين معهم عقابق مباح ومطلق من عز سلطانه، أن يعقدوا في البحر إلى بلاد مملكتي.

وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عز سلطانه، أن يبيع معبركاً نصرانياً هله ميرونه لأحد من رجال مملكتي أو لتجار وأناس من بلاد مملكتي، أن لا يجد في هذا تعويقاً بل يشتروا المذكور، ويهدونه في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عنق.

وأيضاً إن أراد هذا السلطان المعظم النسيب أن يرسل إلى بلاد مملكتي ضبايع متجر، وأرادت مملكتي أن ترسل إلى بلاد عز سلطانه بضبايع متجر، فليكن هكذا

وعن إن أراد عز سلطانه أن تكون بضايع متاجره في بلاد مملكتي منجاة من القيام بكل الحقوق، فلتكن أيضاً بضايع متاجر مملكتي في بلاد عز سلطانه منجاة مثل ذلك من كل الحقوق. وإن أراد أن تقوم متاجر مملكتي في بلاده بالحقوق الواجبة، فلتكن أيضاً متاجر عز سلطانه تقوم في بلاد مملكتي بالحقوق الواجبة مثل ذلك.

وأيضاً أن يطلق عز سلطانه لمملكتي أن يرسل أناساً من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانه، فيشترون لي خيلاً جياداً ويحملونها إلى بلاد مملكتي. وكذلك إن أراد عز سلطانه شيئاً من خيرات بلاد مملكتي، فمملكتي أيضاً تطلق لعز سلطانه أن يرسل أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عز سلطانه.

ولما كان في البحر كرسالية[1] من بلاد غريبة، وقد يتفق في بعض الأوقات أن يعملوا خسارة في بلاد مملكتي، كذلك يجدون هؤلاء الكرسالية قوماً من بلاد عز سلطانه، فيعملون لهم خسارة. ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا بالاتفاق في تخويف بلاد مملكتي. لأجل هذا صار إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانه. يتجرون يمسكون من أهل بلاد عز سلطانه ويغرمون. ولهذا فليصدر مرسوم من عز سلطانه في كل بلاده أن أحداً من أهل

---

(١) الكرسالية هم: قرصان البحر.

بلاد مملكتي لا يغرم بهذا السبب، ولا يمسك. وإذا عرض أن يقول أحد من أهل بلاد عز سلطانه أنه غرم أو ظلم من أحد من أهل بلاد مملكتي فليعرف مملكتي بذلك. وإن كان الذي صنع الغرامة من أهل بلاد مملكتي، فمملكتي يأمر بإعادة تلك الخسارة إلى بلاد عز سلطانه. وكذلك إن قال أحد من أهل بلاد مملكتي أنه ظلم أو غرم من أحد من أهل بلاد عز سلطانه، يأمر عز سلطانه بإعادة الغرامة إلى بلاد مملكتي.

وأيضاً إذ قد أزمعت المحبة أن تصير بهذه الصورة، وتكون المصادقة بين مملكتي وعز سلطانه خالصة، حتى أنه أرسل يقول لمملكتي على معونة ونجدة مملكتي في البحر لنصرة العدو المشترك، فمملكتي تعرض هذا الأمر إلى اختيار عز سلطانه أن يرتب في نسخة اليمين مع بقية الفصول المعينة فيه، كيف رأي صورة تعين وتنجد مملكتي في البحر. وإن كان لا يريد نجدة ومعونة مملكتي، فمملكتي تسمح بهذا الفصل لأن لا يضعه عز سلطانه في نسخة يمينه.

وهذه اليمين إذا يحفظه مملكتي لعز سلطانه ثابتاً غير متزعزع، إن كان هو السلطان العظيم، يحلف لي يميناً مثلها، وأنه يحفظ المحبة لمملكتنا ثابتة غير متزعزعة والسلام».

ملحق رقم ٧

رسالة السلطان المنصور قلاوون إلى الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن (الاثنين مستهل رمضان ٦٨٠/ ١٢٨١)[١]

يوم الاثنين مستهل شهر رمضان ٦٨٠/ ١٢٨١، ردّ السلطان المنصور قلاوون على رسالة الامبراطور البيزنطي برسالة يمين واتفاق. جاء فيها: ـ

«أقول وأنا فلان، أنه لما رغب حضرة الملك الجليل كرميخائيل الدوقس الإنجالس الكمنينوس البالاولوغس ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى، أكبر ملوك المسيحية، أبقاه الله أن يكون بين مملكته وبين عز سلطاني محبة وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام، ولا تزول بزوال السنين والأعوام، وأكد ذلك بيمين حلف عليها، تاريخها يوم الخميس، ثامن شهر آيار سنة ستة آلاف وسبعمائة وتسع وثمانين لآدم صلوات الله عليه، بحضور رسول عز سلطاني الأمير ناصر الدين بن الجزري، والبطرك الجليل أثناسيوس، بطرك الإسكندرية وحضر رسولاه فلان وفلان، إلى عز سلطاني بنسخة اليمين، ملتمسين أن يتوسط هذا الأمر أيضاً بيمين واتفاق من عز سلطاني، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطاني، ولتكون ثابتة مستمرة على الدوام والإستمرار.

فعز سلطاني من هذا اليوم، وهو يوم الإثنين، مستهل شهر رمضان المعظم، سنة ثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، يحلف بالله العظيم، الرحمن الرحيم، عالم الغيب والشهادة، والسر والعلانية وما تخفي الصدور، وبالقرآن العظيم، ومن أنزله، ومن أنزل عليه، وهو النبي الكريم، محمد ﷺ، على استمرار الصداقة، واستقرار المودة النقية، للملك الجليل، كرميخائيل، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى،

---

(١) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، جـ ٧ ص ٢١٩ ـ ٢٢٣.

ولولد مملكته الحبيب الكنينوس الإنجالي الدوقس الباليولوغس، الملك الأندرونيقوس، ولوارثي مملكة ملكه.

ولا يحرك عز سلطاني أبداً على مملكته حرباً، ولا على بلاده ولا على قلاعه، ولا على عساكره، في بر ولا بحر. ولا يحرك عز سلطاني أحداً آخر على حربه، بحيث أن الملك الجليل كرميخائيل يحفظ مثل ذلك لعز سلطاني ولمملكتي ولبلادي ولقلاعي ولعساكري، ولولدي الملك الصالح علاء الدين علي، ولوارثي مملكتي من أولادي. ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقية.

ولا يحرك مملكته على عز سلطاني حرباً قط، ولا على بلادي، ولا على قلاعي، ولا على عساكري، ولا على مملكتي. ولا يحرك أحداً آخر على حرب مملكة عز سلطاني في البر، ولا في البحر. ولا يساعد أحداً من أضداد عز سلطاني، ولا أعدائي من سائر الأديان والأجناس ولا يوافقه على ذلك. ولا يفسح لهم في العبور إلى مملكة عز سلطاني لمضرة شيء منها، بجهده وطاقته.

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطاني إلى بر بركة وأولاده، وبلادهم، وتلك الجهات، وبحر سوداق وبره، يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً، لهم أن يمروا في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل من أولها إلى آخرها: بلا مانع ولا عائق، أرسلوا في بر أو بحر، على ما يقتضيه مصلحة ذلك الوقت، لمملكة عز سلطاني. ولهم أن توجهوا إلى حيث يسيرهم عز سلطاني في تلك البلاد. وكذلك يعودون إلى مملكة عز سلطاني آمنين مطمئنين غير ممنوعين، بجميع من يصل معهم، من رسل تلك الجهات وغيرها، وكل من معهم من مماليك وجوار وغير ذلك.

وأن لا يحصل للتجار الواردين من بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل، إلى بلاد عز سلطاني جور ولا ظلم ويترددون آمنين مطمئنين، يعملون متاجرهم ولهم الرعاية في الصدور والورود، والمقام والسفر، بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطاني، في بلاد مملكة الملك الجليل، كرميخائيل مثل ذلك ويكونون مرعيين، لا يجدون من أحد في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل جوراً ولا ظلماً. ومن عليه حق واجب في الجهتين على ما استقر

عليه الحال، يقوم به من غير حيف ولا ظلم.

وإن من حضر من التجار من سوداق وغيرها بمماليك وجوار، يمكنهم مملكة الملك الجليل كرميخائيل من الحضور بهم، إلى مملكة عز سلطاني ولا يمنعهم.

وإن الكرسالية، متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين في البحر، إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخائيل، بسبب عز سلطاني إليه في طلبهم. ولا يتعرض أحد من نواب مملكة عز سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم، إلى أن يتحقق أنهم آخذوه أو يظهر عين المال معهم، على ما تضمنه نسخة يمين الملك الجليل كرميخائيل. ولمملكة الملك الجليل كرميخائيل من بلاد عز سلطاني مثل ذلك.

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين من عز سلطاني ومن مملكة الملك الجليل كرميخائيل، يكونون آمنين مطمئنين في سفرهم ومقامهم، براً وبحراً، وتكون رعية بلاد عز سلطاني، ورعية بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل، في الجهتين من المسلمين وغيرهم، آمنين مطمئنين، صادرين واردين، محترمين مرعيين.

وهذه اليمين لا تزال محفوظة ملحوظة مستمرة، مستقرة على الدوام والاستمرار.

ملحق رقم ٨

هدنة السلطان الناصر قلاوون وبوهمند السابع صاحب طرابلس
(٢٧ ربيع الأول ٦٨٠/ ١٥ تموز ١٢٨١)[1]

في ٢٧ ربيع الأول ٦٨٠/١٥ تموز ١٢٨١، عقد السلطان الناصر قلاوون مع بوهمند السابع صاحب طرابلس، هدنة لمدة عشر سنوات، جاء فيها: .

«تقررت الهدنة مع متملك طرابلس الشام «بيمند» بن بيمند» ـ ملك الفرنج ـ لمدة عشر سنين كوامل متواليات، أولها السابع والعشرين في شهر ربيع الأول من هذه السنة، الموافق الخامس من شهر تموز سنة ألف وخمسمائة واثنين وتسعين للإسكندر اليوناني؛ وذلك على بلاد الملك المنصور، والملك الصالح ولده قريبها وبعيدها، وسهلها وجبلها، غورها ونجدها، قديمها ومستجدها، وما هو مجاور لطرابلس، ومجاور لها من المملكة البعلبكية وجبالها، وقراها السهلية والجبلية، وجبال الضنين والقصيبين، وما هو من حقوق ذلك، وعلى الفتوحات المستجدة، وهي الأكراد، وأنطرس، والقليعات، وصافيتا، وميعار، وأطليما، وحصن عكار، ومرقية ومدينتها وبلادها، ومناصفاتها، وهي بلاد المليكة.

وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الإسبتار، وبلده ومدينته، وما هو محروب منها ومعروف بها من حصون وقرى، وبلاد السن، وبلاطنس وبلادها، وجبلة، واللاذقية، وأنطاكية، والسويدية، وبلاد ذلك، وحصن بغراس، وحصن دركوش، وصهيون، وبرزيه، وحصون الدعوة، وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية، وما سيفتحه الله تعالى على يد الملك المنصور، ويد ولده، وعلى المواليه

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ٢٦٠، ٢٦١.

والسواحل والأبراج، وغير ذلك، وعلى بلاد الأبرنس، وعلى طرابلس، وما هو داخل فيها، وأنفه، والبترون، وجبيل، وبلاد ذلك، وعرقا وبلادها المعينة في الهدنة، وعدتها أحد وعشرون ناحية. وما هو للصبالة والكنائس، وعدتها أحد وعشرون بلداً، وما هو للفارس «روجار دلاولاي» من قبلي طرابلس يكون مناصفة، وعلى أن يستقر برج اللاذقية وبلادها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفة، ونستقر مقاسمهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركنية، وعلى أن يكون على جسر أرتوسية من غلمان السلطنة لحفظ الطرق ستة عشر نفراً، بحكم المشد والشاهد والكاتب، وثلاث غلمان لهم، وعشر رجالة في خدمة المشد، ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنونها، ولا يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس، وإنما يمنعوا ما يجب منعه من الممنوعات، ولا يمنعوا ما يكون من عرقا وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها، لا يعارضهم المشد فيه، وما عدا ذلك مما يجيء من بلاد السلطان يؤخذ عليه الحقوق.

ولا يدخل إلى طرابلس غلة مصيبة للإبرنس ولا غيره إلا ويؤخذ الموجب عليها، وعلى أن الإبرنس لا يستجد خارج مما وقعت الهدنة عليه بناء يمنع ولا يمنع، وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة يملكها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها، وعلى الشرائط من الجهتين أن تكون آمنة كل طائفة من الأخرى، ولا ينقضي ذلك بموت أحدهما ولا بتغييره، وأن يحسن لأحد من أعداء السلطان، ولا يتفق عليه برمز ولا خط، ولا مراسلة، ولا مكاتبة، ولا مشافهة.

ملحق رقم ٩

كتاب إيلخان فارس أحمد تكودار إلى السلطان المنصور قلاون (جمادى الأولى ٦٨١/ ١٢٨٢)[1]

(بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، بإقبال قاآن، فرمان أحمد إلى سلطان مصر.

أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى، بسابق عنايته ونور هدايته: قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته، والاعتراف بوحدانيته، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام، بصدق نبوته، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده في بريته، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. ولم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين، وإصلاح أمور المسلمين، إلى أن أفضت بعد أبينا وأخينا الكبير نوبة الملك إلينا، فأفاض علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه، وجلا عروس المملكة علينا، وأهدى عقيلتها إلينا.

فاجتمع عندنا في قوريلتاي المبارك، وهو المجمع الذي تنقدح فيه الآراء، جميع الإخوان والأولاد، والأمراء الكبار ومقدمي العساكر وزعماء البلاد. واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير في إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا، التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها، وامتلأت الأرض رعباً لعظيم صولتها وشديد بطشها إلى تلك الجهة، بهمة تخضع لها شم الأطواد، وعزمة تلين لها صم الصلاد.

ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمهم عنه، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من القصد لخير العام، الذي هو عبارة

(١) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، جـ ٩ ص ١٣٦ ـ ١٣٩.

عن تقوية شعار الإسلام، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء، وتسكين الفتن، وتجري به في الأقطار رخاء سائم الأمن والأمان، وتستريح به المسلمون في سائر الأصقاع، من مهاد الشفقة والإحسان، تعظيماً لأمر الله، وشفقة على خلق الله.

فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتن الثائرة، وإعلام من أشار بذلك الرأي، بما أرشدنا إليه من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم من الأدواء، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء، وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النصل للنضال، إلا بعد إيضاح المحجة، ولا نأذن لها إلا بعد تبيين الحق وضوح الحجة.

وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح، إذكار شيخ الإسلام، قدوة العارفين، كمال الدين عبد الرحمن، الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين، فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه، وأنفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفاهم طريقتنا، ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا، ويبينا لهم أنا لهم من الله على بصيرة، وأن الإسلام يجب ما قبله، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتبع الحق وأهله، ويشاهدون عظيم نعمة الله على ألطافه، بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان، ولا يحرموها بالنظر إلى سالف الأحوال، فكل يوم هو في شأن. فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل يستحكم بسببه دواعي الاعتماد، وحجة يتقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من أثرنا، مما اشتهر خبره وعم أثره.

فإنا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى، بإعلاء أعلام الدين، وإظهاره في إيراد كل أمر وإصداره تقديماً، وإقامة نواميس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور، وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف، وقابلناه بالصفح، وقلنا عفا الله عما سلف، وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين، من المشاهد والمساجد والمدارس،

وعمارة بقاع البر والربط والمدارس، وإيصال حاصلها بموجب شروطها القديمة إلى مستحقها لشروط واقفها، ومنعنا أن ينقص شيء مما استحدث عليها، وألا يغير أحد مما قرر أولا فيها. وأمرنا بتنظيم أمر الحاج وتجهيز ومنعها، وتأمين سبلها وتسيير قوافلها.

وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد، ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وحرمنا على العساكر والقراغول والشحاني في الأطراف، التعرض معهم في مصادرهم ومواردهم. وقد كان صادف قراغولنا جاسوساً في زي الفقراء، كان سبيل مثله أن يهلك، لكنه لم يهرق دمه لحرمة ما حرمه الله تعالى وأنفذناه إليهم. ولا يخفى عليهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين؛ فإن عساكرنا طالما رأوهم في زي الفقراء والنساك وأهل الصلاح: فساءت ظنونهم في تلك الطوائف، فقتلوا منهم من قتلوا، وفعلوا بهم ما فعلوا، وارتفعت الحاجة بحمد الله إلى ذلك، بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردد التجار وغيرهم.

فإذا أمعنوا الفكر في هذه الأمور وأمثالها، لا يخفى عليهم أنها أخلاق جبلية طبيعية، وعن شائب التكلف والتصنع عرية. وإذا كانت الحال على ذلك، فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة المخالفة، فإنها كانت بطريق الدين والذب عن حوزة المسلمين. فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين، وإن كان فيما سبق من الأسباب، فهي تجري الآن على الصواب، فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب.

وقد رفعنا الحجاب، وأتينا بفصل الخطاب، وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها، وحرمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها، لترضى به الله والرسول، وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة، وتنجلي بنور الائتلاف ظلمة الاختلاف والغمة، فيسكن في سابغ ظلها البوادي والحواضر، وتقر القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر، ويعفى عن سالف الهنات والجرائر.

فإن وفق الله سلطان مصر، لاختيار ما فيه صلاح العالم، وانتظام أمور بني

آدم، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك المساكن والبلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف البائرة، وتحل بالكائنة أرض الهوينى، وروض الهدون، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون. وإن غاب سوء الظن بما تتصل به رواسب الرحمة، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا، وأبلى عدونا، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً. والله الموفق للرشاد والسداد، وهو المهيمن على البلاد والعباد، وحسبنا الله وحده

كتب في مدينة واسط في شهر جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة بمقام الأوطاق»

ملحق رقم ١

جواب السلطان المنصور قلاوون إلى السلطان أحمد تكودار[1]
(٦٨١/ ١٢٨٢)

«بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، بإقبال دولة السلطان الملك المنصور، كلام قلاوون إلى السلطان أحمد.

أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا وبنا الحق منهاجاً، وجاء بنصاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً. والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي، نجّى به أمته، وعلى كل نبي ماحي، صلاة تبير ساجياً، وتجير من داجي.

فقد وصل الكتاب الكريم، المتلقى بالتكريم، المشتمل على النبأ العظيم، من دخوله في الدين، وخروجه عمن خلف من العشيرة والأقربين. ولما فتح هذا الكتاب، فاتح بهذا الخبر المعلّم المعظم، والحديث الذي صحح عند أهل الإسلام إسلامه، وأصبح الصحيح ما روي من مسلم، وتوجهت الوجوه بالابتهال إلى الله سبحانه، في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت، وأن ينبت حُب هذا الدين في قلبه كما أنبته أحسن النبت من أحسن المنابت.

وحصل التأمل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه إلينا في أول العمر وعنفوان الصبا والإقرار بالوحدانية، ودخوله في الملة المحمدية بالقول والعمل والنية. فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شرف هذا الإلهام، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام، وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد، تتزلزل دونه الأقدام.

---

(١) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، جـ٩ ص ٢٢٦ - ٢٤٠.

وأما إفضاء النوبة في الملك وميراثه، بعد والده وأخيه الكبير إليه، وإفاضة جلابيب هذه المراتب العظيمة عليه، وتوليه الأسرة التي طهرها إيمانه، وأظهرها سلطانه، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده، وصدق المبشرات له من كرامة أولياء الله وعباده.

وأما حكاية اجتماع الأشراف والأولاد، والأمراء الكبار ومقدمي العساكر، وزعماء البلاد، في مجمع قوريلتاي الذي تقدح فيه زند الآراء، وأن كلمتهم اتفقت على ما سمحت به كلمة أخيه الكبير، في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب، وأنه نكر فيما اجتمعت عليه آراؤهم، وانتهت إليه أهواؤهم، فرجعه مخالفاً لما في ضميره، إذ قصده الصلاح، ورأيه الإصلاح، وأنه أطفأ تلك الثائرة، وسكن تلك الثائرة، فهذا فعل الملك المتقي المشفق من قومه على من بقي، المفكر في العواقب، بالرأي الثاقب، وإلا فلو تركوا وآراءهم، حتى تصطلمهم العزة، لكانت هذه الكرة هي الكرة. لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى.

وأما القول منه بأنه لا يحب المسارعة إلى المقارعة، إلا بعد إيضاح المحجة، وتركيب الحجة، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحجته المتركبة، على من عدت طواغيته عن سلوك هذه المحجة متنكبة، فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصر هذه الملة، وجهادنا واجتهادنا إنما هو على الحقيقة لله. وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الحروب، وبارتفاع المنافرة، تحصل المظاهرة، فالإيمان كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ومن أقام مناره، فله أهل بأهل في كل مكان، وجيرانه بجيران في كل أرض.

وأما ترتيب هذه القواعد الجمة، على إذكار شيخ الإسلام قدوة العارفين، كمال الدين عبد الرحمن، أعاد الله من بركاته، فلم تر لولي قبله كرامة كهذه الكرامة، والرجاء ببركته، وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة، حتى تتم شرائط الإيمان، ويعود شمل الإسلام مجتمعاً كأحسن ما كان، ولا ينكر ثمن الكرامة ابتداء هذا التمكن في الوجود، أن كل حق ببركته إلى نصابه يعود

وأما إنفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين المؤثوق بنقلها في إبلاغ رسائل هذه البلاغة، فقد حضروا وأعادوا كل قول حسن من سوابق أحواله وخطرات خاطره، ومنتظرات ناظره، ومن كل ما يشكر ويحمد، ويمتحن صحيحهما فيه من عند أحمد.

وأما الإشارة إلى أن النفوس إن كان لها تطلع إلى إقامة دليل، تستحكم به دواعي الود الجميل، فلينظر إلى ما ظهر من مآثره في موارد الأمر ومصادره، ومن العدل والإحسان بالقلب واللسان، والقيام بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط، وتسبيل السبل للحج إلى غير ذلك، فهذه صفات من يريد لملكه الدوام، فما ملك صدق، ولم يمل إلى لوم من عدى ولا لوم من عذل. على أنها وإن كانت من الأعمال الحسنة، والمثوبات التي تستطلق بالدعاء الألسنة، فهي واجبات تؤدى وقربات بمثلها يبتدى، وهو أكثر من أنه بإجرائه أجر غيره يقتضي، أو علي يقتصر، أو له يدخر. بل إنما يعذر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها، ونظم ما كانت عليه في سلوكها، وقد كان والله فعل شيئاً مع الملوك السلجوقية وغيرهم، وما كان أحد منهم بدينه يدين، ولا دخل معه في دين، وأكرمهم في ملكهم، وما زحزحهم عن ملكهم. ويجب عليه ألا يرى حقاً مغتصباً، ويأبى إلا رده، ولا باباً مسدوداً بالظلم ويرضى إلا سده، حتى أن أسباب ملكه تقوى، وأيامه تتزين بأفعال التقوى.

وأما تحريضه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف، المرتقي إلى أحد بالأذى: وإصغاء موارد الواردين والصادرين من غرائب الغنى، فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك، تقدمنا أيضاً بمثله إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب، وإلى مقدمي العساكر بأطراف تلك الممالك، وإذا اتحد الإيمان، وانعقدت الأيمان، تحتم هذا الأحكام، وترتب عليه جميع الأحكام.

وأما الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق، وأن سبب من يتزيا من الجواسيس بزي الفقراء، قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجماً بالظن، فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب سيروه، وإلى الإطلاع على الأمور صوروه، وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف، ولم يكشف ما حظره بخرقة الفقر بلم ولا كيف

وأما الإشارة إلى أنه باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الخلاف، وتدور بها من الخيرات الأخلاق، ويكون بها صلاح العالم، وانتظام شمل بني آدم، فلا زند لمن قدح أبواب الاتحاد، وجنح إلى السلم فما حاد ولا حاد، ومن تنح هناك عن المكافحة: كان كمن مد يد المصالحة للمصافحة، والصلح وإن كان سيد الأحكام، فلا بد من أمور تبنى عليها قواعده، ويعلم من مدلولها فوائده فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات لازمة، يصير بها كل مخفي ومعلم، أن تهيأ صلح أو لم، وثم أمور لا بد وأن تحكم، وفي سلكها عقود العهود تنظم، قد تحملها بلسان المشافهة، التي إذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس.

وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً، فما على هذا النسق من الرد يسمع، ولا على هذا السبيل منهج، بل الفضل المتقدم في الدين، ونصرة عهود ترعى، وإفادات تستدعى، وما برح الفضل للأولوية وإن تناهى العدد للواحد الأول، ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروى وتأول.

وعندما انتهينا إلى جواب ما لعله بحث عنه الصواب من فصول المكاتبة، سمعنا المشافهة التي على لسان أقضى القضاة قطب الدين فكان منها ما يناسب ما في هذا الكتاب من دخوله في الدين، وانتظام عقده بسلك المؤمنين، وما بسطه من معدلة وإحسان، مشكورة بإحسان كل إنسان، فالمنة لله عليه في ذلك، فلا يشيها منه بامتنان، وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن بإسلامه: قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان.

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء، ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل، والجواب أنه لم أمرأ، متى حصلت عنها الموافقة، إنني على ذلك حكم المصاحبة والمصادقة، ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا، وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا، فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة، وما تم أمر هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة

الصحابة. فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الإتصال، وحسن الوداد وجميع الإعتصام، وكبت الأعداء والأضداد، والإستعداد إلى من يشد الأزر به عند الإستنجاد، فالرأي رأيه في ذلك.

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما في يده من أرض وبلاد، فلا حاجة إلى إنفاذ العسكر الذين يؤمون المسلمين بغير طائفة تعود. فالجواب عن ذلك، أنه إذا كف، كف العدوان، وترك المسلمين وما لهم من ممالك، سكنت الدهماء، وخمدت الفتنة، وما أحقه بأن لا يمد عين طمع ويأتي مثله، ولا يأمر بيرونيس فقط، وقسطنطينية بالروم، وهي بلاد بأيديهم، ونصرانيها يجيء إليكم، وقد سفك فيها رهطك، وسبى رهطك، وباع الأحرار، وأبى إلا التمادي على الإصرار والأضرار.

ومن المشافهة أنه إذا حصل التصميم على أن لا تبطل هذه الغارات. ولا يغير عن هذه الإثارات، فنعين مكاناً يكون فيه اللقاء، ويعطي الله النصر لمن يشاء، فالجواب عن ذلك، أن الأماكن التي تعق فيها ملتقى الجمعين مراراً عديدة ومراراً، قد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم، وخاف أن يعاودها فيعاود مصرع ذلك اليوم، فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر، وما النصر إلا من عند الله نعين أقدر لا نمن قدره ولا نحن ممن ينتظر فلتة، ولا له إلى غير ذلك لفتة، وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا يأتي إلا بغتة، والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة، والقادر على إتمام كل خير ونعمة.

ملحق رقم ١١

هدنة السلطان المنصور قلاوون مع مرغريت أميرة صور[1]
(١٤ جمادى الأولى ٦٨٤/ ١٨ تموز ١٢٨٥)

في يوم الخميس ١٤ جمادى الأولى سنة ٦٨٤/ ١٨ تموز ١٢٨٥، عقد السلطان قلاوون مع مرغريت أميرة صور، بناء لطلبها هدنة[*] لمدة عشر سنوات، ومما جاء فيها:

«... استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين... وبين الملكة الجليلة دام مرغريت بنت سير هنري بن الأبرنس صاحبة مملكة صور... على أن يكون لمولانا السلطان الملك المنصور ولأولاده... الخمس الضياع من ضياع صور من أجودها وأكثرها متحصلاً من عين وغلة،... وهي قانا ومزرعتها، المعروبة، أمريقا ومزرعتها، حانا بجون وما يكملها، المجادل بكاملها، كفردين بكاملها على ما استقر عليه الحال إلى آخر الأيام الظاهرية.

... وتكون للملكة مرغريت، مالكة صور، من ضياع صور عشر ضياع من قرايا برج صور خاصاً لها على ما هو مستقر في الهدنة الظاهرية....، وهي عين أبي عبد الله، القاسمية، صدس، تعلب، المرقوف، الجارودية، الحمادية، مرقلة، رأس العين، برج الأصفار.... وعلى أن تكون بقية بلاد صور جميعها، بما فيها من مزارع، وعدتها ثماني وسبعون ضيعة ومزرعة، وهي الطالبة، دردغيا، الفخرية، القنونية، العتبة، وادي السماج، المرتية، اليصنبة، المالكية، دير عمران، الكبية، بابولية، الصمية، دير قالون، غرايفان، الزيلات، حيرية، رعيبة، بني دقنم، مارين، عيا، صديقي، رسكانية،

---

(١) ابن عبد الظاهر. تشريف الأيام، ص ١٠٢ ـ ١١٠.
المقريزي. السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ٢ ص ٧٢٢ ـ ٧٢٧.

رفيلة، حنليت ومزرعتها، الملاحات، السعونية، الفراضية، طوطات، الدير، السحلية، الشميرا، رونيه، بليوح قلمه، البازورية، كفرمجال، صريا ومزرعتها، سرفيه، مجدل، بيت زرح، طرسا، فسون، الحماسية، أمد ركنا، ملرون، طرمحات، كفرنلي، بني، باقلة، معولة، طقنف، أشمور، الرمر، القهرون، دور دفيا، أبروشيه، هرين، الصوافي، حلومية، معروب، بعلبك، دبرقانون، طردبا، بلياس، النعمانية، يلوت، العمرانية، طورا، السرفيات، برومبل الجديدة، العباسة، الحنية، الغلسة، أشمور الفاء، شامسة، المعيلة، المصرية . . . ، تكون هذه القرايا المذكورة في هذه الهدنة . . . مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور، وبين المملكة دام مرلريت مالكة صور بقسم جميع المتحصل بها، . . . نصفين بين الجهتين بالسوية.

. . . وتستقر هذه الهدنة بشروطها المحررة، وقواعدها المقررة، ولا ينتقض أحكامها، ولا ينفك نظامها بموت أحد الجهتين ولا بعزل والٍ ولا توليه غيره . . . بل تستمر مدتها، وتمضي عدتها، وهي عشر سنين كوامل متتاليات . . .».

ملحق رقم ١٢

سلاطين المماليك

أ ـ دولة المماليك الأولى (٦٤٨ ـ ٧٨٤/ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢)

شجر الدر	٦٤٨/ ١٢٥٠.
المعز عز الدين أيبك	٦٤٨/ ١٢٥٠.
المنصور نور الدين علي بن أيبك	٦٥٥/ ١٢٥٧.
المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧/ ١٢٥٩.
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري	٦٥٨/ ١٢٦٠.
السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بن بيبرس	٦٧٨/ ١٢٧٩.
العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس	٦٧٨/ ١٢٧٩.
المنصور سيف الدين قلاون	٦٧٨/ ١٢٧٩.
الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون	٦٨٩/ ١٢٩٠.
ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون	٦٩٣/ ١٢٩٣.
العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤/ ١٢٩٤.
المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦/ ١٢٩٦.
ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (للمرة الثانية)	٦٩٨/ ١٢٩٨
المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	٧٠٨/ ١٣٠٨
ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (للمرة الثالثة)	٧٠٩/ ١٣٠٩.

أبناء الناصر محمد بن قلاون:

المنصور سيف أبو بكر	٧٤٢/ ١٣٤١.
الأشرف علاء الدين كجك	٧٤٢/ ١٣٤١.
الناصر شهاب الدين أحمد	٧٤٣/ ١٣٤٢.

الصالح عماد الدين إسماعيل ٧٤٣/ ١٣٤٢.
الكامل سيف الدين شعبان ٧٤٦/ ١٣٤٥.
المظفر زين الدين حاجي ٧٤٧/ ١٣٤٦.
الناصر ناصر الدين حسن ٧٤٨/ ١٣٤٧.
الصالح صلاح الدين صالح ٧٥٢/ ١٣٥١.
الناصر ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاون (مرة ثانية) ٧٥٥/ ١٣٥٤.

أحفاد الناصر محمد بن قلاون:

المنصور صلاح الدين محمد بن سيف الدين حاجي ٧٦٢/ ١٣٦١.
الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين ٧٦٥/ ١٣٦٣.
المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين ٧٧٨/ ١٣٧٦.
الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين ٧٨٣/ ١٣٨١.

ب ـ دولة المماليك الثانية (٧٨٤ ـ ٩٢٣/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧)

ـ الظاهر سيف الدين برقوق ٧٨٤/ ١٣٨٢.
الصالح حاجي بن شعبان ٧٩٠/ ١٣٨٨.
الظاهر برقوق (للمرة الثانية) ٧٩١/ ١٣٨٩.
الناصر فرج بن برقوق ٨٠١/ ١٣٩٨.
المنصور عبد العزيز بن برقوق ٨٠٨/ ١٤٠٥.
الناصر فرج بن برقوق (للمرة الثانية) ٨٠٨/ ١٤٠٥.
الخليفة المستعين العباسي ٨١٥/ ١٤١٢.
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي ٨١٥/ ١٤١٢.
المظفر أحمد بن شيخ ٨٢٤/ ١٤٢١.
ـ الظاهر سيف الدين ططر ٨٢٤/ ١٤٢١.
محمد بن ططر ٨٢٤/ ١٤٢١.
الأشرف برسباي ٨٢٥/ ١٤٢٢.
يوسف بن برسباي ٨٤١/ ١٤٣٧.

جقمق	٨٤٢/ ١٤٣٨م.
عثمان بن جقمق	٨٥٧/ ١٤٥٣م.
إينال	٨٥٧/ ١٤٥٣م.
أحمد بن إينال	٨٦٥/ ١٤٦٠م.
خشقدم	٨٦٥/ ١٤٦٠م.
بلباي المؤيدي	٨٧٢/ ١٤٦٧م.
تمربغا	٨٧٣/ ١٤٦٨م.
الأشرف قايتباي	٨٧٣/ ١٤٦٨م.
محمد بن قايتباي	٩٠٢/ ١٤٩٦م.
قانصوه خمسمائة	٩٠٣/ ١٤٩٧م.
محمد بن قايتباي (للمرة الثانية)	٩٠٣/ ١٤٩٧م.
قانصوه الأشرفي	٩٠٤/ ١٤٩٨م.
جانبلاط	٩٠٦/ ١٥٠٠م.
طومان باي الأول	٩٠٧/ ١٥٠١م.
قانصوه الغوري	٩٠٧/ ١٥٠١م.
طومان باي الثاني	٩٢٢/ ١٥١٦م.

ملحق رقم ١٣

سلاطين الخوارزمية

توشتكين.

قطب الدين محمد

أتسز

إيل أرسلان.

سلطان شاه محمود بن إيل أرسلان.

علاء الدين تكش بن إيل أرسلان.

علاء الدين محمد بن سلطان شاه محمود.

جلال الدين منكبرتي.

ملحق رقم ١٤

خانات المغول

جنكيزخان	٦٠٣/ ١٢٠٦م
أوكتاي	٦٢٧/ ١٢٢٩م
كيوك	٦٤٣/ ١٢٤٥م
منكو بن تولوي بن جنكيزخان	٦٤٨/ ١٢٥٠م
قوبيلاي بن تولوي	٦٦٢/ ١٢٦٣م

إيلخانية فارس

هولاكو	٦٥٢/ ١٢٥٤م
أبغا بن هولاكو	٦٦٤/ ١٢٦٥م
أحمد تيكودار	٦٨٠/ ١٢٨٢م
أرغون بن أبغا	٦٨٣/ ١٢٨٤م.
غازان	٦٩٥/ ١٢٩٥م.

المصادر والمراجع

١ ـ المصادر العربية

١ ـ ابن أبي الفضائل مفضل (ت ٦٧٢/ ١٢٧٣).

● النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ٦ جـ.

بلوشيه ـ باريس (١٩١١ ـ ١٩٢٠).

٢ ـ ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ت ٦٣٠/ ١٢٣٣).

● الكامل في التاريخ ١٣ جـ

دار صادر ـ بيروت ١٩٦٦.

٣ ـ ابن أياس أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٢٠/ ١٥٢٣)

● بدائع الزهور في وقائع الدهور ٥ جـ.

القاهرة ـ طبعة ثانية (١٩٦٠ ـ ١٩٦٣).

٤ ـ ابن أيبك الدواداري أبو بكر عبد الله (ت ٧٣٦/ ١٣٣٦)

● كنز الدرر وجامع الغرر أو الدولة التركية في أخبار الدولة التركية.

تحقيق أ. هارمان

القاهرة ١٣٩١/ ١٩٧١

٥ ـ ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩/ ١٣٧٧)

● رحلة ابن بطوطة أو تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

دار صادر ـ بيروت ١٣٨٤/ ١٩٦٤.

٦ ـ ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٥/ ١٤٧٠).

● النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٣ جـ.

القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦.

● منتخبات من حوادث الدهور على مدى الأيام والشهور.

نشر كاليفورنيا ١٩٣٠ ـ ١٩٣١.

● المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي

تحقيق محمد أمين ـ القاهرة ١٩٨٦.

٧ ـ ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢/ ١٤٤٩).

● الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤ جـ.

حيدر آباد الدكن ـ الهند (١٣٤٨ ـ ١٣٥٠/ ١٩٢٩ ـ ١٩٣١).

٨ ـ ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦/ ١٣٧٤).

● نفاضة الجراب في علالة الاغتراب

تحقيق أحمد مختار العبادي.

القاهرة ١٩٦٧.

٩ ـ ابن زنبل أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد

● واقعة السلطان سليم خان في فتوح مصر زمن السلطان الغوري وطومان باي

نسخة سنة ١١١٣/ ١٧٠١

المخطوط رقم ٨٢٤ ـ الجامعة الأمريكية ـ بيروت.

١٠ ـ ابن شاكر الكتبي فخر الدين محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٧٦٤/ ١٣٦٢).

● فوات الوفيات ٥ جـ.

تحقيق إحسان عباس. دار صادر ـ

بيروت ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.

١١ ـ ابن شداد عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤/ ١٢٨٥).

● الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ٣ جـ.

تحقيق سامي الدهان.

طبع المعهد الفرنسي للدراسات العربية - دمشق ١٩٥٦

● تاريخ الملك الظاهر.

تحقيق أحمد حطيط فيسبادن ١٩٨٣.

١٢ - ابن الطقطقي أبو جعفر محمد بن علي بن محمد بن طباطبا العلوي (ت ٧٠٩/ ١٣٠٩)

● الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية

طبعة ثانية القاهرة ١٣٥٧/ ١٩٣٨.

١٣ - ابن طولون محمد

● أعلام الورى بمن ولي نائباً بمن الأتراك بدمشق الشام الكبرى

دمشق ١٩٦٤.

١٤ - ابن عبد الظاهر محي الدين عبد الله (ت ٦٩٢/ ١٢٩٢)

● تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور.

تحقيق مراد كامل القاهرة ١٩٦١.

● الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر

تحقيق عبد العزيز الخويطر. الرياض ١٣٩٦/ ١٩٧٦.

١٥ - ابن العبري غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي (ت ٦٨٥/ ١٢٨٦)

● تاريخ مختصر الدول.

تحقيق انطوان الصالحاني.

المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٥٨.

١٦ - ابن عربشاه ● عجائب المقدور في أخبار تيمور.

نشر مانجر. طبع هولندا ١١٨٦/ ١٧٧٢.

وطبع المطبعة العلوية بالقاهرة ١٣٠٥/ ١٨٨٢

١٧ - ابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧/ ١٤٠٤)

● تاريخ ابن الفرات المعروف باسم الطريق الواضح المسلوك

إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك. ٩ جـ

تحقيق قسطنطين زريق

بيروت ١٩٣٩ - ١٩٤٢.

١٨ ـ ابن فضل الله العمري أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩/ ١٣٤٩).

● التعريف بالمصطلح الشريف.

بيروت ١٩٨٨

● مسالك الأبصار وممالك الأمصار.

تحقيق كلاوس لش. فيسبادن ١٩٦٨.

١٩ ـ ابن الفوطي كمال الدين عبد الرزاق (ت ٧٢٣/ ١٣٢٣)

● الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة

نشر مصطفى جواد. بغداد ١٣٥١/ ١٩٣٢

٢٠ ـ ابن كثير أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤/ ١٣٧٣)

● البداية والنهاية ١٤ جـ

القاهرة (١٣٥١ ـ ١٣٥٨/ ١٩٣٢/ ١٩٣٩)

ومكتبة المعارف بيروت. طبعة رابعة ١٤٠١/ ١٩٨١.

٢١ ـ ابن واصل أبو عبد الله جمال الدين محمد بن سالم الشافعي (ت ٦٩٧/ ١٢٩٨)

● مفرج الكروب في أخبار بني أيوب جـ ٢ و ٣

تحقيق جمال الدين الشيال.

نشر مطبعة جامعة القاهرة الجزء الأول ١٣٧٢/ ١٩٥٣

والجزء الثاني ١٣٧٦/ ١٩٥٧.

٢٢ ـ ابن الوردي زين الدين عمر بن محمد (ت ٧٥٠/ ١٣٤٩)

● تاريخ ابن الوردي أو تتمة المختصر في أخبار البشر ٢ جـ.

القاهرة ١٢٨٥/ ١٨٦٨.

والمطبعة الحيدرية ـ النجف ١٣٨٩/ ١٩٦٩.

٢٣ ـ ابن يحيى صالح (ت ٨٥٠/ ١٤٤٦).

● تاريخ بيروت.

تحقيق كمال الصليبي وفرنسيس هورس اليسوعي
بيروت ١٩٦٩ .

٢٤ ـ أبو شامة أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الشامي (ت ٦٦٥/ ١٢٦٧)

● الذيل على الروضتين .
أو تراجم رجال القرنين السادس والسابع
نشر زاهد الكوثري وعزت العطار الحسيني .
دار الجيل بيروت (بدون تاريخ) مصورا عن طبعة القاهرة ١٩٧٤ .

٢٥ ـ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماة (ت ٧٣٢/ ١٣٣٢)

● المختصر في أخبار البشر جـ ٣ و ٤ .
بيروت (بدون تاريخ) عن طبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥/ ١٩٣١ .

٢٦ ـ الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨/ ١٣٤٧)

● دول الإسلام جـ ٢
حيدر آباد الدكن ١٣٣٧/ ١٩١٨ .
ومؤسسة الأعلمي . بيروت ١٤٠٥/ ١٩٨٥ .

٢٧ ـ السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت ٩١١/ ١٥٠٥)

● حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . ٢ جـ
القاهرة ١٣٢٧/ ١٩٠٩ .
● تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة .
القاهرة المكتبة التجارية ١٣٧١/ ١٩٥٢ .

٢٨ ـ القاهري غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣/ ١٤٦٨)

● زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .

تحقيق بول رافسي . باريس ١٨٩٥ .

٢٩ - عماد الدين الأصفهاني أبو عبد الله محمد الفتح بن علي (ت ٥٩٧/ ١٢٠١)

● تاريخ دولة آل سلجوق

القاهرة ١٣١٨/ ١٩٠٠

ودار الآفاق الجديدة - بيروت طبعة ثانية ١٩٧٨ .

٣٠ - القزويني زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢/ ١٢٨٣)

● آثار البلاد وأخبار العباد

نشر وستنفلد - طبع غوتنجن ١٢٦٥/ ١٨٤٨ .

٣١ - القلقشندي أبو العباس أحمد (ت ٨٢١/ ١٤١٨) .

● صبح الأعشى في صناعة الإنشا . ١٤ جـ

القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ .

٣٢ - المقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٣٨٠/ ٩٩٠)

● أحسن التقاسيم في معرفة دول الأقاليم .

مراجعة محمد مخزوم .

بيروت ١٩٨٧ .

٣٣ - المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥/ ١٤٤١) .

● السلوك لمعرفة دول الملوك .

تحقيق محمد مصطفى زيادة .

القاهرة (١٣٥٣ - ١٣٥٨/ ١٩٣٤ - ١٩٣٩)

● المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط) ٢ جـ

بولاق القاهرة ١٢٧٠/ ١٨٥٣ .

ومطبعة الساحل الشايح - بيروت ١٩٥٩ .

● البيان والأعراب فيمن دخل مصر من الأعراب .

القاهرة ١٣٣٤/ ١٩١٦ .

٣٤ - النسوي نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي .

● سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي .

نشر وتعليق حافظ أحمد حمدي.
القاهرة ١٩٥٣.

٣٥ ـ ياقوت الحموي أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦/ ١٢٢٩).

● معجم البلدان ٨ جـ.
في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان
بيروت ١٩٧٩.

٢ ـ المصادر الفارسية

١ ـ بولو ماركو.

● جهانكر دي ماركو بولو.
ترجمة لوي عباسي.
طهران ١٣٣٤/ ١٩١٥.

٢ ـ الجوزجاني أبو عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين (ت ٦٩٨/ ١٢٩٨).

● طبقات ناصري.
نشر وليم ناسوليس، مولوي خادم حسين، مولوي عبد الحي
كلكوتا ١٢٧٩/ ١٨٦٤.

٣ ـ الجويني علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد (ت ٦٨١/ ١٢٨٢).

● تاريخ جهانكشاي.
نشر محمد بن عبد الوهاب القزويني.
ليدن ١٣٢٩ ـ ١٣٥٥/ ١٩١١ ـ ١٩٣٧.

٤ ـ خوندمير غياث الدين محمد بن همام الدين (ت ٩٤٢/ ١٥٣٥).

● حبيب السير في أخبار أفراد البشر (كتبه سنة ٩٣٠/ ١٥٢٣).
بومباي ١٢٧٣/ ١٨٥٨ وطهران ١٣٣٣/ ١٩١٤.

٥ ـ المستوفي حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر القزويني.
● تاريخ كزيده.
نشر عبد الحسين نوائي.
طهران ١٣٣٦ ـ ١٣٣٩/ ١٩١٧ ـ ١٩٢٠.
٦ ـ وصاف الحضرة أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي.
● تاريخ وصاف.
بومباي ١٢٦٩/ ١٨٥٢.

٣ ـ المصادر الفارسية المعربة

٧ ـ رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير موفق الدولة الهمداني (ت ٧١٨/ ١٣١٨).
● جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاي إلى تيمور).
نقله عن الفارسية فؤاد عبد المعطي الصياد.
دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٣.
● جامع التواريخ، تاريخ المغول. مجلد ٢ جـ ١
(تاريخ هولاكو خان).
نقله عن الفارسية إلى العربية محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد.
القاهرة ١٩٦٠.
● جامع التواريخ، تاريخ المغول مجلد ٢ جـ ٢.
(تاريخ أبناء هولاكو خان من آباقا إلى كيخاتو)
نقله عن الفارسية إلى العربية محمد صادق نشأت، فؤاد عبد المعطي الصياد
القاهرة ١٩٦٠.

٤ ـ المراجع الأوروبية المعربة

١ ـ إيفانوف نيقولاي
● الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦ ـ ١٥٧٤)
نقله إلى العربية يوسف عطا الله
دار الفارابي بيروت ١٩٨٨ .

٢ ـ بارتولد ● تاريخ الترك في آسيا الوسطى .
نقله عن التركية أحمد السعيد سليمان
مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٨ .

٣ ـ رنسيمان ستيفن .
● تاريخ الحروب الصليبية ٣ جـ .
تعريب السيد الباز العريني .
دار الثقافة ـ بيروت طبعة ثانية ١٩٨١ .

٤ ـ الصوري وليم (ت ٥٨١/ ١١٨٥)
● تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ و٢ .
تحقيق سهيل زكار .
بيروت ١٩٩٠

٥ ـ لام هارولد
● جنكيزخان وجحافل المغول
تعريب متري أمين .

٦ ـ موير وليم .
● تاريخ دولة المماليك في مصر .
تعريب محمود عابدين وسليم حسن
مصر ١٩٢٤ .

هـ ـ المراجع الأوروبية

1 - **Bretschneider**

Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources.

ST Petersbourg 1887.

2 - **D'ohsson** M Le Baron.

Histoire des Mongols

depuis tchinguiz khan jusqu'à Timour bey ou Tamerlan t.3.

La Haye et Amsterdam 1835.

3 - **Dudley** Pope.

Guns

(The hamlyn publishing group)

London - New york 1969.

4 - **Gaudefroy** Demombynes, M.

La syrie à L'époque des Mamelouks.

d'après les auteurs arabes.

Paris 1923.

5 - **Grousset** René

L'Empire des Steppes.

Paris 1909.

6 - **Lamb** Harold.

The Crusades, The Flame of Islam

London 1931.

الفهارس

١ ـ فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الذال

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

٢ ـ فهرس الأماكن

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الطاء

حرف العين

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٣ ـ فهرس الشعوب والقبائل والطوائف

حرف الألف

حرف الباء

٤ ـ فهرس المعارك

٥ ـ فهرس القلاع والحصون

٦ ـ فهرس الأبواب والأبراج والأسوار

٧ ـ فهرس الخرائط

محتويات الكتاب

الفصل الرابع: طيف الخطر الصليبي (٧٠٢ ـ ٧٨٤/ ١٣٠٢ ـ ١٣٨٢)

الفصل الخامس: نشأة دولة المماليك الثانية ومواجهة خطر تيمورلنك

(٧٨٤ ـ ٨٠٨/ ١٣٨٢ ـ ١٤٠٥)

الفصل السادس - المماليك وتحرير قبرص وغزو رودس

(٨٢٧ ـ ٨٤٧/ ١٤٢٤ ـ ١٤٤٤)

الفصل السابع: السلطان العثماني محمد الثاني وفتح القسطنطينية
(٨٥٧/ ٢٩ آيار ١٤٥٣)

الفصل الثامن: الحروب العثمانية ـ المملوكية (٨٩١ ـ ٩٢٣/١٤٨٦ ـ ١٥١٧)

الفصل التاسع: ملامح من النظم الحضارية زمن المماليك

الملاحق

المصادر والمراجع

الفهارس



السلاطين في المشرق العربي

معالم دورهم السياسي والحضاري

المماليك
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)

يتضمن هذا الكتاب تسعة فصول، تتناول أبرز معالم الدور السياسي والحضاري الذي قام به سلاطين المماليك في المشرق العربي، وتحديداً في مصر والشام، طيلة ٢٦٧ سنة، تبدأ منذ سقوط السلطنة الأيوبية سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م، حتى سقوط السلطنة المملوكية سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م.

وكان قدر بعض هؤلاء السلاطين غير العرب، أن يحملوا راية العروبة لمتابعة المواجهة مع الصليبيين فاسترد الظاهر بيبرس إمارة أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨ م، وحرّر المنصور قلاوون الإمارة طرابلس سنة ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م، ممهداً للأشرف خليل تحرير عكا وبيروت، وتحقيق الجلاء الصليبي التام سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م.

كما قدّر لهؤلاء السلاطين المماليك، أن ينزلوا أشد الضربات بالمغول الذين اجتاحوا بغداد سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م وبلاد الشام سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ م. وقد مهد لتلك الضربات السلطان المظفر قطز الذي حقق الانتصار الأول على المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م.

وتحقيقاً للهدف المنشود، كان لا بد من الحديث عن الدور الذي لعبه المماليك في مواجهة خطر تيمورلنك (٧٨٤ ـ ٨٠٨ هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٤٠٥ م)، والدور الذي قام به أول من حمل لقب سلطان من العثمانيين وهو السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م، وذلك قبل اندلاع الحرب العثمانية ـ المملوكية بمرحلتيها الأولى والثانية، التي أدت إلى سقوط دولة المماليك أثر هزيمة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م، والريدانية سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م.

ويعتبر هذا الكتاب بمثابة المرحلة الثانية من عصر السلاطين في المشرق العربي، وقد سبقه صدور المرحلة الأولى «السلاجقة ـ الأتابكة ـ الأيوبيون» (٤٤٧ ـ ٦٤٨ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٠ م).

